باب الهمزة

الأسد: من السباع معروف وجمعه أُسود وأُسد وآسُد وآساد، والأنثى أسدة، وفي حديث أم زرع: زوجي إن دخل فهد وإن خرج أسد، وله أسماء كثيرة. قال ابن خالويه: للأسد خمسمائة اسم وصفة وزاد عليه علي بن قاسم بن جعفر اللّغوي مائة وثلاثين اسماً، فمن أشهرها: أسامة والبيهس والنآج والجخدب والحارث وحيدرة والدوّاس والرئبال وزفر والسبع والصعب والضرغام والضيغم والطيثار والعنبس والغضنفر والفرافصة والقسورة وكهمس واللّيث والمتأنس والمتهيّب والهرماس والورد. وكثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمّى، ومن كناه: أبو الأبطال وأبو حفص وأبو الأخياف وأبو الزعفران وأبو شبل وأبو العباس وأبو الحارث. وإنّما ابتدأنا به لأنّه أشرف الحيوان المتوحش إذ منزلته منها منزلة الملك المهاب لقوّته وشجاعته وقساوته وشهامته وجهامته وشراسة خلقه ولذلك يضرب به المثل في القوّة والنجدة والبسالة وشدّة الإقدام والجراءة والصولة. ومنه قيل لحمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه أسد الله، ويقال: من نبل الأسد أنّه اشتق لحمزة بن عبد المطّلب من اسمه، وكذلك لأبي قتادة فارس النبيّ ﷺ. ففي صحيح مسلم في باب إعطاء القاتل سلب المقتول: فقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا والله لا يعطيه أضيبعاً من قريش ويدع أسداً من أسد الله تعالى يقاتل عن الله ورسوله. وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الضاد المعجمة.

وهو أنواع كثيرة. قال أرسطو: رأيت نوعاً منها يشبه وجه الإنسان وجسده شديد الحمرة وذنبه شبيه بذنب العقرب ولعلّ هذا هو الّذي يقال له: الورد، ومنه نوع على شكل البقر له قرون سود نحو شبر. وأمّا السبع المعروف فإنّ أصحاب الكلام في طبائع الحيوان يقولون: إنّ

الأنثى لا تضع إلاّ جرواً واحداً تضعه لحمة ليس فيه حس ولا حركة فتحرسه كذلك ثلاثة أيّام ثمّ يأتي أبوه بعد ذلك فينفخ فيه المرّة بعد المرّة حتى يتنفّس ويتحرّك وتنفرج أعضاؤه وتتشكل صورته، ثم تأتي أمّه فترضعه ولا يفتح عينيه إلاّ بعد سبعة أيّام من تخلقه، فإذا مضت عليه بعد ذلك ستة أشهر كلف الاكتساب لنفسه بالتعليم والتدريب. قالوا: وللأسد من الصبر على الجوع وقلّة الحاجة إلى الماء ما ليس لغيره من السباع. ومن شرف نفسه أنّه لا يأكل من فريسة غيره، فإذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها وإذا جاع ساءت أخلاقه، وإذا امتلأ من الطعام ارتاض، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب وقد أشار إلى ذلك الشاعر[1] بقوله:

وأترك حبها من غير بغض ... وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام ... رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء ... إذا كان الكلاب ولغن فيه

وقد ألغز بعضهم في القلم فقال:

وأرقش مرهوف الشباة مهفهف ... يشتت شمل الخطب وهو جميع
تدين له الآفاق شرقاً ومغرباً ... وتعنو له ملاكها وتطيع
حمى الملك مفطوماً كما كان تحتمي ... به الأسد في الآجام وهو رضيع

وإذا أكل نهس من غير مضغ وريقه قليل جداً ولذلك يوصف بالبخر ويوصف بالشجاعة والجبن، فمن جبنه أنّه يفزع من صوت الديك ونقر الطست ومن السنور ويتحير عند رؤية النّار، وهو شديد البطش ولا يألف شيئاً من السباع لأنّه لا يرى فيها ما يكافئه، ومتى وضع جلده على شيء من جلودها تساقطت شعورها، ولا يدنو من المرأة الحائض ولو بلغ الجهد، ولا يزال محموماً، ويعمّر كثيراً وعلامة كبره سقوط أسنانه. روى ابن سبع السبتي في «**شفاء الصدور**» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنّه خرج في بعض أسفاره فبينما هو يسير إذ هو بقوم وقوف فقال: ما لهؤلاء القوم؟ قالوا: أسد على الطريق قد أخافهم، فنزل عن دابته ثم مشى إليه حتى أخذ بأذنه ونحّاه عن الطريق ثم قال: ما كذب عليك رسول الله ﷺ بقوله: إنّما سلطت على ابن آدم لمخافته غير الله، ولو أنّ ابن آدم لم يخف إلاّ الله تعالى لم تسلط عليه، ولو لم يرج إلاّ الله تبارك وتعالى لما وكله إلى غيره. وفي **سنن أبي داود** من حديث عبد الرّحمٰن بن آدم وليس له عنده سواه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض وكأنّ رأسه يقطر ولم يصبه بلل، وأنّه يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال وتقع الأمنة في الأرض حتى يرعى الأسد مع الإبل والنمر مع البقر

(١) هو الإمام الشافعي.

والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيّات ولا يضر بعضهم بعضاً، ثم يبقى في الأرض أربعين سنة ثم يموت ويصلّي عليه المسلمون ويدفنونه».

وفي «**الحلية**» لأبي نعيم في «ترجمة ثور بن يزيد» قال: بلغني أنّ الأسد لا يأكل إلاّ من أتى مُحَرَّماً. وقصة سفينة مولى رسول الله ﷺ مع الأسد مشهورة رواها البزار والطبراني وعبد الرزّاق والحاكم وغيرهم. وذكر البخاري في **تاريخه** أنّه بقي إلى زمن الحجّاج.

روى محمد بن المنكدر عنه أنّه قال: ركبت سفينة في البحر فانكسرت فركبت لوحاً فأخرجني إلى أجمة فيها أسد فأقبل إلي فقلت: أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ وأنا تائه، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق ثم همهم فظننت أنّه السلام. وفي «**دلائل النبوّة**» للبيهقي عن ابن المنكدر أيضاً أنّ سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الرّوم وأسر في أرض الرّوم فانطلق هارباً يلتمس الجيش فإذا هو بالأسد، فقال له: يا أبا الحارث أنا سفينة مولى رسول الله ﷺ كان من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد يبصبص حتى قام إلى جنبه وكلّما سمع صوتاً أهوى إليه ثم يمشي إلى جنبه، فلم يزل كذلك حتى بلغ الجيش، فرجع الأسد. واختلف في اسم سفينة رضي الله عنه فقيل: رومان؛ وقيل: مهران؛ وقيل: طهمان؛ وقيل: عمير. روى مسلم له حديثاً واحداً والترمذي والنسائي وابن ماجه ودعا النبيّ ﷺ على عتبة بن أبي لهب فقال: «**اللّهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك**»، فافترسه الأسد بالزرقاء من أرض الشام، رواه الحاكم من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه، وقال صحيح الإسناد.

وروى الحافظ أبو نعيم بسنده إلى الأسود بن هبار قال: تجهز أبو لهب وابنه عتبة نحو الشام، فخرجت معهما فنزلنا الشراة قريباً من صومعة راهب فقال الراهب: ما أنزلكم هٰهنا؟ هنا سباع فقال أبو لهب: أنتم عرفتم سني وحقي؟ قلنا: أجل، قال: إنّ محمداً دعا على ابني فاجمعوا متاعكم على هذه الصومعة ثم افرشوا لابني عليه وناموا حوله. ففعلنا ذلك وجمعنا المتاع حتى ارتفع ودرنا حوله وبات عتبة فوق المتاع، فجاء الأسد فشم وجوهنا ثم وثب فإذا هو فوق المتاع فقطع رأسه، فقال: سيفي يا كلب، ولم يقدر على غير ذلك. وفي رواية: فوثب الأسد فضربه بيده ضربة واحدة فخدشه، فقال: قتلني، فمات لساعته. وطلبنا الأسد فلم نجده. وإنّما سمّاه النبيّ ﷺ كلباً لأنّه يشبهه في رفع رجله عند البول.

تنبيه: روى البخاري في «**صحيحه**» أنّ النبيّ ﷺ قال: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»، وفي حديث آخر أنّه ﷺ أخذ بيد مجذوم وقال: «**باسم الله ثقة بالله وتوكلاً عليه**»، وأدخلها معه الصحفة. قال الشافعي رحمه الله في عيوب الزوجين: إن الجذام والبرص يعدي، وقال: إنّ ولد المجذوم قلّما يسلم منه، قلت: ومعنى قول الشافعي رضي الله عنه أنّه يعدي أي بتأثير الله تعالى لا بنفسه، لأنّ الله تعالى أجرى العادة بابتلاء السليم عند مخالطة المبتلى، وقد يوافق

قدراً وقضاء فيظن أنّه عدوى. وقد قال ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة**»، كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وأمّا قوله في الولد قلّما يسلم منه فقد قال الصيدلاني: معناه أنّ الولد قد ينزعه عرق من الأب فيصير أجذم.

وقد قال ﷺ لرجل قال له: إنّ امرأتي قد ولدت غلاماً أسود: «**لعلّ عرقاً نزعه**»، وبهذا الطريق يحصل الجمع بين هذه الأحاديث، وجاء في الحديث أنّه ﷺ قال: «**لا يورد ذو عاهة على مصح**»، وأنّه ﷺ أتاه مجذوم ليبايعه فلم يمد يده إليه بل قال له: «أمسك يدك فقد بايعتك»، وفي مسند الإمام أحمد أنّ النبيّ ﷺ قال: «**لا تطيلوا النظر إلى المجذوم وإذا كلمتموه فليكن بينكم وبينه قدر رمح**».

وقد ذكر الشيخ صلاح الدين العراقي في **القواعد** أنّ الأم إذا كان بها جذام أو برص سقط حقها من الحضانة لأنّه يخشى على الولد من لبنها ومخالطتها. واستدل بقوله ﷺ: «**لا يورد ذو عاهة على مصح**»، والّذي ذكره ظاهر وهو المختار ويؤيده ما أفتى به ابن تيمية صاحب المحرر من الحنابلة رحمه الله وصرّح به أئمة المالكية أنّ المبتلى لو أراد مساكنة الأصحاء في رباط أو غيره مُنع إلاّ بإذنهم ولو كان ساكناً وابتلي أُزعج وأُخرج.

وأمّا أصحابنا فصرّحوا بأنّ الأمة إذا كان سيدها مجذوماً وجب عليها تمكينه من الاستمتاع، وهذا مع أشكاله فقد أورد في **الروضة** في الزوجة المختارة للمقام مع الزوج المجذوم وقد يفرق بينهما بقوّة الملك والله أعلم. وقد جاء في الحديث أنّ النبيّ ﷺ قال لامرأة: «أكلك الأسد»، فأكلها. وروى الطبراني وأبو منصور والديلمي والحافظ المنذري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**أتدرون ما يقول الأسد في زئيره؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إنّه يقول: اللّهم لا تسلّطني على أحد من أهل المعروف**».

فائدة أخرى: روى ابن السني في «**عمل اليوم والليلة**» من حديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أنّه قال: إذا كنت بواد تخاف فيه الأسد فقل: أعوذ بدانيال وبالجب من شر الأسد ا هـ. أشار بذلك إلى ما رواه البيهقي في الشعب أن دانيال عليه السلام طُرح في جب وأُلقيت عليه السباع، فجعلت السباع تلحسه وتبصبص إليه، فأتاه ملك فقال: يا دانيال، فقال: من أنت؟ فقال: أنا رسول ربك أرسلني إليك بطعام، فقال دانيال: الحمد لله الّذي لا ينسى من ذكره ا هـ.

وروى ابن أبي الدنيا أنّ بختنصر ضَرَّى[1] أسدين وألقاهما في جب وأمر دانيال فألقي

(١) ضَرَّى: أغرى بالافتراس.

عليهما فمكث ما شاء الله، ثم إنّه اشتهى الطعام والشراب، فأوحى الله تعالى إلى أرمياء وهو بالشام أن يذهب إلى دانيال بطعام وشراب وهو بأرض العراق، فذهب به إليه حتى وقف على رأس الجب وقال: دانيال دانيال، فقال: من هذا؟ فقال: أرمياء، فقال: ما جاء بك؟ قال: أرسلني إليك ربّك، فقال دانيال: الحمد لله الّذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الّذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الّذي من وثق به لا يكله إلى سواه، والحمد لله الّذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الّذي يجزي بالصبر نجاة وغفراناً، والحمد لله الّذي يكشف ضرّنا بعد كربنا، والحمد لله الّذي هو ثقتنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الّذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل منّا.

ثم روى ابن أبي الدنيا من وجه آخر أنّ الملك الّذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له: إنّه يولد في ليلة كذا وكذا غلام يفسد ملكك، فأمر بقتل كل من يولد في تلك الليلة، فلما ولد دانيال ألقته أمّه في أجمة أسد ولبوة فبات الأسد ولبوته يلحسانه، فنجّاه الله تعالى بذلك حتى بلغ ما بلغ، وكان من أمره ما قدره العزيز العليم، ثم روى بإسناده عن عبد الرّحمٰن بن أبي الزناد عن أبيه أنّه قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه خاتماً نقشُ فصّه أسدان بينهما رجل وهما يلحسان ذلك الرجل، فقال أبو بردة: هذا خاتم دانيال أخذه أبو موسى حين وجده ودفنه، فسأل أبو موسى علماء تلك البلدة عن ذلك فقالوا: إنّ دانيال نقش صورته وصورة الأسدين وهما يلحسانه في فص خاتمه كما ترى لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك اهـ. فلما ابتلي دانيال عليه السلام بالسباع أوّلاً وآخراً جعل الله تعالى الاستعاذة به في ذلك تمنع شر السباع الّتي لا تستطاع.

وفي **المجالسة** للدينوري عن معاذ بن رفاعة قال: مرّ يحيى بن زكريا عليه السلام بقبر دانيال النبيّ عليه السلام فسمع صوتاً من القبر يقول: سبحان من تعزّز بالقدرة وقهر العباد بالموت. فمضى فإذا هو بصوت من السماء: أنا الّذي تعزّزت بالقدرة وقهرت العباد بالموت، من قالهن استغفرت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن. وكان دانيال عليه السلام قد آتاه الله تعالى النبوّة والحكمة وكان في أيّام بختنصر. قال أهل التاريخ إن بختنصر أسر دانيال مع من أُسر من بني إسرائيل وحبسهم، ثم رأى بختنصر رؤيا أفزعته وعجز الناس عن تعبيرها ففسرها دانيال فأعجبه وأكرمه قالوا: وقبره بنهر السوس، ووجده أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فأخرجه وكفّنه وصلّى عليه ثم قبره في نهر السوس وأجرى عليه الماء.

وفي المجالسة أيضاً قال عبد الجبّار بن كليب: كنّا مع إبراهيم بن أدهم في سفر فعرض لنا الأسد فقال إبراهيم: قولوا اللّهمّ احرسنا بعينك الّتي لا تنام واحفظنا بركنك الّذي لا يرام وارحمنا بقدرتك علينا لا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله، قال: فولى الأسد عنّا هارباً، قال: فأنا أدعو به عند كل أمر مخوف فما رأيت إلاّ خيراً.

فائدة: قال بعض العلماء المحققين: وممّا جرب لإذهاب الخوف والهمّ والغمّ أن يكتب هاتين الآيتين ويحملهما فإنّ الله تعالى يبارك له في جميع أحواله وينصره على أعدائه وهما ينفعان للأمراض الباطنة وكل ألم يحدث في بدن الإنسان، وكل آية منهما تجمع الحروف المعجمة بأسرها وتكتب في إناء نظيف وتمحى بدهن ورد أو زيت طيب أو شيرج ويطلى به الألم كالدمّل والطلوع والحرارة والريح والثآليل والنفخ والقروحات بأسرها فإنّه يزول ويبرأ من يومه في الغالب كما جرب مراراً، وهما من الأسرار المخزونة، كذا قاله شيخنا اليافعي رحمه الله. الآية الأولى من سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154]، الآية الثانية من سورة الفتح قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 29] إلى آخر السورة، انتهى.

وذكر بعض أهل التاريخ أنّ ملكاً من الملوك خرج يدور في ملكه فوصل إلى قرية عظيمة فدخلها منفرداً، فأخذه العطش فوقف بباب دار من دور القرية وطلب ماءً، فخرجت إليه امرأة جميلة بكوز فيه ماء وناولته إيّاه، فلما نظرها افتتن بها فراودها عن نفسها، وكانت المرأة عارفة به فعلمت أنّها لا تقدر على الامتناع منه فدخلت وأخرجت له كتاباً وقالت: انظر في هذا إلى أن أصلح من أمري ما يجب وأعود. فأخذ الملك الكتاب ونظر فيه فإذا فيه الزجر عن الزنا وما أعد الله تعالى لفاعله من العذاب الأليم، فاقشعر جلده ونوى التوبة وصاح بالمرأة وأعطاها الكتاب ومر ذاهباً. وكان زوج المرأة غائباً فلما حضر زوجها أخبرته الخبر فتحيّر الزوج في نفسه وخاف أن يكون وقع غرض الملك فيها، فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك، ومكث على ذلك مدّة فأعلمت المرأة أقاربها بحالها مع زوجها فرفعوه إلى الملك، فلمّا مثل بين يدي الملك قال أقارب المرأة: أعزّ الله مولانا الملك، إنّ هذا الرجل قد استأجر منّا أرضاً للزراعة فزرعها مدّة ثم عطلها فلا هو يزرعها ولا هو يتركها لنؤجرها لمن يزرعها، وقد حصل الضرر للأرض ونخاف فسادها بسبب التعطيل لأنّ الأرض إذا لم تزرع فسدت، فقال الملك لزوج المرأة: ما يمنعك من زرع أرضك؟ فقال: أعزّ الله مولانا إنّه قد بلغني أنّ الأسد دخل أرضي وقد هبته ولم أقدر على الدنو منها لعلمي بأنّ لا طاقة لي بالأسد، ففهم الملك القصة فقال: يا هذا إنّ أرضك طيّبة صالحة للزرع فازرعها بارك الله لك فيها فإنّ الأسد لن يعود إليها، ثم أمر له ولزوجته بصلة حسنة وصرفه.

وفي «**تاريخ ابن خلكان**» أنّه لمّا دخل المازيار على المعتصم وكان قد اشتدّ غضبه عليه فقيل له: يا أمير المؤمنين لا تعجل فإنّ عنده أموالاً جمّة فأنشد المعتصم بيت أبي تمام:

إنّ الأسود أسود الغاب همّتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وقد أحسن خالد الكاتب حيث قال:

عَلَّمَ الغيثَ الندى حتى إذا ... ما وعاه علم البأسَ الأسد

فإذا الغيث مقر بالندى وإذا اللّيث مقر بالجلد

ومن شعره:

ظفر الحب بقلب دنف بك والسقم بجسم ناحل
وبكى العاذل لي من رحمتي فبكائي لبكاء العاذل

وكان خالد شيخاً كبيراً تأخذه السوداء أيّام الباذنجان، وكان الصبيان يتّبعونه ويصيحون به: يا خالد يا بارد، فأسند ظهره يوماً إلى قصر المعتصم وقال لهم: كيف أكون بارداً وأنّا الّذي أقول:

بكى عاذلي من رحمتي فرحمته وكم مسعد من مثله ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنّها دموع دموعي لا دموع جفوني

وفي روضة العلماء أنّ نوحاً عليه السلام لمّا غرس الكرمة جاء إبليس فنفخ فيها فيست فاغتمّ نوح لذلك وجلس متفكراً في أمرها، فجاءه إبليس وسأله عن تفكّره فأخبره، فقال له: يا نبيّ الله إن أردت أن تخضرّ الكرمة فدعني أذبح عليها سبعة أشياء، فقال: افعل. فذبح أسداً ودباً ونمراً وابن آوى وكلباً وثعلباً وديكاً وصب دماءهم في أصل الكرمة فاخضرت من ساعتها وحملت سبعة ألوان من العنب وكانت قبل ذلك تحمل لوناً واحداً، فمن أجل ذلك يصير شارب الخمر شجاعاً كالأسد وقوياً كالدب وغضبان كالنّمر ومحدّثاً كابن آوى ومقاتلاً كالكلب ومتملّقاً كالثعلب ومصوّتاً كالدّيك، فحرّمت الخمر على قوم نوح. ونوح اسمه عبد الجبّار وإنّما سمّي نوحاً لنوحه على ذنوب أمّته، وأخوه صابىء بن لامك وإليه ينسب دين الصابئين فيما ذكروا والله أعلم.

تذنيب: كان أبو مسلم الخراساني واسمه عبد الرّحمٰن بن مسلم بعد فراغه من أمر بني أميّة ينشد كل وقت:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدي في دمارهم والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ونام عنها تولى رعيها الأسد

قال ابن خلكان في «ترجمته» وكان أبو العباس السفّاح شديد التعظيم لأبي مسلم لما صنعه ودبّره، فلمّا مات السفّاح وولّي أخوه المنصور صدرت من أبي مسلم أشياء أوغرت صدر المنصور عليه وهمّ بقتله، وبقي حائراً بين الاستبداد برأيه في أمره والاستشارة فقال يوماً لمسلم بن قتيبة: ما ترى في أمر أبي مسلم، فقال: يا أمير المؤمنين لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فقال: حسبك يا بن قتيبة لقد أودعتها أذناً واعية. ولم يزل المنصور يخدعه حتى

أحضره إليه والمنصور بالمدائن فأمر بإدخاله عليه وكان المنصور قد رتّب جماعة لقتله، وقال لهم: إذا رأيتموني قد مسحت بيدي وجهي فاضربوه، فلما أدخل عليه أخذ المنصور يقرعه بما صدر منه ثم مسح وجهه فبادروه فصاح: استبقني لأعدائك يا أمير المؤمنين، فقال له المنصور: وأي عدو أعدى منك يا عدو الله؟ فلما قتل هاج أصحابه، فأمر المنصور بنثر الدراهم والدنانير عليهم فسكنوا ورمى رأسه إليهم ثم أدرج في بساط، فدخل على المنصور جعفر بن حنظلة فرأى أبا مسلم في البساط، فقال: يا أمير المؤمنين عد هذا اليوم أوّل خلافتك فأنشد المنصور متمثلاً:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

ثم أقبل المنصور على من حضره وأبو مسلم طريح بين يديه وأنشد:

زعمت أنّ الدين لا يقتضي فاستوف بالكيل أبا مجرم
اشرب بكأس كنت تسقي بها أمرّ في الحلق من العلقم

وكان يقال له: أبو مجرم أيضاً وفيه يقول أبو دلامة:

أبا مجرم ما غيّر الله نعمة على عبده حتى يغيّرها العبد
أفي دولة المنصور حاولت غدره ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكرد
أبا مجرم خوّفتني القتل فانتحى عليك بما خوفتني الأسد الورد

ولمّا قتله المنصور خطب الناس فذكر أنّ أبا مسلم أحسن أوّلاً وأساء آخراً، ثم قال في آخر خطبته: وما أحسن ما قال النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

فمن أطاعك فانفعه لطاعته كما أطاعك وادلُلْه على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم ولا تقعد على ضَمَد

والضمد بفتح الضاد المعجمة والميم: الحقد، وكان قتله في شعبان سنة ست أو سبع وثلاثين ومائة. قال ابن خلكان وغيره: وكان أبو مسلم قد سمع الحديث وروي عنه وأنّه خطب يوماً، فقام إليه رجل فقال: ما هذا السواد الّذي أراه عليك؟ فقال أبو مسلم: حدّثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ دخل مكّة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة، يا غلام اضرب عنقه. قلت: حديث جابر هذا في «**صحيح مسلم**».

قال ابن الرفعة: وفي الحديث الصحيح أنّ النبيّ ﷺ صعد المنبر وعلى رأسه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه وهو أيضاً في «**صحيح مسلم**». قال ابن الرفعة: ومن ثم كان شعار بني العباس في الخطبة السواد اهـ. قيل: أحصي من قتله أبو مسلم صبراً وفي حروبه فكانوا ستمائة ألف واختلف في نسبه؛ فقيل: من العرب؛ وقيل: من العجم؛ وقيل: من

الأكراد؛ وروي أنّه قيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله: أبو مسلم خير أم الحجّاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد ولكن كان الحجاج شراً منه ا هـ.

وكان أبو مسلم فصيحاً عالماً بالأمور ولم ير قط مازحاً ولم يظهر عليه سرور ولا غضب، ولا يأتي النساء إلاّ مرةً واحدةً في السنة، وكان يقول: الجماع جنون، ويكفي الإنسان أن يجن في السنة مرة واحدة. وروي أنّه قيل لأبي مسلم: ما كان سبب خروج الدولة عن بني أمية؟ قال: لأنّهم أبعدوا أولياءهم ثقة بهم وأدنوا أعدائهم تألفاً لهم فلم يصر العدو صديقاً بالدنو وصار الصديق عدواً بالإبعاد. وكان أبو مسلم مميت دولة بني أمية ومحيي دولة بني العباس.

وذكر ابن الأثير وغيره أنّ أبا جعفر المنصور لمّا حاصر ابن هبيرة قال: إن ابن هبيرة يخندق على نفسه مثل النساء، فبلغ ذلك ابن هبيرة فأرسل إليه: أنت القائل كذا وكذا فابرز إلي لترى. فأرسل إليه المنصور: ما أجد لي ولك مثلاً في ذلك إلاّ كالأسد لقي خنزيراً، فقال له الخنزير: بارزني، فقال له الأسد: ما أنت لي بكفء فإن نالني منك سوء كان ذلك عاراً علي وإن قتلتك قتلت خنزيراً فلم أحصل على حمد ولا في قتلي لك فخر، فقال له الخنزير: إن لم تبارزني لأعرّفن السباع أنّك جبنت عني، فقال الأسد: احتمال عار كذبك أيسر من تلطخ راحتي بدمك.

الحكم: قال الشافعي وأبو حنيفة وأحمد وداود والجمهور: يحرم أكل الأسد لما روى مسلم في **صحيحه** أنّ النبيّ ﷺ قال: «**كل ذي ناب من السباع فأكله حرام**». قال أصحابنا: المراد بذي الناب ما يتقوى بنابه ويصطاد. وفي **الحاوي** للماوردي قال الشافعي: إنّه ما قويت أنيابه فعدا بها على الحيوان طالباً غير مطلوب فكان عدوه بأنيابه علّة تحريمه. وقال أبو إسحٰق المروزي: هو ما كان عيشه بأنيابه؛ فإنّ ذلك علّة تحريمه، وقال أبو حنيفة: هو ما افترس بأنيابه وإن لم يبتدىء بالعدو وإن عاش بغير أنيابه، فهذه ثلاث علل أعمّها علة أبي حنيفة وأوسطها علّة الشافعي وأخصّها علّة المروزي، فعلى العلّتين الأوليين يحل الضبع لأنّه يتناوم حتى يصطاد، وتحل السنانير على قول الشافعي لأنّها لم تتقو بأنيابها وتكون مطلوبة لضعفها، لكن قد صحح الأصحاب تحريمها كما سيأتي إن شاء الله تعالى في باب السين المهملة، ويحل ابن آوى على ما علله الإمام الشافعي لأنّه لا يبتدىء بالعدو ويحرم على ما علله المروزي لأنّه يعيش بنابه وهذا هو الأصح كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى، وقال مالك: يكره أكل كل ذي ناب من السباع ولا يحرم واحتجّ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام: 145]. واحتجّ أصحابنا بالحديث المذكور. قالوا: والآية ليس فيها إلا الإخبار بأنّه لم يجد في ذلك الوقت محرماً إلاّ المذكورات في الآية ثم أوحي إليه بتحريم كل ذي ناب من السباع فوجب قبوله والعمل به. قال الشافعي رضي الله عنه: ولأنّ العرب لم تأكل أسداً ولا ذئباً ولا كلباً ولا نمراً ولا دباً ولا كانت تأكل الفأر ولا العقارب ولا الحيّات ولا الحدأ ولا الغربان ولا الرخم ولا البغاث ولا الصقور ولا الصوائد من الطير ولا الحشرات.

وأمّا بيع الأسد فلا يصح لأنّه لا ينتفع به وحرّم الله أكل فريسته.

الأمثال: إنّما كانت العرب أكثر أمثالها مضروبة بالبهائم فلا يكادون يذمون ولا يمدحون إلا بذلك، لأنّهم جعلوا مساكنهم بين السباع والأحناش والحشرات فاستعملوا التمثيل بها لذلك. روى الإمام أحمد بإسناد حسن والحسن بن عبد الله العسكري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: حفظت من رسول الله ﷺ ألف مثل، فلذلك ذكر العسكري في كتابه الأمثال ألف حديث مشتملة على ألف مثل من كلام النبيّ ﷺ. فممّا يخص الأسد من ذلك أنّهم قالوا: أكرم من الأسد وأبخر من الأسد وأكبر من الأسد وأشجع من الأسد وأجرأ من الأسد، وضربوا المثل بالخوف من الأسد، قال مجنون ليلى واسمه عامر بن قيس على خلاف فيه:

يقولون لي يوماً وقد جئت حيهم ... وفي باطني نار يشب لهيبها
أما تختشي من أسدنا فأجبتهم ... هوى كل نفس أين حل حبيبها

وضربوا المثل أيضاً بأسد الشرى وهو طريق بسلمى كثيرة الأسد، قال الفرزدق:

وإن الّذي يسعى ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشرى يشتبيلها[1]

قيل معنى يشتبيلها: يأخذ أولادها.

وينسب إلى الفرزدق مكرمة يرجى له بها الجنة وهي أنّه لمّا حجّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك لكثرة الزحام، فنصب له كرسي وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان أهل الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل (زين العابدين علي بن الحسين بن علي) ﷺ وكان من أجمل النّاس وجهاً وأطيبهم أرجاً، فطاف بالبيت، فلمّا انتهى إلى الحجر تنحّى له النّاس حتى استلم الحجر فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الّذي هابه النّاس هذه الهيبة؟ فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام. وكان الفرزدق حاضراً فقال: أنا أعرفه، فقال الشامي: من هو يا أبا فراس؟ فقال الفرزدق:

هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقيّ النقيّ الطاهر العلمُ
هذا الّذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمي إلى ذروة العز الّتي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
في كفّه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه[2] شمم

(١) ويروى: يستبيلها بالسين.
(٢) العرنين: الأنف.

يُغْضِي حياء ويُغْضَى من مهابته ... فما يكلّم إلاّ حين يبتسم
ينشق نور الهدى من نور غرّته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
مشتقّة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم[1] والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجَدِّه أنبياء الله قد ختموا
الله شرّفه قدماً وعظمه ... جرى بذاك له في لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... يستوكفان[2] ولا يعروهما عدم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنان: حسن الخلق والشيم
حمّال أثقال أقوام إذا اقترحوا ... حلو الشمائل يحلو عنده نعم
ما قال لا قطُّ إلاّ في تشهّده ... لولا التشهّد كانت لاءَه نعم
عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها الغيابة والإملاق[3] والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهمو ... كفر وقربهمو منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل همو
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهمو قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت ... والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم ... سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
مقدم بعد ذكر الله ذكرهمو ... في كل بدء ومختوم به الكلم
أي الخلائق ليست في رقابهم ... لأوّلية هذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أوّليه ذا ... فالدّين من بيت هذا ناله الأمم

فغضب هشام على الفرزدق وأمر بحبسه، فأنفذ له زين العابدين اثني عشر ألف درهم فردّها وقال: مدحته لله تعالى لا للعطاء، فأرسل إليه زين العابدين، وقال له: إنّا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده والله عز وجل يعلم نيّتك ويثيبك عليها فشكر الله لك سعيك، فلما بلغته الرسالة قبلها.

والفرزدق اسمه همام بن غالب، والفرزدق لقب غلب عليه، والفرزدق قطع العجين، الواحدة: فرزدقة، وإنّما لقّب به لأنّه أصابه جدري وبرىء منه فبقي وجهه جهماً محمراً منتفخاً، وقيل: لقب به لغلظه وقصره. وقال ابن خلكان ومحمد بن سفيان أحد أجداد الفرزدق: هو أحد الثلاثة الّذين سمّوا بمحمد في الجاهلية فإنّه لا يعرف أحد سمّي بهذا الاسم

(١) الخِيم: الأصل.
(٢) يستوكفان: تفيضان جوداً.
(٣) الإملاق: الفقر.

قبله ﷺ إلاّ ثلاثة، كان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب الأوّل فأخبرهم بمبعث النبيّ ﷺ وباسمه، وكان كلّ منهم قد خلف زوجته حاملاً فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسمّيه محمداً ففعلوا ذلك، وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق والآخر محمد بن أحيحة بن الجلاح أخو عبد المطّلب لأمّه، والآخر محمد بن حمران بن ربيعة، وأمّا أحمد فلم يتسمّ به أحد قبله ﷺ.

فائدة: قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي قال: حدّثنا عبد الله بن صالح قال: حدّثنا اللّيث قال: حدّثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لمّا حمل نوح عليه السلام في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه: وكيف نطمئن أو نطمئن مواشينا ومعنا الأسد؟ فسلّط الله عليه الحمى، فكان أوّل حمى نزلت في الأرض، فهو لا يزال محموماً ثم شكوا الفأرة، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا وشرابنا ومتاعنا، فأوحى الله تعالى إلى الأسد فعطس فخرجت الهرّة منه فتخبأت الفأرة منها**» وهذا مرسل.

وفي «**الحلية**» لأبي نعيم في ترجمة وهب بن منبه أنّه قال: لما أمر نوح عليه السلام أن يحمل من كل زوجين اثنين قال: يا رب كيف أصنع بالأسد والبقر؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب؟ وكيف أصنع بالحمام والثعلب؟ فأوحى الله تعالى إليه: من ألقى بينهم العداوة؟ فقال: أنت يا رب، قال عزّ وجلّ: فإنّي أؤلّف بينهم فلا يتضررون.

الخواص: قال عبد الملك بن زهير صاحب الخواص المجرّبة: من لطخ بشحم الأسد جميع بدنه هربت منه السباع، ولم ينله منها مكروه، وصوته يقتل التماسيح إذا سمعته، ومرارة الذكر منه تحل المعقود عن النساء إذا سقي منها في بيضة في مستهل الشهر، ومن علق عليه قطعة من جلده بشعرها أبرأته من الصرع قبل البلوغ فإن كان الصرع قد أصابه بعده لم تنفعه، وإذا أحرق من شعره في مكان هربت منه سائر السباع، ولحمه ينفع من الفالج وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق مع ثياب لم يصبها السوس ولا الأرضة، وسنه إذا استصحبها إنسان معه أمن وجع الأسنان، وشحمه إذا طلي به اليدان والرجلان أمنت من مضرة البرد، وإذا طلي به البدن لم يقربه القمل وذنبه إذا استصحبه إنسان لا تؤثر فيه حيلة محتال. وقال هرمس: الجلوس على جلد الأسد يذهب البواسير والنقرس، قال: ومن أخذ من شحم جبهته وذوّبه بدهن ورد ومسح به وجهه هابه الملوك وجميع الناس. وقال الطبري: الاكتحال بمرارة الأسد يحد البصر قال: ومرارة الأسد إذا سقي منها وزن دانق لليرقان بماء بزر قطوناً ونعنع نفع نفعاً بيناً، وخصيته إذا ملحت ببورق أحمر ومصطكى وجففت وسحقت وخلطت بسويق[1] وشربت نفعت من جميع الأوجاع التي في الجوف مثل المغص والقولنج والبواسير والزحير ووجع

(١) السَّويق: دقيق الحنطة الناعم.

الأرحام وتشرب بماء حار على الريق، ودماغ الأسد يداف بزيت عتيق ويدهن به الاختلاج والارتعاش يذهبهما، ومن دهن وجهه وجميع بدنه بشحم الأسد ذهب عنه الكسل والكلف وكل عيب يكون في الوجه، وزبله إذا جفف وخلط به الدلوك الّذي يتدلّك به نفع من البهق الظاهر، وهو نافع لذلك جداً، وإن سقي منه أي من زبله إنسان لا يصبر عن الخمر ولا يعلم به وزن دانق أبغضه حتى لا يشربه ولا يشتهي أن يراه، ومرارته تداف بالعسل ويجعل منها على الخنازير تزول، وشحمه إذا دقّ بالثوم وطلى به إنسان جسده لم تقربه السباع، والله أعلم.

التعبير: الأسد في المنام سلطان شديد البطش والبأس ظالم مجاهر متسلّط بجراءته لا يأمنه صديق، ولا عدو ويعبر أيضاً بعدو مسلّط وربّما دلّ على الموت لأنّه يقبض الأرواح، ربّما دلّت رؤيته على عافية المريض، فمن رأى أسداً من حيث لا يراه وهرب منه النّائي فإنّه ينجو ممّا يخاف وينال حكماً وعلماً لقوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 21]، فإن كان قد استقبله وهرب منه نال هماً من ذي سلطان ثم ينجو من الهلاك والمرض، ومن رأى أنّ أسداً صرعه ولم يقتله فإنّه يحم حمى دائمة لأنّ الأسد لا تفارقه الحمّى، كما تقدّم أو يسجن لأنّ الحمى سجن المؤمن، وربّما دلّت مصارعته على المرض، ومن رأى أنّه أخذ شيئاً من شعره أو عظمه أو لحمه نال مالاً من سلطان أو من عدوّ، ومن رأى أنّه ركب أسداً وهو يخافه فإنّه يقع في بلية، فإن كان لا يخافه قهر عدوّاً فإن ضاجعه وهو لا يخافه أمن من عدوّه، ومن رأى أسداً يثب على النّاس فإنّ السلطان يظلم رعيته، ومن رأى أنّه أكل رأس أسد نال ملكاً، ومن رأى أنّه يرعى أسداً فإنّه يؤاخي ملكاً ظالماً، ومن رأى أنّه أخذ جرو أسد في حجره فإن امرأته تضع غلاماً إن كانت حاملاً وإلا فإنّه يحمل ولد أمير في حجره كما عبره ابن سيرين رحمه الله، ومن رأى أنّ أسداً قد زاره فإنّه يمرض، ومن رأى أنّ الأسد قد قتله فإن كان عبداً فإنّه يعتق وإلاّ حصل له خوف من سلطان، وصوت الأسد يدل على تهدد من سلطان، ومن رأى أنّ أسداً يتملّق له جرى على يديه أمور عجيبة وربّما دلّ على قهر عدوّ والله أعلم.

تتمة: قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: لو يعلم النّاس ما في علم الكلام من الأهواء لفرّوا منه فرارهم من الأسد، قال في «**الإحياء**»: فإن قلت: تعلم الجدال والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه فاعلم أنّ للنّاس في هذا غلواً وإسرافاً فمن قائل: إنّه بدعة وحرام وإن العبد إن لقي الله تعالى بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل: إنّه واجب وفرض إما على الكفاية أو فرض عين وإنه من أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنّه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى.

وممن ذهب إلى التحريم الشافعي: ومالك والإمام أحمد وسفيان وأهل الحديث قاطبة، قال ابن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يوم ناظر حفصاً الفرد وكان من متكلمي المعتزلة يقول:

لأن يلقى الله تبارك وتعالى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام. وقال أيضاً: قد اطلعت لأهل الكلام على شيء ما ظننته قط، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام.

وحكى الكرابيسي أنّ الشافعي سئل عن شيء من الكلام فغضب وقال: يسأل عن هذا حفص الفرد وأصحابه أخزاهم الله! ولمّا مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: أنت حفص الفرد لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه. وقال أيضاً: إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمّى أو غير المسمّى فاشهد أنّه من أهل الكلام ولا دين له، وقال أيضاً: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة وأخذ في الكلام، وقال الإمام أحمد رحمه الله: لا يفلح صاحب الكلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً ينظر في الكلام إلاّ وفي قلبه مرض، وبالغ في ذمّه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه لتصنيفه كتاباً في الرّد على المبتدعة، وقال له: ويحك ألست تحكي بدعتهم أولاً ثمّ ترد عليهم؟ ألست تحمل النّاس بتصنيفك على مطالعة كلام أهل البدعة والتفكر فيه فيدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث، وقال أحمد أيضاً: علماء الكلام زنادقة وقال مالك: لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء.

قال بعض أصحابه في تأويل ذلك: إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أيّ مذهب كانوا، وقال أبو يوسف: من طلب العلم بالكلام تزندق. وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ولا يحصر ما نقل عنهم عن التشديدات فيه.

وأمّا الفرق الأخرى فاحتجوا بأن المحظور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة الّتي لم يعهدها الصحابة رضي الله عنهم، فالأمر في ذلك قريب، إذ ما من علم إلاّ وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير وتصنيف الفقه من موضع الصور النادرة الّتي لا تتفق إلاّ على الندور، إمّا ادّخاراً ليوم وقوعها، وإن كان نادراً أو تشحيذاً للخاطر فنحن أيضاً نرتب طريق الحاجة لتوقع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشحيذ الخاطر أو لادّخار الحجّة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة إليها على البديهة والارتجال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القتال.

قال: فإن قلت: فما المختار فيه عندك؟ فاعلم أنّ الحق فيه أنّ إطلاق القول بذمّه في كل حال أو بمدحه في كل حال خطأ بل لا بدّ فيه من التفصيل، فاعلم أوّلاً أنّ الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة، وأعني بقولي لذاته أنّ علّة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت، وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنّه حرام، ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطرار وإباحة تجرّع الخمر لإساغة ما يغص به الإنسان من الطعام إذا لم يجد ما يسيغه به سوى الخمر، وقد يحرّم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الخيار والبيع وقت

النداء وكأكل الطين فإنّه يحرّم لما فيه من الإضرار، وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيره، فيطلق القول عليه بأنّه حرام كالسم الذي يقتل قليله وكثيره، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل، فإنّ كثرته تضرّ بالمحرور وكأكل الطين.

وكان إطلاق التحريم على الخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال، فإن تصدى لشيء تقابلت فيه الأحوال، فالأولى أن نفصل فنرجع إلى علم الكلام ونقول: إنّ فيه منفعة وفيه مضرّة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال وهو باعتبار مضرّته في وقت الإضرار حرام، فأمّا مضرّته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم وذلك ممّا يحصل في حالة الابتداء ورجوعها بالدّليل مشكوك فيه وتختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في الاعتقاد، وله ضرر أيضاً في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته في صدورهم بحيث تنبعث دعاويهم ويشتدّ حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر يحصل بواسطة التعصب الّذي يثور من الجدل، وأمّا منفعته فقد يظن أنّ فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات هيهات بل منفعته شيء واحد وهو حراسة العقيدة على العوام وحفظها على تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل، إذ العامي ضعيف يستفزّه جدل المبتدع والنّاس متعبّدون بصحّة العقيدة الّتي أجمع السلف عليها، والعلماء متعبدون بحفظ ذلك على العوام من تلبيسات المبتدعة وهو من فروض الكفاية كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما. وما لم تستعد العلماء لنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو ترك بالكلية لاندرس.

وليس في مجرد الطباع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلّم، فينبغي أن يكون التدريس فيه أيضاً من فروض الكفاية لكن ليس من الصواب تدريسه على العوام كتدريس الفقه والتفسير، فإن هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يحذر، وضرر الدواء محذور. فإن قيل: قد جعل جماعة التوحيد عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بمناقضات الخصوم والقدرة على التشدّق فيها بكثرة الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، فاعلم أنّ التوحيد عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلّمين، وإن فهموه لم يتّصفوا به وهو أن ترى الأمور كلها من الله رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلاّ منه تبارك وتعالى وهذا مقام شريف. فالتوحيد جوهر نفيس له قشران أحدهما أبعد عن اللب من الآخر وهو أن تقول بلسانك: لا إله إلاّ الله وهذا يسمّى توحيداً مناقضاً للتثليث الّذي تصرّح به النصارى ولكنّه قد يصدر من المنافق الّذي يخالف سرّه جهره.

وأمّا القشر الثاني فأن لا يكون في القلب مخالفة وإنكار لمفهوم هذا القول، بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاد ذلك والتصديق به، وهذا توحيد عوام الخلق، والمتكلّمون كما سبق

حراس هذا القشر عن تشويش المبتدعة، فخصص النّاس الاسم بهذين القشرين وتركوا لبابهما وأهملوه بالكلية واللّباب هو التوحيد المحض وهو أن ترى الأمور كلّها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط، وأن تعبده عبادة تفرّده بها فلا تعبد غيره. واتباع الهوى يخرج عن هذا التوحيد، فكل متّبع هواه قد اتخذ هواه معبوده. قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: 23]، وقال ﷺ: «**أبغض إله عُبِد في الأرض عند الله هو الهوى**»، وعلى التّحقيق: من تأمّل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، إنّما يعبد هواه إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتّبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني الّتي يعبّر عنها بالهوى، ويخرج عن هذا التوحيد السخط على الخلق والالتفات إليهم. فإنّ من يرى الكل من الله تعالى كيف يسخط على غيره. فالتوحيد عبارة عن هذا المقام وهو من مقامات الصديقين فانظر إلى ماذا حول وبأي قشر قنع، فالموحّد هو الّذي لا يرى إلاّ الواحد ولا يتوجّه إلا إليه أي يكون قلبه متوجّهاً إلى الله تعالى على الخصوص ا هـ.

وقد تكلّمت على هذا المقام في كتابنا «**الجوهر الفريد في علم التوحيد**» بكلام يشفي النّفس ويزيل اللبس وهو كلام طويل مشبع جمعت فيه غالب أقوال الصحابة والعلماء فليراجع وهو في الجزء الثامن من الباب الخامس من كتاب التوحيد فليراجع.

واعلم أنّه قد تقدّم أنّ تعلّم علم النجوم مذموم، فنقول: قد روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا**»، وقال ﷺ: «**أخاف على أمّتي بعدي ثلاثاً حيف الأئمة والإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر**». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلّموا من النجوم ما تهتدوا به في البحر والبر ثم أمسكوا. وإنّما زجر عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنّه مضر بأكثر الخلق فإنّه إذا ألقي إليهم أنّ هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب وقع في نفوسهم أنّ الكواكب هي المؤثّرة وأنّها الآلهة المدبرة لأنّها جواهر شريفة سماوية يعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتاً إليها ويرى الشر والخير محذوراً من جهتها ومرجواً منها وينمحي ذكر الله تعالى من القلب، فإنّ الضعيف يقصر نظره على الوسائط والعالم الراسخ هو الّذي يطلع على أنّ الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره سبحانه وتعالى.

الوجه الثاني: إن أحكام النجوم تخمين محض وليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً، فالحكم به حكم بجهل فيكون ذمّه على هذا من حيث إنّه جهل لا من حيث إنّه علم، وقد كان ذلك علماً لإدريس عليه السلام فيما يحكى، وقد اندرس ذلك العلم وانمحق وما يتفق من إصابة المنجم على ندور فهو اتفاق لأنّه قد يطّلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقبها إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الاطّلاع عليها، فإن اتفق أن قدّر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة وإن لم يقدّر أخطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أنّ

السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرّك ظنّه بذلك وربّما يحمّى النهار بالشمس ويتبدد الغيم، وربّما يكون بخلافه فإنّ مجرد الغيم ليس كافياً في مجيء المطر وبقية الأسباب لا تدرى، وكذلك تخمين الملاح أنّ السفينة تسلم اعتماداً على ما ألفه من العادة في الرياح ولتلك الرياح أسباب خفية لا يطلع عليها الملاح فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطىء. ولهذه العلّة يمنع القوم عن النجوم.

الوجه الثالث: أنّه **لا فائدة فيه فأقل** أحواله أنّه خوض في فضول لا يعني وتضييع للعمر الّذي هو أنفس **بضائع الإنسان بغير فائدة** وغايته الخسران، فقد مر رسول الله ﷺ برجل والنّاس مجتمعون **عليه فقال: «ما هذا؟»**، قالوا: رجل علاّمة، فقال: «بماذا؟» قالوا: بالشعر وأنساب العرب، فقال: «**علم لا ينفع وجهل لا يضر**». وقال ﷺ: «**إنّما العلم آية محكمة أو سنّة قائمة أو فريضة عادلة**». **فإذاً** الخوض في النجوم إنّما يشبه اقتحام خطر وخوض جهالة من غير فائدة فإن ما قدر كائن والاحتراز غير ممكن، بخلاف الطب فإنّ الحاجة إليه ماسة وأكثر أدلّته مما يطلع عليه وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنّه جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة ولا خطر فيه ولذلك أكثرنا في كتابنا هذا من النقل من هذين العلمين لضرورة الحاجة إليهما، ولقلة الخطإ فيهما لإمكان الاطّلاع على أكثر أدلّتهما والله الموفق للصواب.

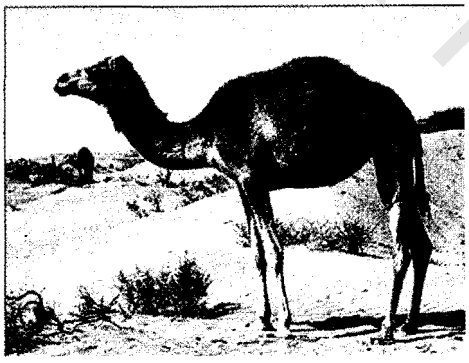

الإبل: بكسر الباء الموحدة وقد تسكن للتخفيف، الجمال. وهو اسم واحد يقع على الجمع وليس بجمع ولا اسم جمع إنّما هو دال على الجنس، كذا قاله ابن سيده. وقال الجوهري: ليس لها واحد من لفظها وهي مؤنّثة لأنّ أسماء الجموع الّتي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم وإذا صغّرتها أدخلت عليها الهاء، فقلت أبيلة وغنيمة ونحو ذلك. وربّما قالوا للإبل إبْل بإسكان الباء كما تقدّم، والجمع آبال والنسبة أبلي بفتح الباء.

روى ابن ماجه عن عروة البارقي رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة**». وفي حديث وهب: تأبل آدم على ابنه المقتول، كذا وكذا عاماً لم يصب حوّاء أي امتنع من غشيانها أعواماً وتوحّش عنها. ويقال للإبل: بنات اللّيل، ويقال للذكر والأنثى منها: بعير إذا أجذع ويجمع على أبعرة وبعران، والشارف: الناقة المسنّة، وجمعها شرف، والعوامل: الإبل ذوات السنامين، والإبل من الحيوانات العجيبة وإن كان عجبها سقط من أعين النّاس لكثرة رؤيتهم لها وهو أنّها حيوان

عظيم الجسم سريع الانقياد ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به، وتأخذ زمامه فأرة فتذهب به إلى حيث شاءت، ويتّخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه وظروفه ووسائده كأنّه في بيته، ويتّخذ للبيت سقف وهو يمشي بكل هذه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] ، وقد جعلها الله تعالى طوال الأعناق لتثور بالأثقال. وعن بعض الحكماء أنّه حدث عن الإبل وعن بديع خلقها، وكان قد نشأ بأرض لا إبل فيها ففكر ساعة ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق. وحيث أراد الله تعالى بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش حتى إن ظمأها ليرتفع إلى العشر، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم. وروي عن سعيد بن جبير أنّه قال: لقيت شريحاً القاضي ذاهباً فقلت له: أين تريد؟ فقال: أريد الكناسة، فقلت: وما تصنع بالكناسة؟ قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت، وقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: 22] قرنها بالفلك الّتي هي السفائن لأنّها سفن البر. قال ذو الرمّة:

سفينة برّ تحت خدي زمامها

يريد صيدح الّتي يخاطبها بقوله:

سمعت النّاس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعي بلالا

وصيدح اسم ناقته وهذا البيت أنشده سيبويه ورواه برفع النّاس على الحكاية أي سمعت هذه الكلمة. ورواه غيره بالنصب، وكلٌّ له وجه وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر الصيدح في باب الصاد المهملة. وربّما تصبر الإبل عن الماء عشرة أيّام، إنّما جعل الله تعالى أعناقها طوالاً لتستعين بها على النهوض بالحمل الثقيل. وفي الحديث: «**لا تسبوا الإبل فإنّ فيها رقوء الدم ومهر الكريمة**» أي أنّها تعطى في الديّات فتحقن بها الدماء وتمنع من أن يهراق دم القاتل. هذه عبارة الفصيح.

وفي الحديث: «**لا تسبوا الإبل فإنّها من نفس الله تعالى**» أي مما يوسع الله تعالى به على النّاس. حكاه ابن سيده. والّذي نعرفه: لا تسبّوا الرّيح فإنّها من نفس الرّحمٰن جلّ وعلا.

وفي «**الصحيحين**» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**تعاهدوا القرآن فوالّذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها**» وفيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «**إنّما مثل القرآن مثل الإبل المعقّلة إن تعاهدها صاحبها على عقلها أمسكها، وإن أغفلها ذهبت**» إذا قام صاحب القرآن بقراءته باللّيل والنهار ذكره وإذا لم يقرأه نسيه، وفيهما عنه أيضاً أنّ النبيّ ﷺ قال: «**النّاس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة**». وسيأتي بيان معناه إن شاء الله تعالى في باب الراء المهملة في لفظ الراحلة.

والإبل أنواع: الأرحبية منسوبة إلى بني أرحب من همدان. وقال ابن الصلاح: إنّها من

إبل اليمن، والشذقمية إبل منسوبة إلى شذقم وهو فحل كريم كان للنعمان بن المنذر. والعيدية ـ بكسر العين المهملة ـ: إبل منسوبة إلى بني العيد وهم فخذ من بني مهرة، قاله صاحب «**الكفاية**». والمجدية: إبل باليمن منسوبة إلى المجد وهو الشرف. والشدنية: إبل منسوبة إلى فحل أو بلد قاله في «**الكفاية**». والمهرية: إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان وهو أبو قبيلة والجمع المهاري، قاله ابن الصلاح، وما قاله الغزالي من أن المهرية هي الرديئة من الإبل ليس كذلك ومنها إبل وحشية تسمّى إبل الوحش، يقولون: إنّها من بقايا إبل عاد وثمود. ومن لقب الإبل: العيس وهي الشديدة الصلبة، والشملال وهي الخفيفة، واليعملة وهي الّتي تعمل، والوجناء وهي الشديدة أيضاً، والناجية وهي السريعة، والعوجاء وهي الضامرة، والشمردلة وهي الطويلة، والهجان وهي الإبل الكريمة، والكوماء بضم الكاف وهي الناقة العظيمة السنام، والحرف وهي الناقة الضامرة. قال كعب بن زهير:

حرف أبوها أخوها من مهجنة وعمّها خالها قوداء شملیل

والقوداء الطويلة العنق، والشمليل السريعة. وقوله «من مهجنة» أي من إبل كرام هجان. وقوله: أبوها أخوها أي أنّها من جنس واحد في الكرم؛ وقيل: إنّها من فحل حمل على أمّه فجاءت بهذه النّاقة فهو أبوها وأخوها، وكانت النّاقة الّتي هي أمّ هذه بنت أخرى من الفحل الأكبر فعمّها خالها، على هذا وهو عندهم من أكرم النتاج. والقول الأوّل ذكره أبو علي القالي عن أبي سعيد، وممّا يستحسن ويستجاد من كلام كعب رضي الله عنه قوله:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمور ليس يدركها فالنفس واحدة والهم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل لا تنتهي العين حتى ينتهي الأثر

قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان: ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه إذ يسوء خلقه ويظهر زبده ورغاؤه، فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله ويخرج الشقشقة وهي الجلدة الحمراء الّتي يخرجها من جوفه وينفخ فيها فتظهر من شدقه لا يعرف ما هي. قال اللّيث: ولا تكون إلا لعربي وفيه نظر. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنّ الخطب من شقاشق الشيطان شبه الفصيح المنطيق بالفحل الهادر، ولسانه بشقشقته. وروى الحاكم في حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أنّ النبيّ ﷺ قال لها: «**أمّا معاوية فصعلوك، وأمّا أبو جهم فإنّي أخاف عليك من شقاشقه**». والفحل لا ينزو إلاّ مرّة واحدة في السنة، ويطول فيها مكثه، وينزل فيها مراراً كثيرة، ولذلك يعقبه فتور ووهن، والأنثى تلقح إذا مضى لها ثلاث سنين ولذلك سميت حِقّة لأنّها استحقت ذلك. قالوا: والجمل أشدّ الحيوان حقداً وفي طبعه الصبر والصولة. وذكر صاحب «**المنطق**» أنّه لا ينزو على أمّه. قال: وقد كان رجل في سالف

الدهر ستر ناقة بثوب ثم أرسل ولدها عليها فلمّا عرف ذلك قطع ذكره، ثم حقد على الرجل حتى قتله. وآخر فعل مثل ذلك فلمّا عرف أنّها أمّه قتل نفسه.

وكل الحيوان له مرارة إلاّ الإبل ولذلك كثر صبرها وانقادت، وكني الجمل بأبي أيّوب وإنّما يوجد على كبدها شيء يشبه المرارة وهي جلدة فيها لعاب يكتحل به ينفع من العشاء العتيق. ومن طبعها أنّها تستطيب الشجر الّذي له شوك وتهضمه أمعاؤها ولا تستطيع في غالب الأوقات أن تهضم الشعير، ومن عجيب ما ذهبت إليه العرب أنّها إذا أصاب إبلها العُرُّ[1] كَوَوْا السليم ليشفي العليل وفي هذا المعنى قال النابغة:

وحملتني ذنب امرىء وتركته كذي العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع

وأخذ منه غيره فقال:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكأنّني سبابة المتندم

وأنكر أبو عبيد القاسم بن سلام ذلك، وروى الجماعة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ امرأتي ولدت غلاماً أسود فقال له النبيّ ﷺ: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم، قال: «**فما ألوانها؟**» قال: حمر، قال ﷺ: «**هل فيها من أورق؟**» قال: إنّ فيها لورقاً، قال: «**هو ذاك**»، قال: فأنّى أتاها ذلك؟ قال ﷺ: «**عسى أن يكون نزعه عرق**». وقد تقدّمت الإشارة إلى هذا الحديث في الكلام على لفظ الأسد، وإنّما قال ﷺ: «عسى أن يكون نزعه عرق»، ولم يرخص له النبيّ ﷺ في الانتفاء عنه، والرجل المذكور في هذا الحديث ضمضم بن قتادة العجلي ولم يذكره أبو عمر بن عبد البر في «**الاستيعاب**» وليس له سوى هذا الحديث وهو مسمّى في بعض المسندات. وذكره عبد الغني في الحديث بزيادة حسنة فقال: كانت المرأة من بني عجل فقدم المدينة عجائز من بني عجل فسئلن عن المرأة الّتي ولدت الغلام الأسود فقلن: كان في آبائها رجل أسود، قال: والرجل اسمه ضمضم بن قتادة العجلي، وقال الخطيب أبو بكر: قلن: كان للمرأة جدة سوداء.

الحكم: يحل أكل الإبل بالنص والإجماع، قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: 1]. وأمّا تحريم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام على نفسه أكل لحوم الإبل وشرب ألبانها فكان ذلك باجتهاد منه على الصحيح والسبب في ذلك أنّه كان يسكن البدو فاشتكى عرق النسا فلم يجد شيئاً يؤلمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمهما. وإسرائيل لفظة عبرانية، وقد اختلف العلماء في انتقاض الوضوء بأكل لحومها فذهب الأكثرون إلى أنّه لا ينتقض الوضوء بأكل لحومها، وذهب الباقون إلى أنّه ينتقض الوضوء به. فمن ذهب إلى الأوّل الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وأبو الدرداء وأبو

(١) العُرُّ: الجَرَب.

طلحة الأنصاري وأبو أمامة الباهلي وعامر بن ربيعة ﷺ وجماهير التابعين ومالك وأبو حنيفة والشافعي وأصحابهم رحمهم الله، وممن ذهب إلى انتقاض الوضوء به: أحمد وإسحٰق بن راهويه ويحيى بن يحيى وابن المنذر وابن خزيمة، واختاره البيهقي من أصحاب الشافعي وهو قول الشافعي القديم، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر دليله في باب الجيم في الجزور. وعن أحمد في أكل سنامها روايتان، ولأصحابه في شرب ألبانها وجهان.

وتكره الصلاة في أعطانها وهي الأمكنة التي تأوي إليها بعد الشرب. روى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن عبد الرّحْمن بن أبي ليلى عن البراء بن عازب، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوضوء من لحوم الإبل، فقال: «**توضئوا منها**»، وسئل عن لحوم الغنم، فقال: «**لا تتوضئوا منها**»، وسئل عن الصلاة في مبارك الإبل، فقال: «**لا تصلّوا في مبارك الإبل فإنّها مأوى الشياطين**»، وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم، فقال: «**صلّوا فيها فإنّها مباركة**». وروى النسائي وابن حبان في حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**إنّ الإبل خلقت من الشياطين**».

وأمّا زكاتها فالواجب في كل خمس منها سائمة شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، ثم في خمس وعشرين بنت مخاض، وفي ست وثلاثين بنت لبون، وفي ست وأربعين حقة، وفي إحدى وستين جذعة، وفي ست وسبعين بنتا لبون، وفي إحدى وتسعين حقتان، وفي مائة وإحدى وعشرين ثلاث بنات لبون، ثم في كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة. وبنت المخاض لها سنة وبنت اللّبون لها سنتان، والحقة لها ثلاث سنين والجذعة لها أربع سنين والشاة الواجبة لها جذعة ضأن وهي ما لها سنة أو ثنية معز وهي ما لها سنتان وبقية أحكام الزكاة معروفة.

تتمة: قال المتولّي: إذا أوصى لشخص بإبل جاز أن يعطى ذكراً أو أنثى فإن أُعطي فصيلاً أو ابن مخاض لم يلزمه قبوله لأنّه لا يسمّى إبلاً.

الأمثال: روى مسلم والترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «**النّاس كإبل مائة ليس فيها راحلة**» يعني أنّ المرضي من الناس قليل، وسيأتي معناه إن شاء الله تعالى في باب الراء المهملة في الراحلة. وقال الأزهري: معناه أنّ الزاهد في الدنيا الكامل في الزهد فيها والرغبة في الآخرة قليل كقلّة الراحلة في الإبل، وقالوا: «أشبعهم سبّاً وراحوا بالإبل». قيل: أوّل من قاله كعب بن زهير بن أبي سلمى: يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام. وقالوا: «ما هكذا يا سعد تورد الإبل». يضرب لمن تكلف أمراً لا يحسنه، وتمثل بذلك علي رضي الله عنه في حديث رواه البيهقي وغيره. وقالوا: «يا إبل عودي إلى مباركك»، يضرب لمن يفر من الشيء الّذي لا بد له منه.

الخواص: قال ابن زهير وغيره: إذا وقع بصر الجمل على سهيل مات لوقته. ولحوم الإبل والكباش الحولية الجبلية رديئة كلها، وإذا أحرق وبر الإبل وذر على الدم السائل قطعه،

وقراده يربط في كم العاشق فيزول عشقه. وإذا شرب السكران من بول الجمل أفاق من ساعته، ولحمه يزيد في الباه والإنعاظ بعد الجماع. وبول الإبل ينفع من ورم الكبد ويزيد في الباه، ومخ ساق الجمل إذا تحملت به المرأة في قطنة أو صوفة بعد الطهر ثلاثة أيّام وجومعت فإنّها تحمل وإن كانت عاقراً، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً في الكلام على لفظ الإنسان قاعدة ذكرها حذاق الأطباء تعرف بها العاقر من النساء.

التعبير: قال أهل التعبير: من رأى أنّه ملك منها هجمة في منامه فإنّه يدلّ على أنّه يحكم على جماعة ذوي أقدار، ويملك مالاً طائلاً، وكذلك إذا رأى أنّه نال ثلة أو ثاغية أو راغية، والهجمة: مائة من الإبل، والثلة قطيع من الغنم، والثاغية الشاة، والراغية الإبل. قالوا: ومن رأى أنّه ملك إبلاً في منامه نال عقبى حسنة وسلامة في دينه ومعتقده، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]، فإن قال: رأيت جمالاً فربّما دلّ على الأعمال السيئة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: 32-33]. وإن قال: رأيت أنعاماً وأنا أسرّحها في المنام فإنّه يدلّ على تذلل الأمور الصعاب وظهور النعمة عليه لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: 5، 6]، ومن رأى أنّه يرعى إبلاً عراباً وُلّيَ على قوم من الأعراب، ومن رأى إبلاً كثيرة في بلد فإنّها تدلّ على أمراض وحروب. وقال الجيلي: من رأى أنّه يملك إبلاً نال مقدرة وسطوة، وقال أرطاميدوس: من أكل لحم الإبل في منامه مرض، وقال محمد بن سيرين إمام المعبّرين ومن أعلام التابعين: لا بأس بأكل لحم الإبل لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5] وستأتي بقيته إن شاء الله تعالى في باب الجيم في لفظ الجمل، والله أعلم.

الأبابيل: واحدته إبالة. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: لا واحد لها من لفظها، وقيل: واحدها أبول كعجول؛ وقيل إبيل كسكّيت؛ وقيل إيبال كدينار ودنانير. وذكر الفارسي أنه سمع في واحده إبالة بالتشديد، وحكى الفراء إبالة بالتخفيف.

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: 3]، فقال سعيد بن جبير: هي طير تعشش بين السماء والأرض وتفرخ، ولها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب، وعن عكرمة: أنها طيور خضر خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعث الله الطير على أصحاب الفيل كالبلسان؛ وقيل كانت كالوطاويط، وقال عبادة بن الصامت: أظنها الزرازير، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف. وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب السين أنها السنونو الذي يأوي الآن في المسجد الحرام الواحدة سنونة، والأبيل راهب النصارى، وكانوا يسمون عيسى بن مريم عليهما السلام أبيل الأبيليين. قال الشاعر:

أمـا ودمـاء مـائـرات تـخـالـهـا على قنة العزى وبالنسر عندما
وما سبح الرهبان في كل بيعة أبيل الأبيلين عيسى بن مريما
لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساماً إذا ما هز بالكف صمما

والإبالة بالكسر: الحزمة من الحطب، وفي المثل: ضغث على إبالة، أي: بلية على أخرى كانت قبلها، والله الموفق.

الأتان: بفتح الهمزة وبالتاء المثناة فوق: الحمارة، ولا تقل: أتانة، ويقال: ثلاث آتن، مثل عناق وأعنق، والكثير: أتن وأتن، واستأتن الرجل أي: اشترى أتاناً واتخذها لنفسه. قال محمد بن سلام: حدثني رجل من قريش قال: خرج خالد بن عبد الله القسري يوماً يتصيد وهو أمير العراق فانفرد عن أصحابه فإذا هو بأعرابي على أتان له هزيل ومعه عجوز، فقال له خالد: ممن الرجل؟ فقال: من أهل المآثر والحسب والمفاخر، قال: فأنت إذاً من مضر فمن أيها أنت؟ قال: من الطاعنين على الخيول والمعانقين عند النزول، قال: فأنت إذاً من عامر، فمن أيّها أنت؟ قال: من أهل الرفادة والكرم والسيادة، قال: فأنت إذاً من جعفر، فمن أيها أنت؟ قال: من بدورها وشموسها وليوثها في خميسها، قال: فأنت إذاً من الخواص فما أقدمك هذه البلاد؟ قال: تتابع السنين وقلة رفد الرافدين، قال: فمن أردت بها؟ قال: أميركم هذا الذي رفعته إمرته وحطته أسرته، قال: فما أردت منه؟ قال: كثرة ماله لا كرم آبائه، قال: ما أراك إلا قد قلت فيه شعراً. فقال لامرأته: أنشديه، فقالت: كم تجشمنا مدح اللئيم، مه اليوم إنّ مدح اللئيم ذلٌّ، قال: أنشديه فأنشدته:

إليك ابن عبد الله بالجد أرقلت بنا البيد عيس كالقسي سواهم
عليها كرام من ذؤابة عامر أضر بهم جدب السنين العوارم
يردن امرءاً يعطي على الحمد ماله وهانت عليه في الثناء الدراهم
فإن تعط ما نهوى فهذا ثناؤنا وإن تكن الأخرى فما ثمَّ لائم

فقال له خالد: يا عبد الله ما أعجبك وشعرك! جئت على أتان هزيل وتزعم أنك جئت على عيس وقد ذكرت الرجل في شعرك بخلاف ما ذكرت في كلامك؟ فقال: يا بن أخي ما تجشمنا من مدح اللئيم كان أشد من الكذب في شعرنا، فقال له خالد: أتعرف خالداً؟ قال: لا، قال: فأنا هو، قال: أسألك بالله هو أنت خالد؟ قال: إي والذي سألتني به أنا خالد وأنا معطيك غير مكافئك، فقال: يا أم جحش اصرفي وجه أتانك، فقال لها خالد: لا تفعلي وأقيمي أنت وزوجك، فقال الرجل: لا والله لا رزأت امرءاً درهماً بعد أن أسمعته ما يكره، وصرف وجه أتانه ومضى، فقال خالد: بمثل هذا الفعل نال هذا وآباؤه ما نالوا. وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من لبس الصوف وحلب الشاة وركب الأتن فليس في جوفه من الكبر شيء**»، وهو كذلك في «**الكامل**» في ترجمة عبد الرحمٰن بن عمار بن سعد. وعن

جابر وأبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**براءة من الكبر لباس الصوف ومجالسة فقراء المؤمنين وركوب الحمار واعتقال العنز وأكل أحدكم مع عياله**». وفي «**الاستيعاب**» وغيره أن زرارة بن عمرو النخعي قدم على رسول الله ﷺ في النصف من رجب سنة تسع فقال: يا رسول الله إنّي رأيت في طريقي رؤيا هالتني، قال: «**وما هي؟**» قال: رأيت أتاناً خلفتها في أهلي قد ولدت جدياً أسفع أحوى، ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو وهي تقول: لظى لظى بصير وأعمى، فقال له النبي ﷺ: «**أخلفت في أهلك أمة مسرة حملاً؟**» قال: نعم، قال ﷺ: «**فإنها قد ولدت غلاماً وهو ابنك**». قال: فأنّى له أسفع أحوى؟ قال: «**ادن مني**»، فدنا منه، فقال: «**أبك برص تكتمه؟**» قال: والذي بعثك بالحق نبيّاً ما علمه أحد قبلك، قال: «**فهو ذاك، وأما النار فإنها فتنة تكون بعدي**»، قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**يقتل الناس إمامهم ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس**» وخالف بين أصابعه، «**دم المؤمن عند المؤمن أحلى من الماء يحب المسيء أنه محسن، إن مت أدركت ابنك وإن مات ابنك أدركتك**» قال: فادع الله لي أن لا تدركني، فدعا له. وقد قال العلماء: إن هذه الفتنة هي التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه. والأسفع الأحوى: الأبلق.

الأمثال: قالوا: كان حماراً فاستأتن. يضرب لمن يهون بعد العز.

التعبير: الحمارة امرأة معينة على المعيشة كثيرة الخير ذات ربح متواتر ونسل، ولفظ الأتان من الإتيان.

الأخطب: كالأحمر، يقال إنه الصرد، وأنشد:

ولا أنثنى من طِيَرةٍ عن مريرة إذا الأخطب الداعي على الدَّوْحِ صَرْصَرَا

والأخطب حمار يعلو ظهره خضرة. وقال الفراء: الخطباء: الأتان التي لها خط أسود في ظهرها، والذكر أخطب.

الأخيضر: ذباب أخضر على قدر الذباب الأسود، قاله ابن سيده.

الأخيل: طائر أخضر فيه على أجنحته لمع تخالف لونه، وسمي بذلك لخيلان فيه؛ وقيل: الأخيل: الشقراق الآتي في باب الشين المعجمة وهو مشؤوم ولفظه ينصرف في النكرة لا إذا سميت به، ومنهم من لا يصرفه في معرفة ولا نكرة ويجعله في الأصل صفة من التخيل ويحتج بقول الشاعر:

ذريني وعلمي بالأمور وشيمتي فما طائري فيها عليك بأخيلا

الأربد: ضرب من الحيات يعض فيربد منه الوجه، ومنه ما حكاه عبد الملك بن عمير قال: رأيت زياداً واقفاً على قبر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وهو يقول:

إن تحت الأحجار حزماً وعزماً وخصيماً ألدَّ ذا معلاق

حـيـة فـي الـوجـار أربـد لا يـنـ فـع مـنـه الـسـليـم نـفـث الـراقـي

ثم قال: أما والله لقد كنت شديد العداوة لمن عاديت، شديد الأخوة لمن آخيت. والمعلاق بالعين المهملة. قال الجوهري: يقال رجل ذو معلاق أي شديد الخصومة، ثم أنشد قول الشاعر وهو مهلهل:

إن تـحـت الأحـجـار حـزمـاً وجـوداً وخـصـيـمـاً ألـد ذا مـعـلاق

الأرخ: قال ابن درستويه: هي الأنثى الثنية من البقر التي لم ينز عليها الفحل وجمعها أروخ وأراخ. قال: وأنشدني أعرابي من مزينة في طريق مكة لنفسه فقال:

أيـام عـهـدي مـيّ فـيـك كـأنـهـا أرخ يـرود بـروضـة مـشـقـال

وقال الجوهري: الأرخ وحش البقر، وقال صاحب «**المغرب**»: الأرخ ولد البقرة الوحشية.

الأرضة: بفتح الهمزة والراء والضاد المعجمة: دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب وهي التي يقال لها السرفة بالسين والراء المهملة والفاء، وهي دابة الأرض التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وستأتي إن شاء الله تعالى في باب السين المهملة. ولما كان فعلها في الأرض أضيفت إليها.

قال القزويني في **الأشكال**: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، وهي دابة الأرض التي دلت الجن على موت سليمان عليه السلام، والنمل عدوّها وهو أصغر منها فيأتيها من خلفها فيحملها ويمشي بها إلى جحره، وإذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها لأنها تقاومه، انتهى. ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً حسناً من عيدان تجمعها مثل غزل العنكبوت متخرطاً من أسفله إلى أعلاه وله في إحدى جهاته باب مربع وبيتها ناووس[1]. ومنها تعلم الأوائل بناء النواويس على موتاهم.

وفي «**الصحيحين**» وغيرهما أن قريشاً لما بلغهم إكرام النجاشي لجعفر وأصحابه كبر ذلك عليهم وغضبوا على رسول الله ﷺ وأصحابه وكتبوا كتاباً على بني هاشم أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، وكان الذي كتب الصحيفة بغيض بن عامر فشلت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من مبعثه ﷺ، وانحاز إليهم بنو عبد المطلب وقطعت عنهم قريش الميرة والمادة، فكانوا لا يخرجون إلاّ من موسم إلى موسم حتى بلغوا الجهد وأقاموا على ذلك ثلاث سنين، ثم أطلع الله رسوله ﷺ على أمر الصحيفة وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من ظلم وجور وبقي ما كان فيها من ذكر الله تعالى، فأخبرهم أبو طالب بذلك فارتقوا إلى الصحيفة فوجدوها كما قال

(١) ناووس: تابوت من حجر.

رسول الله ﷺ فأخرجوهم من الشعب. وروى ابن سعد وابن ماجه في **سننه** من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي إلى جذع، فاتخذ له المنبر، فحن ذلك الجذع إليه حنين العشار حتى مسحه رسول الله ﷺ بيده فسكن، فلما هدم المسجد وغُيِّر أخذ ذلك الجذع أُبي بن كعب فكان عنده في داره حتى بلي وأكلته الأرضه وعاد رفاتاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى للأرضة ذكر في باب الدال المهملة في لفظ الدابة وفي دود الفاكهة.

الحكم: يحرم أكلها لاستقذارها وإذا استخرجت من الأرض ترابها، قال القاضي حسين: إن استخرجته من مدر جاز التيمم به ولا يضر اختلاطه بلعابها فإنه طاهر فصار كتراب عجن بخل أو ماء ورد، وإن استخرجت شيئاً من الخشب أو الكتب لم يجز لعدم التراب.

الأمثال: قالوا: آكل من أرضة وأصنع من أرضة.

التعبير: هي في الرؤيا تدل على منازعة في العلم وطلب الجدال.

الأرقم: الحيّة التي فيها بياض وسواد كأنه رقم أي نقش. روى أصحاب الغريب أن رجلاً كسر منه عظم فجاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب منه القود فأبى أن يقيده، فقال الرجل: هو إذاً كالأرقم إن يقتل ينقم وإن يترك يلقم أي إن تركته أكلك وإن قتلته قتلت به.

وقال ابن الأثير في «**النهاية**»: كانوا في الجاهلية يزعمون أن الجن تطلب بثأر الجان وهي الحية الدقيقة فربما مات قاتلها وربما أصابه خبل، وهذا مثل لمن يجتمع عليه شران لا يدري كيف يصنع فيهما، يعني أنه اجتمع عليه كسر العظم وعدم القود. وقيل: الأرقم الحية التي فيها حمرة وسواد، قال مهذب الملك في ذلك مشبهاً:

كانون أذهب برده كانونا ... ما بين سادات كرام حذق
بأراقم حمر البطون ظهورها ... سود تلغلغ باللسان الأزرق

الأرنب: واحدة الأرانب، وهو حيوان يشبه العناق قصير اليدين طويل الرجلين عكس الزرافة، يطأ الأرض على مؤخرة قوائمه وهو اسم جنس يطلق على الذكر والأنثى. وقال الجاحظ: فإذا قلت: أرنب فليس إلا الأنثى كما أن العقاب لا يكون إلا للأنثى فتقول: هذه العقاب وهذه الأرنب. وقال المبرد في «**الكامل**»: إن العقاب يقع على الذكر والأنثى وإنما يميز باسم الإشارة كالأرنب وذكر الأرنب يقال له: الخزز بالخاء المعجمة المضمومة وبعدها زايان

وجمعه خزان كصرد وصردان، ويقال للأنثى: عكرشة، والخرنق ولد الأرنب **فهو أولاً** خرنق ثم سخلة ثم أرنب، وقضيب الذكر من هذا النوع كذكر الثعلب أحد شطريه **عظم والآخر** عصب، وربما ركبت الأنثى الذكر عند السفاد لما فيها من **الشبق وتسافد وهي حبلى، وتكون** عاماً ذكراً وعاماً أنثى. فسبحان القادر على كل شيء.

غريبة: ذكر ابن الأثير في «**الكامل**» في حوادث سنة ثلاث وعشرين وستمائة أن صديقاً له اصطاد أرنباً له أنثيان وذكر وفرج أنثى فلما شقوا بطنه رأوا فيه ما يدل على ذلك، قال: وأعجب من ذلك أنه كان لنا جار له بنت اسمها صفية بقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة ثم طلع لها ذكر ونبت لها لحية وصار لها فرج رجل وفرج امرأة، وسيأتي إن شاء الله تعالى في الضبع نظير ذلك.

والأرنب تنام مفتوحة العين فربما جاءها القناص فوجدها كذلك فيظنها صتيقظة، ويقال: إنها إذا رأت البحر ماتت ولذا لا توجد في السواحل، وهذا لا يصح عندي، وتزعم العرب في أكاذيبها أن الجن تهرب منها لموضع حيضها. قال الشاعر:

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الحرب يوم اللقا

فائدة: الذي يحيض من الحيوان أربعة: المرأة والضبع والخفاش والأرنب. ويقال: إن الكلبة أيضاً. كذلك روى أبو داود في **سننه** من حديث جابر بن الحويرث عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال في الأرنب: إنها تحيض. وجابر بن الحويرث قال ابن معين: لا أعرفه. وذكره ابن حبان في **الثقات** ولا يعرف له إلا هذا الحديث. وروى البيهقي عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ جيء له بأرنب فلم يأكلها ولم ينه عنها، وزعم أنها تحيض وهي تأكل اللحم وغيره وتجتر وتبعر، وفي باطن أشداقها شعر كذلك تحت رجليها.

الحكم: يحل أكل الأرنب عند العلماء كافة إلا ما حكي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن أبي ليلى ﷺ أنهما كرها أكلها. وحجتنا ما روى الجماعة عن أنس بن مالك ﷺ قال: أنفجنا أرنباً بمر الظهران فسعى القوم عليها فغلبوا فأدركتها فأخذتها وأتيت بها أبا طلحة فذبحها وبعث إلى النبي ﷺ بوركها وفخذها فقبله.

وفي البخاري في «**كتاب الهبة**» أنّ النبي ﷺ قبله وأكل منه، ولفظ أبي داود: كنت غلاماً حزوراً فصدت أرنباً فشويتها فبعث معي أبو طلحة ﷺ بعجزها إلى النبي ﷺ. والحزور ـ بالتشديد والتخفيف ـ: المراهق. وقد سئل رسول الله ﷺ عنها فقال: «**هي حلال**». وروى أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم وابن حبان عن محمد بن صفوان أنه صاد أرنبين فذبحهما بمروتين وأتى النبي ﷺ فأمره بأكلهما. وهو في «**معجم ابن قانع**» عن محمد بن صفوان أو صفوان بن محمد، واحتج ابن أبي ليلى ومن وافقه بما روى الترمذي عن حبان بن جزء عن

أخيه خزيمة بن جزء ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، ما تقول في الأرنب؟ قال ﷺ: «**لا آكله ولا أحرمه**»، قال: فقلت ولم يا رسول الله؟ قال: «**إنّي أحسب أنها تدمى**»، قال: فقلت: يا رسول الله، ما تقول في الضبع؟ قال رسول الله ﷺ: «**ومن يأكل الضبع؟**». قال الترمذي: إسناده ليس بالقوي. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة وذكر فيه الثعلب والضب أيضاً وفي بعض الروايات. وسألته عن الذئب فقال: «**لا يأكل الذئب أحد فيه خير**». وليس في شيء من الأحاديث وإن ضعفت ما يدل على تحريم الأرنب، وغاية ما في هذين الخبرين استقذارها مع جواز أكلها.

الأمثال: قالت العرب: أقطف من أرنب، وأطعم أخاك من كلية الأرنب. وهو كقولهم: أطعم أخاك من عقنقل الضب. يضربان للمواساة، ومن أمثالهم المشهورة في ذلك قولهم: في بيته يؤتى الحكم، وهو مما زعمته العرب على ألسنة البهائم قالوا: إن الأرنب التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأرنب: يا أبا حسل، قال: سميعاً دعوت، قالت: أتيناك لنختصم إليك، قال: عادلاً حكيماً، قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت: إنّي وجدت تمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثعلب، قال: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمته، قال: بحقك أخذت، قالت: فلطمني، قال: حر انتصر لنفسه، قالت: فاقض بيننا، قال: قد قضيت. فذهبت أقواله كلها أمثالاً. ومثل هذا أن عديّ بن أرطأة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع منّي، قال: للاستماع جلست، قال: إنّي تزوّجت امرأة، قال: بالرفاه والبنين، قال: وشرط أهلها أن لا أخرجها من بيتهم، قال: أوف لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: في حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أمك، قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك. وشريح هذا هو ابن الحارث بن قيس الكندي استقضاه عمر ﷺ على الكوفة وأقام قاضياً بها خمساً وسبعين سنة لم يبطل إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء، وذلك أيام فتنة ابن الزبير ﷺ فاستعفى الحجّاج من القضاء فأعفاه، فلم يقض بين اثنين حتى مات رحمة الله عليه.

وكان شريح من سادات التابعين وأعلامهم وكان من أعلم الناس بالقضاء، وكان أحد السادات الطلس وهم أربعة: عبد الله بن الزبير وقيس بن سعد بن عبادة والأحنف بن قيس الذي يضرب بحلمه المثل ورابعهم شريح هذا، والله أعلم. والأطلس الذي لا شعر بوجهه. وروي أن شريحاً مرض له ولد فجزع عليه جزعاً شديداً، فلمّا مات لم يجزع فقيل له في ذلك فقال: إنّما كان جزعي رحمة له وإشفاقاً عليه، فلمّا وقع القضاء رضيت بالتسليم، قاله ابن خلكان وغيره. قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى: كتب زياد بن أبيه إلى معاوية: يا أمير المؤمنين قد ضبطت لك العراق بشمالي وفرغت يميني لطاعتك فولّني الحجاز. فبلغ ذلك

عبد الله بن عمر ﷺ وهو بمكة فقال: اللّهم اشغل عنا يمين زياد بما شئت. فأصابه الطاعون في يمينه، فأجمع رأي الأطباء على قطعها فاستشار شريحاً فيما رآه الأطباء فأشار عليه بعدم القطع وقال له: لك رزق مقسوم وأجل معلوم وإنّي أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى الله مقطوع اليد فإذا سألك لم قطعتها؟ قلت فراراً من قضائك وبغضاً في لقائك. قال: فمات زياد من يومه فلام الناس شريحاً على منعه من القطع لبغضهم له، فقال: إنّه استشارني ولولا أن المستشار مؤتمن لوددت أنه قطع يوماً يده ويوماً رجله وسائر أعضائه يوماً يوماً ا هـ. وفي هذا المعنى قال أبو الفتح البستي من قصيدة طويلة:

لا تستشر غير ندب حازم فطن قد استوى منه أسرار وإعلان

فللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان

وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر هذه القصيدة في باب الثاء المثلثة في الثعبان. وفي «**تاريخ ابن خلكان**» في ترجمة شريح أنّه سئل عن الحجّاج أكان مؤمناً؟ قال: نعم، بالطاغوت، كافراً بالله تعالى. توفي شريح سنة تسع وسبعين وقيل ثمانين من الهجرة وهو ابن مائة وعشرين سنة رحمه الله تعالى.

الخواص: قال الجاحظ: كانت العرب في الجاهلية تقول: من علّق عليه كعب أرنب لم تصبه عين ولا سحر وذلك لأنّ الجن تهرب منها لمكان حيضها، وإذا شوي الأرنب البري وأُكل دماغه نفع من الارتعاش العارض من المرض، وإذا شرب من دماغه وزن حبتين في أوقيتين من لبن البقر لم يشب شاربه أبداً. ومن أعجب ما في إنفحته أنّك إذا طليت بها داء السرطان رأيت العجب، وإذا شربت المرأة إنفحة الأرنب الذكر ولدت ذكراً وإذا شربت إنفحة الأنثى ولدت أنثى وإذا علق زبله على المرأة لم تحمل ما دام عليها. قال بقراط: لحم الأرنب حار يابس يغل البطن ويدر البول وأجوده صيد الكلاب، وهو ينفع من بهظة السمن لكنّه يحدث أرقاً ويولد السوداء والأبازير الرطبة تدفع ضرره، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة، ودماغه يؤكل مشوياً بالفلفل ينفع من الرعشة، وإنّما صار يابساً لرعيه الغياض لأنّ كل ما يرعى الغياض فهو أيبس ممّا يرعى في البيوت ا هـ.

وإن سقي إنسان من دماغ الأرنب دانقاً مدافاً بعد أن يلقى عليه وزن حبتي كافور لم يلقه أحد إلاّ أحبه، ولم تنظر إليه امرأة إلاّ شغفت به وطلبت معاشرته، ودم الأرنب إذا شربت منه المرأة لم تحبل أبداً، وإذا طلي به البهق والكلف أزالهما، ودماغه إذا أكلت منه المرأة وتحمّلت منه وباشرها زوجها فإنّها تحبل بإذن الله تعالى، وإذا مزج به مواضع أسنان الصبي أسرع نباتها. ودم الأرنب إذا اكتحل به منع من نبات الشعر في العين، قاله القزويني في «**عجائب المخلوقات**».

وقال مهراس: مرارة الأرنب إذا عجنت بسمن وديفت بلبن المرأة واكتحل به أزال البياض

من العين وأبرأ القروح، وإذا طلي بدمها البهق الأسود أزاله. ولحم الأرنب إذا أطعم من يبول من فراشه نفعه إذا أدامه. وقال أرسطو: إذا شربت إنفحة الأرنب بالخل نفعت من سم الأفاعي وإذا شرب منها قدر باقلاة أذهب حمى الربع المتناهية، وإذا شرب منها وزن درهم أسقط الأجنة وسهّل الولادة، وإن خلطت إنفحة الأرنب بِخَطْمِيٍّ[1] ووضعت على النصل أخرجته، وتخرج الشوكة من البدن بإذن الله تعالى بسهولة، وزبل الأرنب إذا بخر به في الحمام وقع الضراط على من شمّه ولم يتمالك أسفله، وإذا طلي به القوابي والنمش أذهبهما. وخصية الأرنب تبرىء من السم القاتل إذا طلي موضع اللسعة بها، وشحمه إذا وضع تحت وسادة امرأة تكلّمت في نومها بفعلها، وضرس الأرنب إذا علق على من يشتكي ضرسه سكن وجعه.

التعبير: الأرنب في المنام امرأة حسناء لكنّها غير آلفة، فإن ذبحها فإنّها زوجة ليست بباقية، ومن رأى أنّه يأكل لحم أرنب مطبوخاً فإنّه يأتيه رزق من حيث لا يحتسب، ومن صاد أرنباً أو أهديت إليه أو ابتاعها حصل له رزق أو تزوّج إن كان عزباً أو رزق ولداً أو ظفر بغريم.

الأرنب البحري: قال القزويني: هو حيوان رأسه كرأس الأرنب وبدنه كبدن السمك. وقال الرئيس ابن سينا: إنّه حيوان صغير صدفي وهو من ذوات السموم إذا شرب منه قتل.

الحكم: يحرّم أكله لسمّيته ويستثنى هذا من قولهم: ما أكل شبهه في البر أكل شبهه في البحر لأنّه ليس يشبهه في الشكل، وإنّما هو موافق له في الاسم.

الأُرْوِيَّةُ: بضم الهمزة وإسكان الراء وكسر الواو وتشديد الياء: الأنثى من الوعول، والجمع أراوي. وبها سميت المرأة وهي أفعولة في الأصل إلاّ أنّهم قلبوا الواو الثانية ياءً وأدغموها في الّتي بعدها وكسروا الأولى لتسلم الياء وثلاث أراوي على أفاعيل، فإذا كثرت فهي الأروى بفتح الهمزة على أفعل بغير قياس، وقيل الأروى: غنم الجبل، وفي الحديث أنّه ﷺ أهدي له أروى وهو محرم، وفيه أنّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لمّا كان يوم أُحد قال: كنت أتوقل كما تتوقل الأروية فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في نفر من أصحابه وهو يوحى إليه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144].

وفي «**جامع الترمذي في الإيمان**» عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**إنّ الدين ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحيّة إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إنّ الدين بدأ غريباً ويرجع غريباً، فطوبى للغرباء الّذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي**»، قوله: ليعقلن أي ليمتنعن كما تمتنع الأروية من رؤوس الجبال.

(١) الخَطْمِيُّ: نبات كثير النفع.

وفي «**تفسير ابن أبي حاتم**» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: طرح يونس بن متى عليه السلام بالعراء، فأنبت الله تعالى عليه اليقطينة وهيأ له أروية وحشية ترعى في البرية وتأتيه فتنفشخ عليه فترويه من لبنها كل بكرة وعشية حتى نبت لحمه. وقال ابن عطية: أنعشه الله تعالى في ظل اليقطينة بأروية تراوحه وتغاديه؛ وقيل: بل كان يتغذى من اليقطينة ويجد منها ألوان الطعام وأنواع شهواته، وهذا من لطف الله تعالى به ونعمته عليه وإحسانه إليه. وحكى ابن الجوزي عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107] أنّه ذكر من الأروى أهبط عليه من ثبير.

وفي حديث عوف أنّه سمع رجلاً تكلّم فأسقط فقال: «جمع بين الأروى والنعام» يريد أنّه جمع بين كلمتين متناقضتين لأنّ الأروى تسكن شعف الجبال، والنعام يسكن في السهولة من الأرض. وفي طبعها الحنوّ على أولادها فإذا صيد منها شيء تبعته ورضيت أن تكون معه في الشرك. وفي طبعه البر بأبويه، وذلك أنّه يختلف إليهما بما يأكلانه فإن عجزا عن الأكل مضغ لهما وأطعمهما، ويقال إن في قرنيه ثقبين يتنفس منهما فمتى سدّا هلك سريعاً.

وحكمها: الحل كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الوعل.

الأمثال: قالوا: إنّما فلان كبارح الأروى، وذلك أنّ مأواها الجبال فلا يكاد النّاس يرونها سانحة ولا بارحة إلاّ في الدهر مرة، يضرب لمن يرى منه الإحسان في بعض الأحايين، وقالوا: تكلّم فلان فجمع بين الأروى والنعام كما تقدّم، وقالوا: ما يجمع بين الأروى والنعام يضرب في الشيئين المختلفين جداً، أي كيف يتألف الخير والشر.

تنبيه: روى مسلم أنّ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم خاصمته أروى بنت أويس إلى مروان بن الحكم وهو والي المدينة في أرض في الحيرة، وقالت: إنّه قد أخذ حقي واقتطع قطعة من أرضي فقال سعيد رضي الله عنه كيف أظلمها وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من اقتطع شبراً من أرض ظلماً طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»، ثم ترك لها الأرض وقال: دعوها وإياها، اللّهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واجعل قبرها في بئرها فعميت أروى وجاء سيل فأظهر حدود أرضها، ثم لما أعمى الله تعالى أروى فكانت تلتمس الجدران وتقول: أصابتني دعوة سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي إذ وقعت في البئر فماتت. وروي أنّها سألت سعيداً أن يدعو لها فقال: لا أرد على الله شيئاً أعطانيه. قال: وكان أهل المدينة إذا دعا بعضهم على بعض يقولون: أعماه الله كما أعمى أروى يريدونها، ثم صار أهل الجهل يقولون: أعماه الله كما أعمى الأروى يريدون الأروى التي بالجبل يظنونها شديدة العمى والصواب الأوّل.

الخواص: إذا أخذ قرنه وظلفه وخلطا في دهن ومسح به الساعي الّذي يمشي كثيراً بدنه وساقيه أزال عنه ضرر التعب حتى كأنّه لم يمش شيئاً.

الأساريع: بفتح الهمزة دود أحمر يكون في البقل ينسلخ فيصير فراشاً. قال ابن مالك: قال ابن السكيت: والأصل يسروع بالفتح إلاّ أنّه ليس في الكلام يفعول، وقال قوم: الأساريع دود حمر الرؤوس بيض الأجساد تكون في الرمل يشبه بها أصابع النساء ا هـ. وبعض النّاس يقول الأساريع شحمة الأرض والصواب أنّها غيرها كما سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الشين المعجمة. قال في «**الكفاية**»: الأساريع دود تكون في الرمل بيض طوال يشبه بها أصابع النساء، ويقال لها بنات النقا. وذكر في «**أدب الكاتب**» نحوه وقال: الأساريع دود في الرمل بيض ملس يشبه بها أصابع النساء، واحدها أسروع. وذكر ابن مالك في شرحه «**المنتظم الموجز**» فيما يهمز وما لا يهمز أنّ اليسروع والأسروع دود يكون في البقل ينسلخ فيصير فراشاً قال: وهذا قول ابن السكيت، وقال غيره: الأساريع واليساريع دود حمر الرؤوس بيض الأجساد تكون في الرمل يشبه بها أصابع النساء ا هـ.

وما ذكره عن ابن السكيت ليس كذلك فقد ذكر ابن السكيت في «**إصلاح المنطق**» أنّها تكون في الرمل تنسلخ فتصير فراشة، ولعلّه تصحف عليه الرمل بالبقل.

الحكم: يحرم أكلها لأنّها من الحشرات.

الخواص: إذا سحق هذا الدود ووضع على العصب المقطوع نفعه من ساعته منفعة عظيمة. وقال الرازي في «**الحاوي**» إذا غسلت الأساريع وجففت وسحقت ناعماً ونقعت في دهن السمسم وطلي بها الذكر فإنّه يغلظ.

التعبير: اليسروع في المنام يعبّر برجل لص يسرق قليلاً قليلاً ويتزيا بالورع ولا يخفي حاله ونفاقه. قال أهل التعبير: وهو دود أخضر يكون في المقاثي والكروم.

الأسفع: الصقر والصقور كلها سفع، والسفعة بالضم: سواد مشرب بحمرة وهي في الوجه سواد في خدي المرأة. وفي الصحيح: فقامت امرأة سفعاء الخدين. ويقال للحمامة: سفعاء لما في عنقها من السفعة.

الأسقنقور: قال ابن بختيشوع: إنّه التمساح البريّ، لحمه حار في الدرجة الثانية، إذا ملح وشرب منه مثقال زاد في الباه وهيّج الشهوة وسخّن الكلى الباردة ونفع من وجعها. وقال ابن زهر: هي دابة بمصر شكلها كالوزغة على عظم خلقته إذا علقت عينه على من يفزع بالليل أبرأته إذا لم يكن من خلط. وقال أرسطاطاليس في كتاب «**الحيوان الكبير**»: إن

شربه يهيّج الباه ويزيد في الانعاظ في سائر البلاد إلاّ بمصر وهي أنفس ما يهدى منها لملوك الهند، فإنّهم يذبحونه بسكين من الذهب ويحشونه من ملح مصر ويحملونه كذلك إلى أرضهم فإذا وضعوا مثقالاً من ذلك الملح على بيض أو لحم وأكل نفع في ذلك نفعاً بليغاً. وسيأتي إن شاء الله تعالى في التمساح أنّه يبيض في البر فما وقع من ذلك في الماء صار تمساحاً وما بقي في البر صار أسقنقوراً.

وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب السين المهملة حكمه وحكم السقنقور الهندي.

الأسود السالخ: هو نوع من الأفعوان شديد السواد سمي بذلك لأنّه يسلخ جلده كل عام، يقال أسود سالخ، ولا يقال للأنثى سالخة، وأسودان سالخ ولا تثنّى الصفة في قول الأصمعي وأبي زيد. وحكى ابن دريد تثنيتها والأوّل أعرف، وأساود سالخة وسوالخ، قاله ابن سيده، روى أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل اللّيل قال: «**يا أرض ربّي وربّك الله أعوذ بالله من شرّك وشرّ ما فيك وشرّ ما خلق فيك وشرّ ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحيّة والعقرب، ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد**» ساكن البلد الجن، وقيل: الوالد وما ولد إبليس والشياطين. وفي «**الصحيحين**» أنّ النبيّ ﷺ أمر بقتل الأسودين في الصلاة: الحيّة والعقرب.

وأنشد ابن هشام في «**كتاب التيجان**»:

ما بال عينك لا تنام كأنّما ... كحلت أماقيها بسم الأسود
حنقاً على سبطين حلاّ يثرباً ... أولى لهم بعقاب يوم أسود

وللإمام الشافعي رضي الله عنه من أبيات:

والشاعر المنطيق أسود سالخ ... والشعر منه لعابه ومجاجه
وعداوة الشعراء داء معضل ... ولقد يهون على الكريم علاجه

روى البيهقي في «**الشعب**» عن عبد الحميد بن محمود قال: كنت عند ابن عباس ﷺ فأتاه رجل فقال: أقبلنا حجاجاً حتى إذا كنّا في الصفاح توفي صاحب لنا فحفرنا له فإذا أسود سالخ قد أخذ اللحد كله، قال: فحفرنا له قبر آخر فإذا أسود سالخ قد أخذ اللحد كله، قال: فحفرنا له ثالثاً فإذا أسود سالخ قد أخذ اللحد كله، قال: فتركناه وأتيناك نسألك ماذا تأمرنا به؟ قال: ذاك عمله الّذي كان يعمله، اذهبوا فادفنوه في بعضها، فوالله لو حفرتم له الأرض كلها لوجدتم ذلك، قال: فألقيناه في قبر منها، فلمّا قضينا سفرنا أتينا امرأته فسألناها عنه فقالت: كان يبيع الطعام فيأخذ قوت أهله كل يوم ثم يخلط فيه مثله من قصب الشعير ثم يبيعه، فعذب بذلك.

وروى الطبراني في «**معجمه الأوسط**» والبيهقي أيضاً في «**كتاب الدعوات الكبير**» من

حديث عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد فذهب يوماً فقعد تحت شجرة فنزع خفيه، قال: ولبس أحدهما فجاء طائر فأخذ الخف الآخر فحلّق به في السماء فانسل منه أسود سالخ، فقال ﷺ: «**هذه كرامة أكرمني الله بها، اللّهم إنّي أعوذ بك من شرّ من يمشي على بطنه ومن شرّ من يمشي على رجلين، ومن شرّ من يمشي على أربع**». وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الغين المعجمة في الغراب حديث نظير هذا وهو صحيح الإسناد.

وروى أحمد في «**كتاب الزهد**» عن سالم بن أبي الجعد قال: كان رجل من قوم صالح عليه السلام قد آذاهم فقالوا: يا نبيّ الله ادع الله عليه، فقال: اذهبوا فقد كُفيتموه. قال: وكان يخرج كل يوم يحتطب، قال: فخرج يوماً ومعه رغيفان فأكل أحدهما وتصدّق بالآخر، قال: فاحتطب ثم جاء بحطبه سالماً لم يصبه شيء. فجاؤوا إلى صالح عليه السلام وقالوا: قد جاء بحطبه سالماً لم يصبه شيء، فدعاه صالح وقال: أي شيء صنعت اليوم؟ قال: خرجت ومعي قرصان فتصدّقت بأحدهما وأكلت الآخر، فقال صالح: حل حطبك، فحل فإذا فيه أسود سالخ مثل الجذع عاض على جزل من الحطب، فقال: بهذا دفع عنك، يعني بالصدقة. وسيأتي إن شاء الله تعالى نظير هذا في الذئب في باب الذال المعجمة.

وروى الطبراني في **معجمه الكبير** عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنّ نفراً مروا على عيسى ابن مريم عليه السلام فقال عيسى ابن مريم: يموت أحد هؤلاء اليوم إن شاء الله تعالى، فمضوا ثم رجعوا عليه بالعشي ومعهم حزم الحطب فقال: ضعوا، وقال للّذي قال: إنّه يموت اليوم: حلّ حطبك، فحلّه فإذا فيه حيّة سوداء، فقال: ما عملت اليوم؟ قال: ما عملت شيئاً، قال: انظر ما عملت، قال: ما عملت شيئاً إلاّ أنّه كان معي في يدي فلقة من خبز فمر بي مسكين فسألني فأعطيته بعضها، فقال: بها دفع عنك.

الأصرمان: الذئب والغراب، قال ابن السكيت: لأنّهما انصرما من النّاس أي انقطعا والأصرمان: الليل والنهار لأنّ كل واحد منهما ينصرم من الآخر. روى أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه كان يقول: حدّثوني عن رجل دخل الجنّة ولم يصلِّ قط، فإذا لم يعرفه النّاس سألوه من هو فيقول: أصيرم بن عبد الأشهل، قال عامر بن ثابت بن قيس: فقلت لمحمود بن لبيد: كيف كان شأن الأصيرم؟ قال: كان يأبى الإسلام على قومه، فلمّا كان يوم أُحد وخرج رسول الله ﷺ إلى أُحد بدا له الإسلام فأسلم وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنّه لمن أهل الجنّة» رضي الله عنه.

الأصلة: بفتح الهمزة والصاد واللام، حية كبيرة الرأس قصيرة الجسم تثب على الفارس فتقتله، قاله ابن الأنباري. وقيل: حيّة خبيثة لها رجل واحدة تقوم عليها ثم تدور ثم تثب، والجمع أصل.

وأنشد الأصمعي رحمه الله تعالى:

يا رب إن كان يزيد قد أكل لحم الصديق عللاً بعد نهل
فاقدر له أصلة من الأصل كيماء كالقرصة أو خف الجمل

وقال الجاحظ: الأعراب تقول: إنّها لا تمر بشيء إلاّ احترق وكأنّها سميت بذلك لاستهلاكها واستئصالها. وفي الحديث في صفة الدجّال: كأنّ رأسه أصلة؛ وقيل: وجه الأصلة كوجه الإنسان وهو عظيم جداً، ويقال: إنّها تصير كذلك إذا مر عليها ألف سنة من العمر. ومن خواصها أنّها تقتل بالنظر إليها. وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الحيّة المهملة ذكر شيء من ذلك.

الأطلس: الذئب الّذي في لونه غبرة إلى السواد وكل ما كان على لونه فهو أطلس.

قال الكميت يمدح محمد بن سليمان الهاشمي:

تلقى الأمان على حياض محمد ثولاء مخرفة وذئب أطلس
لا ذي تخاف ولا لهذا جرأة تهدي الرعية ما استقام الريس

استشهد به الجوهري على أنّ الرئيس يقال فيه: ريس مثل قيم.

الأطوم: كالأنوق: اللحفاة البحرية. قاله الجوهري، وقيل: هي سمكة غليظة الجلد تشبه جلد البعير يتّخذ منه الخفاف للجمالين؛ وقيل: الأطوم القنفذ؛ وقيل: البقرة؛ قيل إنّما سميت بذلك على التشبيه بالسمكة لغلظ جلدها، قاله ابن سيده.

الأطيش: طائر قاله ابن سيده، والطيش: خفة العقل. قال إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى: ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه. وأشهب المذكور هو ابن عبد العزيز بن داود الفقيه المالكي المصري، ولد في السنّة الّتي ولد فيها الشافعي وهي سنة خمسين ومائة، وتوفي بعد الشافعي بثمانية عشر يوماً. قال ابن عبد الحكم: سمعت أشهب يدعو على الشافعي بالموت فذكر ذلك للشافعي فقال:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيه بأوحد
فقل للّذي يبغي خلاف الّذي مضى تهيّأ لأخرى مثلها فكأن قد

قال: فمات الشافعي فاشترى أشهب من تركته عبداً فاشتريته من تركته بعد ثلاثين يوماً.

وفي «**مصابيح الظلم**» قال ابن عبد الحكم: لما حملت أم الشافعي به رأت كأنّ المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر ووقع في كل بلدة منه شظية، فأوّله أصحاب الرؤيا أنّه يخرج منها عالم يختص علمه بأهل مصر ثم يتفرّق في سائر البلدان. واتفق العلماء قاطبة على ثقته وورعه وأمانته وزهده وهو أوّل من تكلّم في أصول الفقه وهو الّذي استنبطه. وكان يؤتى بالرطب فيقول مخاطباً له: ما أطيبك وأحلاك والعلم أطيب منك وأحلى، ولا يناله. واشترى جارية فلما كان اللّيل أقبل على الدرس والجارية تنتظر اجتماعه معها فلم يلتفت إليها، فصارت إلى النخّاس وقالت: حبستموني مع مجنون، فبلغ ذلك الشافعي فقال: المجنون من عرف قدر العلم وضيّعه أو توانى فيه حتى فاته. وكان الشافعي جواداً كريماً مفضالاً لا يبقي على شيء ولا يدّخر شيئاً وكان شجاعاً ومناقبه أكثر من أن تحصى. ولد بغزة في سنة خمسين ومائة كما تقدّم؛ وقيل: إنّها الّتي توفي فيها أبو حنيفة. وفي «**تهذيب الأسماء واللغات**»: قيل: توفي سنة إحدى وخمسين؛ وقيل: في سنة ثلاث وخمسين؛ وقال غيره: توفي في اليوم الّذي ولد فيه الشافعي لا في السنة؛ وقيل: ولد الشافعي بعسقلان؛ وقيل: باليمن. قال ابن خلكان: والأصح الأوّل، وحمل من غزة إلى مكّة وهو ابن ست سنين، ووصل إلى مصر سنة تسع وتسعين ومائة؛ وقيل: سنة إحدى ومائتين، وأقام بها إلى أن مات سنة أربع ومائتين. وقبره بقرافة مصر مشهور وعاش أربعاً وخمسين سنة. رحمة الله عليه ورضوانه.

الأغشر: طائر ملتبس الريش طويل العنق وهو من طير الماء، قاله ابن سيده.

الأفال والأفائل: صغار الإبل من بنات المخاض ونحوها، وأحدهما أفيل. والأنثى أفيلة. وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في تبيع.

الأفعى: الأنثى من الحيات، والذكر أفعوان بضم الهمزة والعين؛ قال الزبيدي: الأفعى حية رقشاء دقيقة العنق عريضة الرأس، وربّما كانت ذات قرنين، وكنية الأفعوان أبو حيان وأبو يحيى لأنّه يعيش ألف سنة وهو الشجاع الأسود، يواثب الإنسان، وهو شر الحيات وشرها أفاعي سجستان. ومن عجيب أمرها ما حكاه ابن شبرمة أنّ أفعى منها نهشت غلاماً في رجله فانصدعت جبهته. ويحكى أنّ شبيب بن شيبة دخل على المنصور فقال: يا شبيب أدخلت سجستان؟ فإنّه بلغني أنّها كثيرة الحيات، فقال: نعم يا أمير المؤمنين دخلتها،

قال: صف أفاعيها، فقال: دقاق الأعناق صغار الأذناب مفلطحة الرؤوس رقش برش كأنّما كسين أعلام الحبرات، كبارهن حتوف وصغارهن سيوف.

وقال القزويني: هي حية قصيرة الذنب من أخبث الحيات إذا فقئت عينها تعود ولا تغمض حدقتها ألبتة، تخفى في التراب أربعة أشهر في البرد ثم تخرج وقد أظلمت عينها، تطلب شجر الرازيانج فتحك عينها به فيرجع إليها ضوؤها.

وقال الزمخشري: يحكى أنّ الأفعى إذا أتى عليها ألف سنة عميت وقد ألهمها الله تعالى أن مسح عينها بورق الرازيانج الرطب يرد إليها بصرها، فربما كانت برية. وبينها وبين الريف مسيرة أيام فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها فتحك بها عينها فترجع باصرة بإذن الله تعالى. وإذا قطع ذنبها عاد كما كان، وإذا قلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام. وإذا ذبحت تبقى تتحرك ثلاثة أيام. وهي أعدى عدو للإنسان، وبقر الوحش يأكلها أكلاً ذريعاً. وحكي أنّها نهشت ناقة في مشفرها ولها فصيل يرضعها فمات الفصيل في الحال قبل موت أمه، وإذا مرضت أكلت ورق الزيتون فتشفى. ومن الأفاعي ما تتسافد بأفواهها، فإذا وطىء الذكر الأنثى وقع مغشياً عليه فتعمد الأنثى إلى موضع مذاكيره فتقطعها نهشاً فيموت من ساعته. قال الجوهري: وكشيش الأفعى صوتها من جلدها لا من فيها، وقد كشت تكش كشيشاً. قال الراجز:

كأنّ صوت شخبها المرفض كشيش أفعى أزمعت لعض

فهي تحك بعضها ببعض

قال الشيخ أبو الحسن علي بن محمد المزين الصغير الصوفي: كنت ببادية تبوك فقدمت إلى بئر أستقي منها فزلفت رجلي فوقعت في جوف البئر فرأيت في البئر زاوية واسعة فأصلحت موضعاً وجلت فيه، فبينما أنا كذلك إذا أنا بخشخشة فتأملت فإذا أنا بأفعى سقطعت عليّ ودارت بي وأنا ساكن السر لا أضطرب، ثم لفت عليّ ذنبها وأخرجتني من البئر وحلت عنّي ذنبها ثم ذهبت عنّي. وعن جعفر الخالدي قال: ودعت أبا الحسن المزين الصغير فقلت له: زودني شيئاً، فقال لي: إذا ضاع منك شيء أو أردت أن يجمع الله بينك وبين إنسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴿إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9] اجمع بيني وبين كذا، فإن الله تعالى يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو ذلك الإنسان، قال: فما دعوت بها في شي إلاّ استجيب لي. توفي الشيخ أبو الحسن بمكة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

والحارية نوع منها وهي التي قال فيها النابغة الذبياني:

حارية قد صغرت من الكبر مهزوءة الشدقين حولاء النظر

وفي الحديث أنّ أبا بكر رضي الله عنه لمّا مات النبيّ ﷺ أصابه حزن شديد، فما زال يحرى بدنه حتى لحق بالله تعالى أي يذوب وينقص.

الأمثال: قالوا: أظلم من أفعى وذلك أنّها لا تحفر جحراً، وإنّما تأتي إلى جحر قد احتفره غيرها فتدخل فيه؛ قال الشاعر:

وأنت كالأفعى التي لا تحتفر ثم تَجِيءُ مبادراً فتحتجر

فكل بيت قصدت إليه هرب منه أهله وخلوه لها. وقالت العرب: «تحككت العقرب بالأفعى» إذا تكلم الضعيف مع القوي أو ناظره. وسيأتي إن شاء الله تعالى في العقرب أيضاً. وقالوا: رماه الله تعالى بأفعى حارية، وهي التي يموت لديغها من ساعته. وقالوا: من لسعته أفعى من جر الحبل يخاف. وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

المرء يجمع والزمان يفرق ويظل يرقع والخطوب تمزقُ
ولأن يعادي عاقلاً خير له من أن يكون له صديق أحمق
فاربأ بنفسك أن تصادق أحمقاً إنّ الصديق على الصديق مُصَدَّق
وزِنِ الكلام إذا نطقت فإنّما يبدي عقول ذوي العقول المنطق
ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يحل بكل واد قلبه فيرى ويعرف ما يقول فينطق
لا أُلْفِيَنَّكَ ثاوياً في غربة إنّ الغريب بكل سهم يرشق
ما النّاس إلا عاملان فعامل قد مات من عطش وآخر يغرق
والنّاس في طلب المعاش وإنّما بالجِدِّ يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون النّاس حسب عقولهم ألفيت أكثر من ترى يتصدّق
لكنّه فضل المليك عليهم هذا عليه موسّع ومضيِّق
وإذا الجنازة والعروس تلاقيا ورأيت دمع نوائح يترقرق
سكت الّذي تبع العروس مبهَّتاً ورأيت من تبع الجنازة ينطق
وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يُجَرُّ حبل يَفْرَق
بقي الّذين إذا يقولوا يكذبوا ومضى الّذين إذا يقولوا يصدقوا

ومن محاسن شعره قوله:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسه
وإنّ من أدبته في الصبا كالعود يُسقَى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً بعد الّذي أبصرت من يبسه

قوله: والشيخ لا يترك أخلاقه . . . البيت، والّذي يليه هما كانا سبب قتله، وذلك أنّ المهدي اتّهمه بالزندقة وأمر بإحضاره، فلمّا خاطبه أعجبه كلامه فخلّى عنه. فلمّا ولّى رده

وقال له: ألست القائل: والشيخ لا يترك أخلاقه . . . البيتين المتقدمين، قال: بلى يا أمير المؤمنين، قال: فأنت لا تترك أخلاقك، فأمر به فقتل وصلب على الجسر، وذلك سنة سبع وتسعين ومائة. من محاسن شعره أيضاً قوله:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وهو كقول ابن دريد:

من لم يقف عن انتهاء قدره تقاصرت عنه فسيحات الخطا

وصالح هذا هو صاحب الفلسفة قتله المهدي على الزندقة، كان يعظ ويقص بالبصرة، وحديثه يسير وليس بثقة، فقيل: إنّه رُئِي في المنام، فقال: إنّي وردت على رب لا تخفى عليه خافية فاستقبلني برحمته وقال: قد علمت براءتك ممّا قذفت به. وقد أحسن بعض الشعراء في وصف القنديل حيث قال مشبهاً:

وقنديل كأنّ الضوء منه محيا من هويت إذا تجلّى
أشار إلى الدجى بلسان أفعى فشمّر ذيله فرقاً وولّى

والأفعوان هو الشجاع الأسود يواثب الإنسان وكنيته أبو حيان وأبو يحيى لأنّه يعيش ألف سنة وما أحسن قول بعضهم[1]:

صرمت حبالك بعد وصلك زينب والدهر فيه تغير وتقلبُ
نشرت ذوائبها الّتي تزهو بها سوداً ورأسك كالثغامة أشيب
واستنفرت لمّا رأتك وطالما كانت تحن إلى لقاك وترغب
وكذاك وصل الغانيات فإنّه آل[2] ببلقعة وبرق خلّب
فدع الصبا فلقد عداك زمانه وازهد فعمرك مر منه الأطيب
ذهب الشباب فما له من عودة وأتى المشيب فأين منه المهرب
دع عنك ما قد كان في زمن الصبا واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
واذكر مناقشة الحساب فإنّه لا بدّ يُحْصَى ما جنيت ويكتَب
لم ينه الملكان حين نسيته بل أثبتاه وأنت لاه تلعب
والروح فيك وديعة أودعتها سترِدها بالرغم منك وتسلب
وغرور دنياك الّتي تسعى لها دار حقيقتها متاع يذهب
والليل فاعلم والنهار كلاهما أنفاسنا فيها تُعَدُّ وتُحْسَب
وجميع ما خلفته وجمعته حقاً يقيناً بعد موتك ينهب

(١) تنسب بعض أبياتها إلى (علي بن أبي طالب) ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) الآل: السراب.

تباً لدار لا يدوم نعيمها ... ومَشِيدها عما قليل يخرب
فاسمع هديت نصيحة أولاكها ... برٌّ نصوح للأمور مجرب
صحب الزمانَ وأهلَه مستبصراً ... ورأى الأمورَ بما تئوب وتعقب
لا تأمَنِ الدّهر الخؤون فإنّه ... ما زال قِدْماً للرجال يؤدب
وعواقب الأيام في غصاتها ... مضض يذلّ له الأعز الأنجب
فعليك تقوى الله فالزمها تفز ... إن التقيَّ هو البهي الأهيب
واعمل بطاعته تنل منه الرضا ... إنّ المطيع له لديه مقرب
واقنع ففي بعض القناعة راحة ... واليأس مما فات فهو المطلب
فإذا طمعت كسيت ثوب مذلّة ... فلقد كُسِيَ ثوب المذلة أشعب
وتَوَقَّ من غدر النساء خيانة ... فجميعهن مكايد لك تُنْصَب
لا تأمنِ الأنثى حياتك إنّها ... كالأفعوان يراع منه الأنيب
لا تأمنِ الأنثى زمانك كله ... يوماً ولو حلفت يميناً تكذب
تغري بلين حديثها وكلامها ... وإذا سطت فهي الصقيل الأشطب
وابدأ عدوّك بالتحيّة ولتكن ... منه زمانك خائفاً تترقب
واحذره إن لاقيته متبسّماً ... فاللّيث يبدو نابه إذ يغضب
إنّ العدوّ وإن تقادم عهده ... فالحقد باق في الصدور مغيب
وإذا الصديق لقيته متملقاً ... فهو العدو وحقّه يتجنّب
لا خير في ود امرىء متملّق ... حلو اللسان وقلبه يتلهّب
يلقاك يحلف أنّه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللّسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وَصِلِ الكرام وإن رموك بجفوة ... فالصفح عنهم بالتجاوز أصوب
واختر قرينك واصطفيه تفاخراً ... إنّ القرين إلى المقارن ينسب
إنّ الغني من الرجال مكرم ... وتراه يرجى ما لديه ويرهب
ويُبَشُّ بالترحيب عند قدومه ... ويُقام عند سلامه ويقرب
والفقر شين للرجال فإنّه ... حقاً يهون به الشريف الأنسب
واخفض جناحك للأقارب كلهم ... بتذلّل واسمح لهم إن أذنبوا
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ... إن الكذوب يشين حراً يصحب
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ... ثرثارة في كل ناد تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه ... فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولا تنطق به ... إنّ الزجاجة كسرها لا يشعب

وكذاك سر المرء إن لم يطوه ... نشرته ألسنة تزيد وتكذب
لا تَحْرِصَنْ فالحرص ليس بزائد ... في الرزق بل يُشْقِي الحريص ويتعب
ويظل ملهوفاً يروم تحيلاً ... والرزق ليس بحيلة يتجلب
كم عاجز في الناس يأتي رزقه ... رغداً ويحرم كيّسٌ ويُخَيَّب
وارْع الأمانة والخيانة فاجتنب ... واعدل ولا تظلم يطب لك مكسب
وإذا أصابك نكبة فاصبر لها ... من ذا رأيت مسلماً لا ينكب
وإذا رميت من الزمان بريبة ... أو نالك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربّك إنّه أدنى لمن ... يدعوه من حبل الوريد وأقرب
كن ما استطعت عن الأنام بمعزل ... إنّ الكثير من الورى لا يصحب
واحذر مصاحبة اللئيم فإنّه ... يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجرب
واحذر من المظلوم سهماً صائباً ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رأيت الرزق عز ببلدة ... وخشيت فيها أن يضيق المذهب
فارحل فأرض الله واسعة الفضا ... طولاً وعرضاً شرقها والمغرب
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتي ... فالنصح أغلى ما يباع ويوهب

تتمة: ذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي في «**الأذكياء**» وغيره قال: لما حضرت نزار بن معد الوفاة قسم ماله بين بنيه وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، وقال: يا بني هذه القبة وهي من أدم حمراء وما أشبهها من المال لمضر وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من المال لربيعة وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه. ثم قال لهم: إن أشكل عليكم الأمر في ذلك واختلفتم في القسمة فعليكم بالأفعى ابن الأفعى الجرهمي. وإنّه لمّا مات نزار توجّهوا إلى الأفعى، وكان ملك نجران فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال: إنّ البعير الّذى رعى هذا أعور، فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبتر، وقال أنمار: وهو شرود، فلم يسيروا إلاّ قليلاً حتى لقيهم رجل فسألهم عن البعير فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم، قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم، قال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، هذه صفة بعيري، دلوني عليه فحلفوا له أنّهم ما رأوه فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته ثم سار معهم حتى قدموا نجران ونزلوا بالأفعى الجرهمي. فنادى الشيخ صاحب البعير: هؤلاء أصابوا بعيري فإنّهم وصفوا لي صفته ثم قالوا: لم نره أيّها الملك، فقال الأفعى: كيف وصفتموه ولم تروه؟ فقال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً فعلمت أنّه أعور، وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر فعرفت أنّه أفسدها بشدّة وطئه لازوراره، وقال إياد: رأيت بعره مجتمعاً فعلمت أنّه أبتر ولو كان ذيالاً لمصع به، وقال أنمار: رأيته رعى الملتف نبته ثم جاوزه إلى مكان آخر أرق منه فعلمت أنّه

شرود. فقال الأفعى للشيخ: ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه، ثم سألهم من هم؟ فأخبروه فرحّب بهم، ثم قال: أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى فدعا لهم بطعام وشراب فأكلوا وشربوا، فقال مضر: لم أر كاليوم خمراً أجود لولا أنها على مقبرة، وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً أجود لولا أنّه ربي بلبن كلبة، وقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أثرى منه لولا أنّه ليس بابن أبيه الّذي يُدْعَى إليه، وقال أنمار: لم أر كاليوم خبزاً أجود لولا أنّ الّتي عجنته حائض.

وكان الأفعى قد وكل بهم من يستمع كلامهم فأعلمه بما سمع منهم، فطلب صاحب شرابه وقال له: الخمرة الّتي جئت بها ما قصتها؟ قال: هي من كرمة غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب من شرابها، وقال للراعي: اللحم ما أمره؟ قال: من لحم شاة أرضعناها بلبن كلبة ولم يكن في الغنم أسمن منها، فدخل داره وسأل الأمة الّتي عجنت العجين فأخبرته أنّها حائض، ثم أتى أمّه وسأل منها عن أبيه فأخبرته أنّها كانت تحت ملك لا يولد له فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلاً نزل بهم من نفسها فوطئها فأتت به، فعجب من أمرهم ودسّ عليهم من سألهم عمّا قالوا، فقال مضر: إنّما علمت أنّها من كرمة غرست على قبر لأنّ الخمر إذا شربت أزالت الهمّ وهذه بخلاف ذلك لأنّا لمّا شربناها دخل علينا الغمّ، وقال ربيعة: إنّما علمت أنّ اللحم لحم شاة رضعت من لبن كلبة لأنّ لحم الضأن وسائر اللحوم شحمها فوق اللحم إلاّ الكلاب فإنّها عكس ذلك فرأيته موافقاً له فعلمت أنّه لحم شاة رضعت من كلبة فاكتسب اللحم منها هذه الخاصية، وقال إياد: إنّما علمت أنّ الملك ليس بابن أبيه الّذي يُدْعى إليه لأنّه صنع لنا طعاماً ولم يأكل معنا فعرفت ذلك من طباعه لأنّ أباه لم يكن كذلك، وقال أنمار: إنّما علمت أنّ الخبز عجنته حائض لأنّ الخبز إذا فت انتفش في الطعام وهو بخلاف ذلك فعلمت أنّه عجين حائض. فأخبر الرجل الأفعى بذلك، فقال: ما هؤلاء إلاّ شياطين، ثم أتاهم فقال لهم: قصّوا قصّتكم، فقصّوا عليه ما أوصاهم به أبوهم وما كان من اختلافهم. فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر فصارت له الدنانير، والإبل وهي حمر فسميت مضر الحمراء، ثم قال: وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة، فصارت له الخيل، وهي دهم فسميت ربيعة الفرس ثم قال: وما أشبه الخادم وكانت شمطاء من مال فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فساروا من عنده على ذلك وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الكاف في الكلام على الكلب ما نقله السهيلي من أن ربيعة ومضر كانا مؤمنين. وفي «**وفيات الأعيان**» في ترجمة ابن التلميذ شيخ النصارى والأطباء أنّه كان بينه وبين أوحد الزمان هبة الله الحكيم المشهور تنافس، وكان يهودياً فأسلم في آخر عمره وأصابه الجذام، فعالج نفسه بتسليط الأفاعي على جسده بعد أن جوّعها فبالغت في نهشه فبرىء من الجذام وعمي. فعمل فيه ابن التلميذ شعراً:

لنا صديق يهودي حماقته إذا تكلّم تبدو فيه من فيه

يتيه والكلب أعلى منه منزلة كأنّه بعد لم يخرج من التيه

وكان ابن التلميذ متواضعاً وأوحد الزمان متكبراً فعمل فيهما البديع الأَسْطُرْلابِي شعراً:

أبو الحسن الطبيب ومقتفيه أبو البركات في طرفي نقيض
فهذا بالتواضع في الثريا وهذا بالتكبر في الحضيض

وقد ألغز أبو الحسن بن التلميذ في الميزان وأجاد:

ما واحد مختلف الأسماء يعدل في الأرض وفي السماء
يحكم بالقسط بلا رياء أعمى يُرِي الإرشاد كل راء
أخرس لا من علّة وداء يغني عن التصريح بالإيماء
يجيب إن ناداه ذو امتراء بالرفع والخفض عن النداء
يفصح إن عُلِّقَ في الهواء

وقوله مختلف الأسماء يعني ميزان الشمس للأَسْطُرْلابُ وسائر آلات الرصد وهو معنى قوله: يعدل في الأرض والسماء، وميزان الكلام النحو، وميزان الشعر العروض، وميزان المعاني المنطق، وهذه الميزان وغير ذلك. والأسطرلاب بفتح الهمزة وإسكان السين وضم الطاء ومعناه ميزان الشمس لأن أسطر اسم للميزان ولاب اسم للشمس بلسان اليونان وأوّل من وضعه بَطَلَيْمُوس بفتح الباء واللام وإسكان الطاء والياء وضم الميم، وله في وضعه قصة عجيبة تركناها لطولها. وكان ابن التلميذ قد جمع أنواعاً من العلوم حتى كان يتعجب من أمره كيف حرم الإسلام مع كمال فهمه وغزارة عقله وعلمه وهذا سر قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 186]، نسأل الله الوفاة على التوحيد آمين، توفي ابن التلميذ في صفر سنة ستين وخمسمائة.

الخواص: دمها يكتحل به يجلو البصر وقلبها يجفف ويشد على الإنسان فلا يؤثر فيه السحر، وإذا علّق ضرس الأفعى الأيسر على من يشتكي ضرسه نفعه، وإن علق على فخذ امرأة لم تحبل ما دام عليها. وقال القزويني وابن زهر وابن بختيشوع: إن قلب الأفعى إذا علّق على من به حمى الربيع أبرأه. وشحمها ينفع من لسع سائر الهوام دلكاً، وإن نتف الشعر من مكان وطلي ذلك المكان بشحمها منعه من النبات، وإذا أمسك إنسان نوشادراً في فمه حتى يذوب ثم بصق في فم الحيّة والأفعى ماتا من وقتهما، وسلخ الأفعى إذا طبخ بالخل وتمضمض به نفع من وجع الأسنان والأضراس، وإذا سحق بالتراب واكتحل به نفع من ظلمة البصر، وشحمها ينفع البواسير وبياض العين طلاء وكحلاً ومرارتها سم ساعة، وقال أبقراط: من أكل لحم الأفعى أمن من الأمراض الصعبة.

حكي عن عمرو بن يحيى العلوي أنّه قال: كنّا في طريق مكّة فأصاب رجلاً منّا استسقاء

فاتفق أنّ العرب سرقوا قطاراً منّا فيه ذلك الرجل العليل، فلمّا رجعنا إلى الكوفة وجدناه معافى، فسألناه عن حاله، فقال: إنّ الأعراب لما انتهوا بي إلى مساكنهم وهي على فراسخ طرحوني في أواخر بيوتهم فكنت أتمنّى الموت إلى أن رأيتهم يوماً قد أخرجوا أفاعي اصطادوها فقطعوا رؤوسها وأذنابها وشووها، فقلت في نفسي: هؤلاء اعتادوا أكلها فلا تضرّهم فلعلّي إن أنا أكلت منها مت واسترحت فاستطعمتهم فرمى إليّ رجل منهم واحدة فأكلتها فنمت نوماً ثقيلاً ثم استيقظت وقد عرقت عرقاً شديداً واندفعت طبيعتي أكثر من مائة مرة، فلمّا أصبحت وجدت بطني قد ضمر فطلبت منهم مأكولاً فأكلت وأقمت عندهم إلى أن وثقت من نفسي بالشفاء ثم أخذت الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

الأقهبان: الفيل والجاموس قال رؤبة يصف نفسه بالشدّة:

ليث يدق الأسد الهموسا والأقهبين الفيل والجاموسا

الأملول: دويبة تكون في الرمل تشبه القطاة، قاله ابن سيده.

الإنس: البشر، الواحد إِنْسِيٌّ وأَنِسِيٌّ أيضاً بالتحريك والجمع أَنَاسِيُّ، وإن شئت جعلته إنساناً ثم جمعته على أناسي فتكون الياء عوضاً عن النون. قال تعالى ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 49] وكذلك الأَنَاسِيَة مثل الصيارفة والصياقلة، ويقال للمرأة أيضاً إنسان ولا يقال إنسانة والعامة تقوله. قال الجوهري وأنشدوا على ذلك:

إنسانة فتّانة بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيني بها فبالدموع تغتسل

الإنسان: نوع العالم والجمع الناس. قال الجوهري: وتقدير إنسان على فعلان، وإنّما زيد في تصغيره ياء وقيل أنيسيان كما زيد في تصغير رجل فقيل: رويجل، وقال قوم: أصله أنسيان على وزن أفعلان فحذفت الياء تخفيفاً لكثرة ما يجري على الألسنة، وإذا صغروها ردّوها لأنّ التصغير لا يكبّر واستدلوا عليه بقول ابن عباس رضي الله عنهما أنّه إنّما سمي إنساناً لأنّه عهد إليه فنسي، والأناس لغة في النّاس وهو الأصل فخفف. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]] وهو اعتداله وتسوية أعضائه لأنّه خلق كل شيء منكباً على وجهه وخلقه سوياً وله لسان ذلق ينطق به ويد وأصابع يقبض بها، مزيناً بالعقل مؤدباً بالأمر مهذّباً بالتمييز يتناول مأكوله ومشروبه بيده. وروى الطبراني في «**معجمه الأوسط**» بإسناد صحيح عن أبي مزينة الدارمي وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبيّ ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: 1-2]

فائدة: قال ابن عطية: من الدليل على أنّ القرآن غير مخلوق: أنّ الله تعالى ذكر القرآن في كتابه العزيز في أربعة وخمسين موضعاً ما فيها موضع صرح فيه بلفظ الخلق ولا أشار إليه،

وذكر الإنسان على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه. وقد افترق ذكرهما على هذا النحو في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: 1-3]. قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي الإمام العلاّمة: ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان فإنّ الله تعالى خلقه حيّاً عالماً قادراً متكلّماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً، وهذه صفات الرب جلّ وعلا، وعنها وقع البيان بقوله ﷺ: «**إنّ الله تعالى خلق آدم على صورته**» يعني على صفاته الّتي قدّمنا ذكرها، قلت: وهنا مجال رحب لأصحاب الكلام في أصول الدين أضربنا عنه إذ ليس هو من غرضنا في هذا الكتاب.

وروى أبو بكر المتقدّم ذكره بإسناده أن موسى بن عيسى الهاشمي كان يحب زوجته حبّاً شديداً فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر، فاحتجبت عنه، وقالت: طلقت فبات بليلة عظيمة، فلمّا أصبح أتى المنصور وأخبره بذلك، فاستحضر الفقهاء وسألهم عن ذلك فأجاب كل منهم بالطلاق إلاّ واحداً منهم فقال: لا تطلق لقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ [التين: 4]، فقال المنصور: الأمر كما ذكرت، ثم أرسل إلى زوجته بذلك. وهذا الجواب ينقل عن الإمام الشافعي رضي الله عنه، وعندي في قوله: موسى بن عيسى نظر، والّذي أظنه أنّه عيسى بن موسى فإنّه كان ولي عهد المنصور ثم خلعه من ولاية العهد لولده المهدي. وقد تقدّم أنّ الشافعي رضي الله عنه ولد في سنة خمسين ومائة، والمنصور كانت وفاته على ما ذكره ابن خلكان وغيره في سنة ثمان وخمسين ومائة، فكيف يتصور أن يكون الشافعي المفتي في هذه الواقعة؟ فليتأمّل ذلك، قلت: وقد أذكرتني هذه الحكاية ما ذكره الزمخشري عند قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النساء: 127]. أن عمران بن حطان الخارجي كان شديد السواد، وكانت امرأته من أجمل النساء، فأطالت نظرها في وجهه يوماً وقالت: الحمد لله، فقال: مالك؟ فقالت: حمدت الله تعالى على أنّي وإيّاك في الجنّة، قال: كيف؟ قالت: لأنّك رزقت مثلي فشكرت، ورزقت مثلك فصبرت، وقد وعد الله عباده الصابرين والشاكرين الجنّة. وذكر ابن الجوزي في «**الأذكياء**» وغيره أنّ عمران بن حطان هذا كان أحد الخوارج، وهو القائل يمدح عبد الرّحمٰن بن ملجم لعنهما الله على قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البريّة عند الله ميزانا
أكرم بقوم بطون الأرض أقبرهم ... لم يخلطوا دينهم بغياً وعدوانا

فبلغت القاضي أبا الطيب الطبري هذه الأبيات فقال مجيباً له:

إنّي لأبرأ ممّا أنت قائله ... في ابن مُلْجَم الملعون بهتانا
إنّي لأذكره يوماً فألعنه ... ديناً وألعن عِمران بن حطانا
عليك ثم عليه الدهر متصلاً ... لعائن الله إسراراً وإعلانا

فأنتم من كلاب النار جاء لنا نص الشريعة برهاناً وتبيانا

أشار أبو الطيّب إلى قوله ﷺ: «**الخوارج كلاب النار**».

عجيبة: رأيت في ذيل «**تاريخ بغداد**» لابن النجار في ترجمة علي بن نصر الفقيه ابن أحمد المالكي والد القاضي عبد الوهاب، وكان ثقة عدلاً قال: زوجت أيّام عضد الدولة ابن بويه بعض غلمانه الأتراك صبية في جوارنا، وكان لها ولوالدتها أنس بدارنا، وكانت من الموصوفات بالستر والعفاف ومضى على ذلك سنتان فحضر إلي الغلام التركي وقال: يا سيدي هذه المرأة الّتي زوّجتني بها قد ولدت مني ابناً ولا أشكو شيئاً من أمرها ولا أنكره غير أنّها ما أرتني ولدي منذ ولدته، وكلّما طالبتها به دافعتني عنه، وأريد أن تستدعيها وتسألها عن ذلك، قال: فاستدعيت والدتها فحضرت وخاطبتها من وراء الستر على ما قاله زوج ابنتها فأسرّت إلي، وقالت: يا سيدي صدق فيما حكاه، وإنّما دافعناه عن هذا لأنّا قد بلينا ببلية قبيحة، وذلك أنّ زوجته ولدت منه ولداً أبلقاً من رأسه إلى سرّته أبيض وبقية بدنه أسود، قال: فسمع التركي قولها أبلق فصاح: ابني ابني، وهكذا كان جدي ببلاد الترك وقد رضيت، ففرحت المرأة بقوله وانصرفت وأظهرت له الولد.

وافتتح ابن بختيشوع ومعناه عبد المسيح كتابه في الحيوان بالإنسان وقال: إنّه أعدل الحيوان مزاجاً وأكمله أفعالاً وألطفه حساً وأنفذه رأياً، فهو كالملك المسلّط القاهر لسائر الخليقة والآمر لها، وذلك بما وهبه الله تعالى له من العقل الّذي به يتميّز على كل الحيوان البهيمي فهو بالحقيقة ملك العالم، ولذلك سمّاه قوم من الأقدمين العالم الأصغر.

فائدة: نقل الشيخ شهاب الدين أحمد البوني رحمه الله في كتابه المسمّى «**بسر الأسرار**» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: من كانت له حاجة فليصم الأربعاء والخميس والجمعة، فإذا كان يوم الجمعة تطهر وراح إلى الجمعة، وقال: اللّهم إنّي أسألك باسمك بسم الله الرّحمٰن الرّحيم الّذي لا إلٰه إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرّحمٰن الرّحيم، وأسألك باسمك بسم الله الرّحمٰن الرّحيم الّذي لا إلٰه إلاّ هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم، الّذي ملأت عظمته السمٰوات والأرض، وأسألك باسمك بسم الله الرّحمٰن الرّحيم الّذي لا إلٰه إلاّ هو عنت له الوجوه وخشعت له الأبصار ووجلت القلوب من خشيته أن تصلّي على محمد وعلى آل محمد وأن تعطيني مسألتي وتقضي حاجتي (وتسميها) برحمتك يا أرحم الرّاحمين. وهو سر لطيف مجرّب.

وقال: من كتب محمد رسول الله أحمد رسول الله خمساً وثلاثين مرّة يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة على طهارة كاملة وحملها معه رزقه الله تعالى القوّة على الطاعة ومعونة على البركة وكفاه همزات الشياطين، وإن هو استدام النظر إلى تلك البطاقة كل يوم عند طلوع الشمس وهو يصلّي على محمد ﷺ كثرت رؤيته للنبيّ ﷺ، وهو سر لطيف مجرب.

وروى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنّه رأى ربّ العزة في المنام تسعاً وتسعين مرّة، فقال: إن رأيته تمام المائة لأسألنّه فرآه تمام المائة فسأله وقال: يا ربّ بماذا ينجو العباد يوم القيامة؟ فقال له: من قال كل يوم بكرة وعشياً ثلاث مرّات: سبحان الأبدي الأبد سبحان الواحد الأحد سبحان الفرد الصمد سبحان من رفع السماء بغير عمد سبحان من بسط الأرض على ماءٍ جمد، سبحانه لم يتّخذْ صاحبةً ولا ولداً سبحانه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه: من قال كل يوم بين صلاة الفجر والصبح أربعين مرّة يا حيّ يا قيوم يا بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا الله لا إلٰه إلاّ أنت أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك يا أرحم الرّاحمين أحيا الله قلبه يوم تموت القلوب.

فائدة أخرى: في «**كتاب البستان**» عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحبّ أن يحفظ الله عليه الإيمان حتى يلقاه يوم القيامة فليصل كلّ ليلة بعد سنّة المغرب قبل أن يتكلّم ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة** و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ مرّة و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ **مرّة ويسلّم منهما، فإنّ الله تعالى يحفظ عليه الإيمان حتى يوافي ربّه يوم القيامة**».

قال الراوي: وهذه فائدة عظيمة غنيمة. وذكر النسفي هذا الحديث بسند طويل وزاد فيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] قبل «الإخلاص» ويسبّح خمس عشرة مرّة بعد السلام ويقول عقب التسبيح: اللّهم أنت العالم ما أردت بهاتين الركعتين اللّهمّ اجعلهما لي ذخراً يوم لقائك، اللّهمّ احفظ بهما ديني في حياتي، وعند مماتي، وبعد وفاتي، آمنه الله سلب الإيمان وهذه فائدة عظيمة من أعظم المهمّات. وسئل بعض الحكماء وذوي الفصاحة من العلماء: أي الخصال من الإنسان خير؟ قال: الدّين، قال: فإذا كانت اثنتين؟ قال: الدّين والمال، قال: فإذا كانت ثلاثاً؟ قال: الدّين والمال والحياء، قال: فإذا كانت أربعاً؟ قال: الدّين والمال والحياء وحسن الخلق، قال: فإذا كانت خمساً؟ قال: الدّين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء، فمن اجتمع فيه هذه الخصال الخمس فهو تقيّ نقيّ لله ولي، ومن الشيطان بريء. وقال: المؤمن شريف ظريف لطيف لا لعّان ولا نمّام ولا مغتاب ولا قتات ولا حسود ولا حقود ولا بخيل ولا مختال، يطلب من الخيرات أعلاها، ومن الأخلاق أسناها، إن سلك مع أهل الآخرة كان أورعهم، غضيض الطرف سخي الكف، لا يرد سائلاً ولا يبخل بنائل، متواصل الأحزان، مترادف الإحسان، يزن كلامه ويحرس لسانه ويحسن عمله ويكثر في الحق أمله، متأسّف على ما فاته من تضييع أوقاته كأنّه ناظر إلى ربّه، مراقب لما خلق له لا يرد الحق على عدوّه ويبطل الباطل من صديقه، كثير المعونة قليل المؤونة، يعطف على أخيه عند عسرته لما مضى من قديم صحبته، فهذه صفات المؤمنين الخالصين الموحّدين لرب العالمين.

وكان رجل من عباد الله الصالحين الموحّدين يصحب إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى

عنه فقال له: علّمني اسم الله الأعظم الّذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى فقال: قل هذه الكلمات صباحاً ومساءً فإنّه ما دعا بهنّ خائف إلاّ أمن ولا سائل إلاّ أعطاه الله مسألته وهي هذه الكلمات: يا من له وجه لا يبلى ونور لا يطفأ واسم لا ينسى وباب لا يغلق وستر لا يهتك وملك لا يفنى، أسألك وأتوسل إليك بجاه محمد ﷺ أن تقضي حاجتي وتعطيني مسألتي.

وقال بعض العلماء: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى هو لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين، اللّهمّ إنّي أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله الأحد اللّهمّ إنّي أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلاّ أنت الحنّان المنّان بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيّوم. وسئل الإمام النووي رحمه الله تعالى عن اسم الله الأعظم ما هو وفي أي سورة هو؟ فأجاب رضي الله عنه فيه أحاديث كثيرة ففي «**سنن ابن ماجه**» وغيره عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «في ثلاث سور: في البقرة وآل عمران وطه». قال بعض الأئمة المتقدّمين: هو الحيّ القيّوم لأنّه في البقرة في آية الكرسي وفي أوّل آل عمران وفي طه، في قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]. وهذا استنباط حسن والله أعلم.

وقد ثبت في «**صحيح مسلم**» رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: «**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**» قيل: يا رسول الله ما الاستعجال، قال: «**يقول قد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء**».

فائدة: فيمن يستجاب دعاؤهم قطعاً المضطر، والمظلوم مطلقاً ولو كان فاجراً أو كافراً أو الوالد على ولده والإمام العادل والرجل الصالح والولد البار بوالديه، والمسافر حتى يرجع والصائم حتى يفطر والمسلم للمسلم ما لم يدع بظلم أو قطيعة رحم أو يقل: دعوت فلم أجب.

ومن الفوائد المجرّبة: العظيمة البركة الكثيرة الخير لقضاء الحوائج وتفريج الهمّ والغمّ، وهي من الأسرار المخزونة المكنونة، كما قاله شيخنا اليافعي أن تقرأ بعد صلاة العشاء على طهارة كاملة في جلسة واحدة اسمه تعالى لطيف ستة عشر ألف مرّة وستمائة مرّة وإحدى وأربعين مرّة، والحذر ثم الحذر من الزيادة والنقص فإنّه يبطل السر، والحيلة في معرفة ضبط ذلك أن تأخذ سبّحة عدّتها 129 مرة فتقرأ الاسم عليها 129 فيحصل المقصود وهذه أقرب الطرق المستقيمة لمعرفتها، فإنّ عدة حروفه أربعة وهي ل ط ي ف جملتها 129، فاضربها في مثلها فتكون جملتها ستة عشر ألفاً وستمائة وإحدى وأربعين، وتسمّي حاجتك فإنّها تقضى إن شاء الله تعالى لا محالة. وفي كل مائة وتسع وعشرين مرّة تقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103] وهذه للدعاء على الظالم.

ومنها لجلب الخير والرزق والبركة، تقول عقب كل صلاة مائة ثم تقول: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19]، ومنها لدفع كيد الظلمة ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. [الأنعام: 103]. والدعاء بعد تمام قراءة الاسم المبارك، وسّع عليّ رزقي، اللّهم عطّف عليّ خلقك، كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن ذل السؤال لغيرك برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

قال سيدنا الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: كن متمسكاً بهذه الصفات الحميدة تفز بسعادة الدارين: لا تتخذ من الكافرين ولياً ولا من المؤمنين عدواً، وارتحل بزادك من التقوى في الدنيا، وعد نفسك من الموتى، واشهد لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وحسبك عمل صالح وإن قلّ، وقل آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله، ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. فمن كان متمسكاً بهذه الصفات الحميدة ضمن الله عزّ وجلّ له أربعة في الدنيا: الصدق في القول، والإخلاص في العمل، والرزق كالمطر، والوقاية من الشر، وأربعة في الآخرة: المغفرة العظمى، والقربة الزلفى، ودخول جنّة المأوى، واللحوق بالدرجة العليا، وإن أردت الصدق في القول فداوم على قراءة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، وإن أردت الرزق كالمطر فداوم على قراءة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وإن أردت السلامة من شر النّاس فداوم على قراءة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وإن أردت جلب الخير والرزق والبركة فداوم على قراءة «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم الملك الحق المبين هو نعم المولى ونعم النصير»وقراءة سورة «الواقعة» وسورة «يّس» فإنّه يأتيك الرزق كالمطر، وإن أردت أن يجعل الله لك من كل همّ فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ويرزقك من حيث لا تحتسب فالزم الاستغفار، وإن أردت أن تأمن ممّا يروعك ويفزعك فقل: أعوذ بكلمات الله التّامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشيطان وأن يحضرون.

وإن أردت أن تعرف أي وقت تفتح فيه أبواب السماء ويستجاب الدعاء فاشهد وقت نداء المنادي فأجبه، ففي الحديث: «**من نزل به كرب أو شدّة فليجب المنادي**»، والمنادي هو المؤذّن، وإن أردت أن تسلم من أمر يكربك فقل: توكّلت على الحيّ الّذي لا يموت أبداً والحمد لله الّذي لم يتخّذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذل، وكبّره تكبيراً، ففي الحديث: «**ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال: يا محمد قل توكّلت على الحيّ الّذي لا يموت أبداً، وقل الحمد لله الّذي لم يتخّذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبّره تكبيراً**».

وإن أردت أن تنجو من هم أو غمّ أو خوف يصيبك فقل: «**اللّهم إنّي عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن**

تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همّي وغمّي»، فيذهب عنك همّك وغمّك وحزنك، وإن أردت أن يداويك الله من تسعة وتسعين داء أيسرها اللمم[1] فقل ما ورد في الحديث: «**لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم**» فإنّها دواء ممّا ذكر، وإن أردت أن تؤجر بما يصيبك من مصيبة فقل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللّهم عندك احتسبت مصيبتي فأجرني فيها وأبدلني خيراً منها ومنه حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله وعلى الله توكلنا، وإن أردت أن يذهب همّك ويقضى دينك فقل إذا أصبحت وإذا أمسيت: «**اللّهم إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»، وإن أردت أن توفق للخشوع فاترك فضول النظر، وإن أردت أن توفق للحكمة فاترك فضول الكلام، وإن أردت أن توفق لحلاوة العبادة فاترك فضول الطعام وعليك بالصوم وقيام الليل والتهجد فيه، وإن أردت أن توفق للهيبة فاترك المزح والضحك فإنّهما يسقطان الهيبة، وإن أردت أن توفق للمحبّة فاترك فضول الرغبة في الدنيا، وإن أردت أن توفق لإصلاح عيب نفسك فاترك التجسس عن عيوب النّاس، فإنّ التجسس من شعب النفاق كما أنّ حسن الظن من شعب الإيمان، وإن أردت أن توفق للخشية فاترك التوهّم في كيفية ذات الله تعالى تسلم من الشك والنفاق، وإن أردت أن توفق للسلامة من كل سوء فاترك الظن السيىء بكل الناس، وإن أردت العزلة فاترك الاعتقاد في النّاس وتوكّل على الله، وإن أردت أن لا يموت قلبك فقل كل يوم أربعين مرّة: يا حيّ يا قيّوم لا إله إلاّ أنت، وإن أردت أن ترى النبيّ ﷺ يوم القيامة يوم الحسرة والندامة فأكثر من قراءة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، وإن أردت أن ينور وجهك فداوم على قيام الليل، وإن أردت السلام من عطش يوم القيامة فلازم الصوم، وإن أردت أن تسلم من عذاب القبر فاحترز من النجاسات واترك أكل المحرّمات وارفض الشهوات، وإن أردت أن تكون غنياً فلازم القناعة، وإن أردت أن تكون خير النّاس فكن نافعاً للناس، وإن أردت أن تكون أعبد الناس فكن متمسكاً بقوله ﷺ: «**من يأخذ عنّي هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن**»؟ قال أبو هريرة: قلت أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي وعدّ خمساً قال: «**اتقّ المحارم تكن أعبد النّاس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإنّ كثرة الضحك تميت القلب**»، وإن أردت أن تكون من المحسنين الخالصين فاعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، وإن أردت أن يكمل إيمانك فحسن خلقك، وإن أردت أن يحبك الله فاقض حوائج إخوانك المسلمين، ففي الحديث: «**إذا أحبّ الله عبداً صير حوائج النّاس إليه**»، وإن أردت أن تكون من المطيعين فأدِّ

(١) اللمم: الجنون الخفيف.

ما فرض الله عليك، وإن أردت أن تلقى الله تعالى نقيّاً من الذنوب فاغتسل من الجنابة ولازم غسل الجمعة تلق الله تعالى يوم القيامة وما عليك من ذنب، وإن أردت أن تحشر يوم القيامة في النّور الهادي وتسلم من الظلمات لا تظلم أحداً من خلق الله تعالى، وإن أردت أن تقل ذنوبك فالزم دوام الاستغفار، وإن أردت أن تكون أقوى النّاس فتوكل على الله، وإن أردت أن يوسع الله عليك بالرزق طموماً[1] كالمطر فلازم الدوام على الطهارة الكاملة، وإن أردت أن تكون آمناً من سخط الله فلا تغضب على أحد من خلق الله، وإن أردت أن يستجاب دعاؤك فاجتنب الحرام وأكل الربا وأكل السحت، وإن أردت أن لا يفضحك الله على رؤوس الخلائق فاحفظ فرجك ولسانك، وإن أردت أن يستر الله تعالى عليك عيبك فاستر على عيوب النّاس، فإنّ الله تعالى ستّار ويحب عباده الستارين، وإن أردت أن تمحى خطاياك فأكثر من الاستغفار والخشوع والخضوع والحسنات في الخلوات، وإن أردت الحسنات العظام فعليك بحسن الخلق والتواضع والصبر على البلية، وإن أردت السلامة من السيئات العظام فاجتنب سوء الخلق والشحّ المطاع، وإن أردت أن يسكن عنك غضب الجبّار فعليك بإخفاء الصدقة وصلة الرحم، وإن أردت أن يقضي الله عنك الدَّيْن فقل ما قاله النبيّ ﷺ للأعرابي حين سأله وقال عليه الصلاة والسلام له: «**لو كان عليك مثل الجبال ديناً أداه الله عنك، قل: «اللَّهمّ اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك»**. وفي الحديث: «**لو كان على أحدكم جبل من ذهب ديناً فدعا الله لقضاه عنه وهو: اللَّهمّ فارج الكرب اللَّهمّ كاشف الهم اللَّهمّ مجيب دعوة المضطرين رحْمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أسألك أن ترحمني فارحمني رحمة تغنيني بها عمّن سواك**»، وإن أردت أن تنجو إذا وقعت في هلكة فالزم ما في الحديث: «**إذا وقعت في ورطة فقل: بسم الله الرّحْمن الرّحيم ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، فإنّ الله تعالى يصرف عنك ما شاء من أنواع البلاء**»، والورطة بفتح الواو وإسكان الراء الهلاك، وإن أردت أن تأمن من قوم خفت شرّهم فقل ما ورد في الحديث: «**اللَّهم إنّا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**»، ومنه: «**اللَّهم اكفناهم بما شئت إنّك على كل شيء قدير**»، وإن أردت أن تأمن إن خفت من سلطان فقل ما ورد في الحديث: «**لا إله إلاّ الله الحليم الكريم رب السّموات السبع ورب العرش العظيم، لا إله إلاّ أنت عز جارك وجل ثناؤك لا إله إلاّ أنت**» ويستحب أن يقول ما تقدّم: اللَّهم إنّا نجعلك في نحورهم إلى آخره، وفي الحديث: «**إذا أتيت سلطاناً مهاباً تخاف أن يسطو عليك فقل: الله أكبر الله أكبر الله أعز من خلقه جميعاً الله أعز ممّا أخاف وأحذر والحمد لله رب العالمين**»، وإن أردت ثبات القلب على الدين فقد أسند مرفوعاً أنّه كان من دعائه ﷺ: «**اللَّهمّ ثبّت قلبي على دينك**»، وفي رواية: «**يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك**».

(١) طموماً: كَثيراً.

فائدة: مجربة لمن دخل على سلطان يخاف شرّه فليقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99] ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 173 - 174]. وإن أردت كثرة الخير والرزق فداوم على قراءة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ وسورة الكافرون، وإن أردت الستر من النّاس فداوم على قول: اللّهمّ استرني بسترك الجميل الّذي سترت به نفسك فلا عين تراك، وإن أردت عدم الجوع والعطش فداوم على قراءة ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ إِۦلَٰفِهِمْ﴾، وقد جرّب ذلك مراراً وصحّ، وإن خفت على تجارتك أو مالك فاكتب سورة الشعراء وعلّقها في موضع تجارتك يكثر فيه البيع والشراء، ومن كتب سورة القصص وعلّقها على من يخاف عليه التلف فإنّها أمان له من ذلك وهو سر لطيف مجرب.

فائدة: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يتول قبض روحه إلا الله تعالى**». وعن أبي نعيم قال: سمعت معروفاً الكرخي يقول: لمّا اجتمعت اليهود على قتل عيسى عليه السلام أهبط الله تعالى جبريل عليه السلام مكتوباً في باطن جناحه: اللّهمّ إنّي أعوذ باسمك الأحد الأعز وأدعوك اللّهم باسمك الكبير المتعال الّذي ملأ الأركان كلها أن تكشف عنّي ضرّ ما أمسيت وأصبحت فيه، فقال ذلك عيسى، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام أن ارفع عبدي إلي.

فائدة: ممّا جرب للصداع فصح ما روي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنّه قال: وجد في بعض دور بني أميّة درج من فضّة وعليه قفل من ذهب مكتوب على ظهره: شفاء من كل داء، وفي داخله مكتوب هذه الكلمات: بسم الله الرّحمن الرّحيم باسم الله وبالله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم اسكن أيّها الوجع سكنتك بالّذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه إن الله بالنّاس لرؤوف رحيم بسم الله الرّحمن الرّحيم باسم الله وبالله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم اسكن أيها الوجع سكنتك بالّذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنّه كان حليماً غفوراً. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه فما احتجت معه إلى طبيب قط بإذن الله تعالى فإنّه هو الشافي.

وممّا جرّب للصداع أيضاً أن يكتب على ورقة بيضاء وتلصق على المحل الّذي فيه الصداع فإنّه يزول بإذن الله تعالى وهو صحيح مجرّب د م هـ م ل هـ.

ووُجد أيضاً في ذخائر بني أميّة ترس مربع من ذهب وعليه أزرار من الزمرد الأخضر مملوء بالمسك والكافور والعنبر الخام، وكان من جعله على رأسه أزال عنه الصداع ألبتة في الوقت والساعة ففتقوا الترس فوجدوا في باطن أزراره بطاقة مكتوباً فيها: بسم الله الرّحمن

الرّحيم، ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البقرة: 178]، بسم الله الرّحمن الرّحيم، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: 28]، بسم الله الرّحمن الرّحيم، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186]، بسم الله الرّحمن الرّحيم، ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ [الفرقان: 45]، بسم الله الرّحمن الرّحيم، ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13].

وممّا جرّب للصداع أيضاً أن تكتب هذه الأحرف على لوح خشب أو مكان طاهر وتدق في الحرف الأوّل مسماراً وتقرأ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ [الفرقان: 45]، وتدق دقاً خفيفاً فإن سكن الصداع فبالغ عليه بالدق إلى قرصه، وإن لم يسكن فانقل المسمار من حرف إلى حرف إلى أن يسكن الصداع فلا بدّ أن يسكن في حرف منها كما جرب ذلك مراراً وهي هذه ا ح ا ك ك ح ع ح ا م ح. والسواد موضع وضع المسمار ويجمعها قولك:

إنّي حملت إليك كل كريمة حوراء عن حظ المتيّم ما حنت
فأوائل الكلمات منها مقصدي لصداع رأسٍ يا فتى قد جربت

ثم قال (أي ابن بختيشوع): ومما ذكر من الخواص وشهدت به التجربة ما قاله الحكيم جالينوس: إذا أخذت شعر ابن آدم وأحرقته وخلطته بماء الورد ووضعته المرأة على رأسها عند الطلق، تسهل عليها الولادة، وإن طليت البرص والبهق بمني ابن آدم أبرأه، وإذا حططته في البيت اجتمعت عليه البراغيث، وبصاق ابن آدم سم الحيّات فإنّك إن بصقت في فم الحيّة ثلاث مرّات تموت من ساعتها، وإذا أوقدت سراجاً من دهن ابن آدم في ليلة ذات رياح سكنت الرياح، وشعر المرأة بطوله إذا طرح في ماء البحر بحيث لا يخرج منه صار حيّة مائية، وإذا اكتحل الإنسان بلبن النساء مع سكر طبرزذ ينفع لبياض العين، والطفل الأزرق العينين إذا رضع من لبن الجارية الحبشيّة أربعين يوماً اسودّت عيناه، وإذا أخذ بول الصبي وخلط برماد حطب الكرم وحطّ على القرحة نفعها، وإذا علّقت المرأة عليها سن الطفل الّذي وقع في أول سنة لا تحبل. قال جالينوس ويحيى بن ماويشه: مرارة ابن آدم سم قاتل، ومن اكتحل بمرارة ابن آدم نفعته من بياض العين.

وقال ابن ماويشه: سرة الطفل أوّل ما تقطع إذا علّقتها المرأة على يدها وبها ألم سكن، وإذا أخذ عظم ابن آدم وأحرق وسحق وخلط معه صبر ونفخ في الأنف الّذي فيه الباسور أبرأه بإذن الله تعالى، وإذا أخذت الحبات الّتي تخرج من بطن ابن آدم وجففت وسحقت ناعماً واكتحل بها من في عينه بياض ذهب، وإذا أخذ رجيع ابن آدم يابساً وسحق ونخل وعجن بالخل وعسل النّحل وطلى به على الأكلة برئت بإذن الله تعالى، وكذلك إذا طليت به الخوانيق الّتي في الحلق برئت، وشعر ابن آدم إذا علّق على من يشتكي الشقيقة سكنت، وإذا بل الشعر

بالخل ووضع على عضة الكلب برئت، ودم ابن آدم إذا أخذ وعجن بدقيق الحلبة وبماء السذاب وطلي به كل قرحة تكون في البدن برئت لوقتها ألبتّة، لاسيّما الّتي تكون في الساقين والقروح الرطبة الّتي يسيل منها الدم والقيح، وإذا أخذ دم الحيض من جارية بكر أو ثيب وخلط معه خمر عتيق واكتحل به من في عينه بياض أبرأه، وخرقة الحيض إذا علّقت على مؤخرة السفينة لا يدخلها ريح ولا زوبعة، وإذا أصاب المرأة وجع السرّة تأخذ خرقة الحيض فتحرقها حتى تصير رماداً ثم تأخذ من ذلك الرماد جزءاً ومن الكزبرة جزءاً ويدق الجميع بماء فاتر ويطلى به ما حول السرّة تبرأ بإذن الله تعالى، وكذلك إذا أصابها عند النفاس فإنّه يسكن بذلك بإذن الله تعالى. ورجيع الطفل عند الولادة يجفف ويسحق ويكتحل به من في عينه بياض فإنّه يذهب بإذن الله تعالى، وإذا أخذت قلفة الصبيان وهي طهارتهم وجففت وسحقت وخلط معها شيء من المسك وماء الورد وسقي من ذلك صاحب البرص والجذام وقف عنه بإذن الله تعالى، وإذا أحرقت وسحقت وسقيت لمن غلب عليه البرص ذهب عنه بإذن الله تعالى، ويؤخذ من رجيع ابن آدم مقدار حمصة ويسحق ويذاب بماء فاتر ويسقى لصاحب القولنج يبرأ بإذن الله تعالى، وإذا سحق وديف بالخل كان أبلغ، وإذا أخذ رجيع ابن آدم أوّل ما يخرج وهو حار ويخلط بخمر عتيق ويسقى للدابة المريضة تبرأ بإذن الله تعالى، وإذا غسلت وسخ رجل ابن آدم ويديه بالماء وأسقيته لمن شئت فإنّه يحبّك محبة شديدة ولا يكاد يطيق فراقك، وهو سر عجيب مجرّب، ومثله إذا أردت أن يحبّك إنسان حبّاً شديداً فاغسل جيب قميصك واسقه ماءه وهو لا يعلم، فإنّه يحبّك حبّاً شديداً، وإن أردت أن تجمع الحمام في البرج فخذ رأس ابن آدم وهو ميت قد مضى عليه من السنين مدّة وادفنه في ذلك البرج، فإنّ الحمام يعمره ويجتمع إليه من كل مكان حتى يضيق به، وإذا أصاب إنساناً اللقوة والفالج يسعط بلبن جارية سوداء أو حبشيّة مع شيء من دهن الزنبق فإنّه يبرأ بإذن الله تعالى، ومقدار السعوط منه وزن قيراط للرجل الكامل، وللطفل والصبي وزن حبّة ويخلط معه في بعض الأوقات أنزروت أبيض ويقطر في العين المحمرة تبرأ، وإذا أخذ الكاشم ودقّ ناعماً وديف ببول صبي لم يبلغ الحلم وسقي للدابة المعغولة برئت بإذن الله تعالى، وإذا أردت أن لا يقرب المرأة أحد غيرك فخذ ما تستخرجه من شعرها من تسريح أو غيره واحرقه حتى يصير رماداً ثم اجعل منه على رأس إحليلك عند الجماع معها، فلا أحد يجامعها بعد ذلك مثلك، ولا تقبل أحداً غيرك، وهو سر عجيب مجرّب، ويؤخذ من مني الرجل جزء ومن الزئبق جزء ويخلط الجميع ويسعط منه صاحب اللقوة ثلاثة أيّام متوالية يبرأ بإذن الله تعالى، وإذا أُخذ رجيع إنسان وأحرق وسحق ناعماً وخلط معه ملح أندراني وشيء من حزنبل[1] وخلط الجميع ونفخ في عين الدابة الّتي

(١) الحُزنبل: نبات مر الطعم.

فيها البياض برئت، وإذا أُخذ بول صبي قبل أن يبلغ الحلم وجعل في وعاء وترك على النّار حتى حمي وغمست صوفة في ذلك البول وطلي به على العين الّتي فيها ورم أو حمرة برئت، وإذا أخذ مني ابن آدم وهو حار وطلي به البرص غيّر لونه بقدرة الله تعالى، وإذا أخذ شيء من أبوال وجعل في قدر نحاس وطبخ حتى انعقد ثم جفف وخلط معه ملح الطعام وسحق وعجن بماء الزعفران وجعل في بودقة وأوقد عليه حتى يدور كما تدور الفضة فاجعله سبيكة وحكّه على السمن بالماء والمسك وكحل به العين الّتي غلب عليها البياض تبرأ بإذن الله تعالى ألبتة، وهو سرّ لطيف مجرّب. وكان الحكماء المتقدّمون يسمّونه الجوهر النفيس، ويؤخذ لبن جارية سوداء فيذاب فيه شيء من الزعفران وشيء من لعاب السفرجل ويقطر في العين التي بها الوجع والضربان والنقطة، فإنّها تبرأ بإذن الله تعالى، وإذا أردت أن تكون نهود الجارية قائمة لا تنكسر فخذ دم حيض الجارية من أوّل حيضها واطل به رؤوس النهدين فإنّهما لا ينكسران ولا يزالان قائمين، وهذا سر عجيب مجرّب، وإذا أخذ دم الحيض وهو حار طري ولطخ به العين يزول ما بها من الحمرة والنقطة والورم، وإن أردت أن تسمن المرأة فخذ شحم إوزة أنثى يدق ويخلط معه بورق كمون كرماني ودقيق الحلبة يمزج الجميع ويجعل مثل البنادق ويبلع ذلك لدجاجة سوداء سبعة أيّام متوالية ثم تذبح وتصلق[1] فكل من أكل من تلك الدجاجة أو من مرقتها يسمن حتى يكاد يغلب عليه الشحم من ذكر كان أو أنثى.

وإن أردت أبلغ من ذلك فخذ مرارة آدمي وخذ ما تيسّر من القمح وضع تلك المرارة عليه مع قليل من الماء واصبر على القمح حتى ينتفخ وبلّعه لدجاجة سوداء وافعل ما تقدّم ذكره فمن أكل من تلك الدجاجة رأى العجب العجاب من السمن والشحم حتى لا يستطيع القيام ذكراً أو أنثى، وهو سر لطيف مجرّب، وإذا أردت أن تقطع لبن المرأة فخذ حلبة واسحقها واعجنها بالماء واطل بها ثدي المرأة ينقطع اللبن ألبتّة بإذن الله تعالى، وإذا أردت أن يدر اللبن فخذ حنظلة ودقّها واعجنها بالزيت وحك صوفة زرقاء ولفّها على عود واغمسها في الزيت والحنظلة واطل بها رأس الثدي يدر اللبن بقدرة الله تعالى، وكلاهما صحيح مجرّب، ومتى صوّر صورة صبي حسن الوجه ونصب قبالة المرأة بحيث تراه وقت الجماع خرج الولد يشبه تلك الصورة في أكثر الأعضاء ألبتة. قال: وضرس الميت إذا علق على من به وجع الضرس سكن وجعه، وإذا أخذ ضرس إنسان وعظم جناح الهدهد الأيمن وجعلا تحت رأس النائم لم يزل كذلك حتى يؤخذا من تحت رأسه، وبصاق الإنسان ينفع من لدغ الهوام والقوباء والثآليل إذا طلي عليها قبل أن يأكل الإنسان شيئاً، ولبن النساء إذا شرب مع عسل فتّت الحصى من المثانة وبول الإنسان إذا وضع على عضة الكلْب الكلِب نفعها نفعاً بيناً وقال قوم: إنّ المكلوب إذا شرب من دم إنسان شريف برىء من ساعته.

(١) تصلق: تسلق

وأنشدوا على ذلك قول الشاعر:

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تبري من الكلب

وقلامة ظفر الإنسان إذا أحرقت وسقيت لإنسان آخر أحبّه ذلك الإنسان حبّاً شديداً، وشرب بول الإنسان ينفع من لسع جميع ذوات السموم، وإن طلي به بعد أن يغلى رجل صاحب النقرس سكن الوجع والضربان، وينفع من جميع القروح الحادثة في أصابع القدم والقروح الّتي فيها دود خصوصاً البول العتيق، وينفع من عضة الإنسان والقرد وجميع الحيوان السُّمّي. وإذا بال رجل على الجرح حين يجرح قطع الدم لساعته وأبرأه وهو صحيح مجرّب.

وعرق الإنسان إذا أخذ منه وعجن بغبار الرحا ووضع على الثدي الوارم نفعه وينفع من جمود اللبن في الضرع والثدي وتعقده بعد الولادة. ومني الإنسان إذا أخذ وهو يابس ومعه سذاب مدقوق وذر على الأكلة أبرأها ألبتة، وإن عجن بعسل وطلي به الحلق من خارج نفع الخناق، وإذا أخذ نجو صبي حين يولد وجفف وسحق وكحل به بياض العين نفع، وينفع من الغشاوة نفعاً جيداً، وإذا أخذ من نجو إنسان قدر حمصة وديف بخل خمر وسقي لصاحب القولنج وعسر البول نفعهما وهو إذا كان حاراً نفع الفرس الحمراء، وينفع من عضّة الإنسان من ساعته، ولعاب الصائم إذا قطر في الأذن أخرج الدود منها، وإن خلط مع الرازوند ووضع على البواسير أبرأها، وسرّة الصبي عندما تقطع إذا أخذ منها شيء ووضع تحت فص خاتم فإنّه ينفع لابسه من القولنج.

وقال ابن زهر: سن الصبي الذكر أوّل ولد من المرأة إن جعل تحت فص خاتم ذهب أو فضّة بحيث يكون فصّه منه لم يصب من لبسه من الرجال القولنج ألبتة، وإن بخّرت المرأة بشعر إنسان نفعها من جميع أوجاع الرحم، وإذا طلت المرأة بدنها بدم النفاس من أوّل ولدها منعها الحبل ما عاشت، وإن جعل سن الصبي أوّل ما يسقط قبل أن يصل الأرض تحت فصّ خاتم وعلق على امرأة منعها الحبل، وعرق النساء يطلى به الجرب يبرأ، وبول الصبي الّذي لم يبلغ عشرين سنة إذا شربه صاحب البرص برىء، وبول الإنسان مع رماد الكرم يوضع على موضع نزف الدم يقف، ورماد العيشوم ورماد الشونيز مع الزيت العتيق ينبت اللّحية، ودم الحيض إذا طلي به عضة الكلْب الكلِب تبرأ، وكذلك البهق والبرص.

وقال القزويني في «**عجائب المخلوقات**»: إذا رعف الإنسان فليكتب اسمه بدمه على خرقة وتجعل نصب عينيه فإنّه ينقطع رعافه، ونطفة الإنسان إذا طلي بها البهق والبرص والقوباء أبرأتها، وإذا خلط بها زهر الغبيراء وجفف وأسقاه إنسان لامرأة عشقته، ودم البكارة حين افتضاضها إذا طلي به الثدي لا يكبر.

قاعدة: قال الأطبّاء: إذا أردت أن تعلم هل المرأة عقيم أم لا فمرها أن تتحمل بثومة في

قطنة وتمكث سبع ساعات، فإن فاح من فمها رائحة الثوم فعالجها بالأدوية فإنّها تحمل بإذن الله تعالى، وإلا فلا. قال الرازي: وهي مجرّبة لذلك، والله أعلم.

التعبير: الإنسان في المنام كل شخص يعرف فهو ذاك بعينه ذكراً كان أو أنثى أو سميّه أو نظيره، والشاب المجهول عدوّ، والشيخ جد وسعادة، وربّما عبّر بالصديق فمن رأى شيخاً ضعيفاً أو صغير الصورة فذاك نقص في جد الإنسان وسعده، والكهل إذا لم ينق البياض أقوى لجد الإنسان وسعده، والصبي هم إذا كان طفلاً يحمل لقوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم: 27] والبالغ قوّة وبشارة لقوله تعالى ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يوسف: 19]، والصبي الحسن الصورة إذا دخل مدينة محاصرة أو كان بها طاعون أو قحط فرج عنهم، وكذلك إذا نزل من السماء أو خرج من الأرض فهو بشارة لكل ذي همّ، ويعبّر أيضاً بملك من الملائكة مثال ذلك أن يرى المريض أو يرى له كأنّ صبياً أمرد أخذه أو ضرب عنقه فإنّه ملك الموت، والشاب الأشقر عدوّ شحيح، والشاب التركي عدوّ لا أمان له، والشاب الضعيف عدوّ ضعيف، والشاب الأسمر عدوّ غني، والشاب الأبيض عدوّ دين، والمرأة في المنام دنيا، المجهولة أقوى من المعروفة وحسنها أحسن شيء، وقبحها أقبح شي، والزانية زيادة في الخير والصلاح لقول النبيّ ﷺ: «**عرضت عليَّ الدنيا ليلة أسري بي في صورة امرأة حاسرة الذراعين**»، فقال لها: «**طلّقتك ثلاثاً**» أراد بها الدنيا، والمرأة السوداء تعبّر بليلة مظلمة، والبيضاء بالنهار، فمن رأى امرأة سوداء غابت عنه وظهرت له امرأة بيضاء فإنّ ذلك دليل الصباح وزوال الظلام، والمرأة الّتي تكون للسلطان أو هي سلطانة فإنّها تعبّر بملك ظالم معجب أو تكون بمنزلة العروس لأهله حرام لغير ذلك، والشابّة إذا رأتها المرأة فهي عدوّ لها إذا كانت مجهولة، والعجوز المجهولة لها جد وتعبّر المرأة بالسنة، فإن كانت سمينة فهي خصب، وإن كانت هزيلة فهي جدب، وإنّما شبّهت المرأة بالسنة لأنّها كالأرض، قال الله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، ولأنّها ذات نتاج، وكذلك الأرض، والمرأة المتنقبة عسر لمن رآها، والمكشوفة الوجه دنيا ليس فيها تعب، والنساء زينة الدنيا فمن أقبلن عليه أقبلت عليه الدنيا ومن أدبرن عنه أدبرت عنه الدنيا، والإنسان القبيح الصورة أمر مكروه، والأسود سوء، والخصي المجهول يعبّر بملك من الملائكة لانتزاع الشهوة منه، فمن رأى أنّه خصي أو كأنّه خصي ناله ذلّ وخضوع. وقالت النصارى: من رأى نفسه خصياً نال منزلة في العبادة وعفّة الفرج، ومن رأى بيده رأس إنسان فإنّه ينال ألف دينار أو ألف درهم أو مائة درهم، والرؤوس المقطعة في المنام رؤساء النّاس، فمن أخذ شيئاً من لحمها أو شعرها نال مالاً من قوم رؤساء، ومن رأى رأسه كبيراً حسناً نال رئاسة، ومن قطع رأسه وكان مملوكاً عتق أو مهموماً فرّج الله همّه، أو مريضاً شفي، فإن كان ممن يخدم فارق خدمه، ومن رأى رأسه يرضخ بحجر فإنّه قد نام عن صلاة العشاء، ومن رأى رأسه رأس كلب أو فرس أو جمل أو حمار أو بغل أو غير ذلك

من البهائم الّتي تنالها مشقّة التعب والعمل نال تعباً لأنّ هذه الحيوانات خلقت للكلف والتعب، وإن رأى رأسه رأس طير كثر سفره، ومن رأى رأسه بيده وكان له رأس آخر فإنّ ذلك يدل على تدبير الأمور الرديئة وإصلاحها، وأكل الرأس من الحيوان مال لم يكن يرجوه، وطول حياة إذا كان غير نيّء، والرأس يعبّر بالرئيس والسيد والأب، ويعبّر أيضاً برأس المال، فما رئي فيه من زيادة أو نقص أو وجع فهو عائد إلى ما ذكرناه، ومن رأى رأسه تحوّل رأس أسد فإنّه ينال ملكاً إن كان من أهله ورئاسة أو ولاية أو وجاهة، ومن رأى أنّه يأكل لحم إنسان فإنّه يغتابه، ومن أكل لحم نفسه فإنّه يُغْتَاب؛ وقيل: أكل اللحم النيء خسارة في المال، واللحوم في الرؤيا أموال إذا كانت مطبوخة ناضجة، وإذا أكلت المرأة لحم امرأة فإنّها تساحقها، وإن أكلت لحم نفسها فإنّها تزني، وأكل لحم البقر الهزيل مرض، وانسب كل لحم إلى حيوانه، فلحم الحيّة مال من عدوّ فإن كان نيّئاً فهو غيبة، ولحم السبع مال من سلطان، وكذلك لحوم السباع الضواري وجوارح الطّير ولحم الخنزير مال حرام، والله تعالى أعلم.

إنسان الماء: يشبه الإنسان إلاّ أنّ له ذنباً. قال القزويني وقد جاء شخص بواحد منها في زماننا مقدّر كما ذكرنا، وقيل إنّ في بحر الشام في بعض الأوقات من شكله شكل إنسان وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر فإذا رآه الناس استبشروا بالخصب. وحكي أن بعض الملوك حمل إليه إنسان ماء، فأراد الملك أن يعرف حاله فزوّجه امرأة فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقال للولد: ما يقول أبوك؟ قال: يقول أذناب الحيوان كلها في أسفلها، فما بال هؤلاء أذنابهم في وجوههم؟ وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الباء الموحدة في بنات الماء قريب من هذا.

الحكم: سئل الليث بن سعد رضي الله عنه عن أكله فقال: لا يؤكل على شيء من الحالات، والله تعالى أعلم.

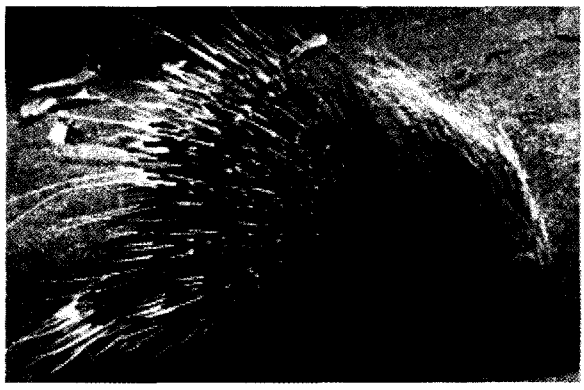

الأنقد: بالنون الساكنة وفتح القاف وبالدال المهملة: القنفذ.

الأمثال: يقال بات فلان بليل أنقد لأنّه لا ينام الليل كله. وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب القاف في القنفذ. قال الميداني: أنقد معرفة لا تدخله الألف واللام يضرب لمن سهر ليله أجمع، قال وقيل: الأنقد الّذي يشتكي سنّه من النقد وهو فساد في الأضراس يحركها وصاحبه لا ينام.

فائدة: ومما جرّب لوجع الضرس أن يكتب ويحمل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78 - 79]، محوصه سمه ولها ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم جهكرطكفوم طسم طس طسم حم حم حم حم حم حم اسكن أيها الوجع بالّذي سكن له ما في الليل والنهار وهو السميع العليم اليقس تقس قسا مسقس ان البهر بهرهرا وراب.

ويكتب لوجع الضرس أيضاً على جدار هذه الأحرف وهي ح ب ر ص لا ع م لا وتأمر الموجوع أن يضع أصبعه على الضرس الضارب ويكون ذلك في حال ضربانه، وتضع مسماراً على أول حرف من الحروف المتقدّمة وتدق عليه دقاً خفيفاً، وأنت تقرأ: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: 45] ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13] في حالتي الدقّ والكتابة، فإذا علق رأس المسمار يسيراً سله: هل سكن الوجع؟ فإن قال: نعم فبلغ المسمار بالدق إلى قرصه، وإن قال: لا فانقل المسمار إلى الحرف الثاني وافعل ما تقدّم ذكره ولا تزال تنقله حرفاً حرفاً إلى آخر الحروف، ففي أي حرف سكن الوجع فبلغ المسمار فيه بالدق إلى قرصه فإنّه لا بد أن يسكن في حرف منها كما جرّب مراراً، وما دام المسمار مدقوقاً دام الوجع ساكناً فإذا قلع المسمار عاد الوجع، والنقط الحمر في الحروف موضع وضع المسمار وهو سر عجيب مجرّب صحيح، وقد نظم ذلك بعض الفضلاء في أبيات وهي:

وللضرس فاكتب في الجدار مفرقاً ... بما جمعه حبر صلاء وعملا
ومره على الموجوع يجعل إصبعاً ... وضع أنت مسماراً على الحرف أوّلا
ودق خفيفاً ثم سله ترى به ... سكوناً نعم إن قال بلغه موصلا
وإن قال لا فانقله ثاني حروفه ... وفي كل حرف مثل ما قلت فافعلا
وفي سورة الفرقان تقرأ ساكناً ... كذا آية الأنعام فاتل مرتلا
وتترك ذا المسمار في الحيط مثبتاً ... مدى الدهر فالأسقام تذهب والبلا
فخذها أخي كنزاً لديك مجرباً ... ذخيرة أهل الفضل من خيرة الملا

وقد أحسن الأمير أسامة بن منقذ حيث قال ملغزاً في ضرسه وقد قلعه:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته ... يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت ... عيني عليه افترقنا فرقة الأبد

وله أيضاً في الصبر:

اصبر إذا ناب خطب وانتظر فرجاً ... يأتي به الله بعد الريب والياس
إن اصطبار ابنة العنقود إذ حبست ... في ظلمة القار أداها إلى الكاس

وله أيضاً فيه:

من يرزق الصبر نال بغيته ولاحظته السعود في الفلك
إن اصطبار الزجاج حين بدا للسبك أدناه من فم الملك

الأنكليس: بفتح الهمزة واللام وكسرهما معاً: سمك شبيه بالحيّات رديء الغذاء وهو الّذي يسمّى الجري الآتي في باب الجيم إن شاء الله تعالى، ويسمّى المارماهي وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الصاد في لفظ الصيد.

فإنّ البخاري ذكره في «**صحيحه**»، وفي حديث علي رضي الله تعالى عنه أنّه بعث عمّاراً إلى السوق فقال: لا تأكلوا الأنكليس من السمك. وإنّما كرهه لما تقدّم لا لأنّه حرام وفيه لغتان: الأنكليس والأنقليس بفتح الهمزة واللام ومنهم من يكسرهما. قال الزمخشري: وقيل إنّه الشلق. وقال ابن سيده: هو على هيئة السمك صغير له رجلان عند ذنبه كرجلي الضفدع، ولا يد له، يكون في أنهار البصرة، ليس لفظه عربياً.

الأُنُن: بضم الهمزة وبالنونين: طائر يضرب إلى السواد وله طوق كطوق الدبسي أحمر الرجلين والمنقار مثل الحمامة إلاّ أنّه أسود وصوته أنين أوه أوه حكاه في «**المحكم**».

الأنيس: وتسميه الرماة الأنيسة، طائر حاد البصر يشبه صوته صوت الجمل ومأواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار، وله لون حسن، وتدبير في معاشه. قال أرسطو: إنّه يتولّد من الشرقراق والغراب وذلك بيّن في لونه وهو طائر يحب الإنس ويقبل الأدب والتربية. وفي صفيره وقرقرته أعاجيب، وذلك أنّه ربّما أفصح بالأصوات كالقمري، وربّما أبهم كحمحمة الفرس، وغذاؤه الفاكهة واللحم وغير ذلك، ويألف الغياض.

الحكم: يحل أكله لأنّه من الطيّبات وينبغي أن يخرج فيه وجه بالحرمة لأكله اللحم ولسبب تولّده من الغراب والشرقراق.

الأنوق: على فعول الرخمة أو طائر أسود له شيء كالعرف أو أصلع الرأس أصفر المنقار، قيل: إنّ في أخلاقها أربع خصال: تحضن بيضها وتحمي فرخها وتألف ولدها ولا تمكن من نفسها غير زوجها. وفي المثل: أعز من بيض الأنوق وأبعد من بيض الأنوق، فلا يكاد يظفر به لأنّ أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة، وهي تحمق مع ذلك، قال الشاعر:

وذات اسمين والألوان شتى وتحمَّق وهي كيمة الحويل

وقال غيره:

وكنت إذا استودعت سراً كتمته كبيض أنوق لا ينال لها وكر

وقال رجل لمعاوية زوّجني هنداً يعني أمّه، فقال: إنّها قعدت عن الولد فلا حاجة لها إلى الزواج، قال: فولى ناحية كذا فأنشد معاوية رضي الله عنه:

طلب الأبلق العقوق فلمّا أعجزته أراد بيض الأنوق

ومعناه أنّه طلب ما لا يكون فلمّا لم يجده طلب ما يطمع في الوصول إليه وهو مع ذلك بعيد، كذا قاله جماعة ممن تكلّم على الأمثال وهو غلط لأنّ أمّ معاوية ماتت في المحرم سنة أربع عشرة في اليوم الّذي مات فيه أبو قحافة والد أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما، والصواب الّذي في «**نهاية ابن الأثير**». وغيرها أنّ رجلاً قال لمعاوية رضي الله عنه: افرض لي، قال: نعم، قال: ولولدي، قال: لا، قال: ولعشيرتي، قال: لا، ثم تمثّل معاوية رضي الله عنه بقول الشاعر: طلب الأبلق العقوق، إلى آخره، والعقوق الحامل من النوق، والأبلق من صفات الذكور، والذكر لا يحمل فكأنّه قال: طلب الذكر الحامل وبيض الأنوق، مثل يضرب للّذي يطلب المحال الممتنع.

وقال السهيلي في «**أوائل الروض**»: الأنوق: الأنثى من الرخم يقال في المثل: أراد بيض الأنوق إذا طلب ما لا يوجد لأنّها تبيض حيث لا يدرك بيضها في شواهق الجبال. وهذا قول المبرد في «**الكامل**»، ولم يوافق عليه. فقد قال الخليل: الأنوق الذكر من الرخم وهذا أشبه بالمعنى لأنّ الذكر لا يبيض، فمن أراد بيض الأنوق فقد أراد المحال كمن أراد الأبلق العقوق، وقال القالي في «**الأمالي**»: الأنوق يقع على الذكر والأنثى من الرخم، وحكم الأنوق يأتي إن شاء الله تعالى في باب الراء في الرخمة.

تتمة: السهيلي اسمه عبد الرّحمن بن محمد السهيلي الخثعمي الإمام المشهور. قال أبو الخطاب بن دحية: أنشدني السهيلي أبياتاً وقال: ما سأل الله تعالى بها أحد حاجة إلا قضاها، وفي رواية: إلاّ أعطاه الله إيّاها وكذلك من استعمل إنشادها وهي:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن امنن فإنّ الخير عندك أجمع
مالي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع
مالي سوى قرعي لبابك حيلة فلئن رددت فأي باب أقرع
ومن الّذي أدعو وأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً فالفضل أجزل والمواهب أوسع

وكان المهيلي مكفوف البصر، توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعالى والله الموفق للصواب.

الإوَزُّ: بكسر الهمزة وفتح الواو، البط واحدته إوزة وجمعوه بالواو والنون فقالوا: إوزون. وقد أجاد في وصفها أبو نوّاس حيث قال:

كأنّما يصفرن من ملاعق
صرصرة الأقلام في المهارق

وأبو نواس شاعر ماهر وهو من شعراء الدولة العباسية وله أخبار عجيبة ونكت غريبة وخمريات أبدع فيها، واسمه الحسن بن هانىء بن عبد الأوّل. قال ابن خلكان في ترجمة أبي نواس: قال المأمون، ولو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس:

ألا كل حي هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريقِ
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدوّ في ثياب صديقِ

قال: ومن أحسن ما أتى به من المعاني وأغربها ويدلّ على حسن ظنّه بالله تعالى قوله:

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنّك بالغ ربّاً غفورا
ستبصر إن وردت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيرا
تعض ندامة كفيك ممّا تركت مخافة النّار الشرورا

قال محمد بن نافع: رأيت أبا نواس في المنام بعد موته، فقلت: يا أبا نواس قال: لات حين كنية فقلت: الحسن بن هانىء قال: نعم، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قلتها في علّتي قبل موتي هي تحت الوسادة، قال: فأتيت أهله فقلت: هل قال أخي شعراً قبل موته؟ قالوا: لا نعلم إلاّ أنّه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما هو، قال: فدخلت ورفعت وسادته فإذا أنا برقعة مكتوب فيها:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأنّ عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الّذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلاّ الرجا وجميل عفوك ثم إنّي مسلم

قال: وسئل أبو نواس عن نسبه فقال: أغناني أدبي عن نسبي. وتوفي سنة أربع وتسعين

ومائة. والإوز يحب السباحة، وفرخه يخرج من البيضة فيسبح في الحال، وإذا حضنت الأنثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها طرفة عين، وتخرج أفراخها في أواخر الشهر.

روى أحمد في «**المناقب**» عن الحسين بن كثير عن أبيه وكان قد أدرك علياً ﷺ قال: خرج علي بن أبي طالب ﷺ إلى صلاة الفجر، فإذا إوز يصحن في وجهه فطردوهن، فقال: دعوهن فإنّهن نوائح، فضربه ابن ملجم فقلت: يا أمير المؤمنين خل بيننا وبين مراد فلا تقوم لهم ثاغية[1] ولا راغية[2] أبداً، فقال: لا ولكن احبسوا الرجل فإن أنا مت فاقتلوه وإن أعش فالجروح قصاص، انتهى.

وسبب ذلك على ما ذكره ابن خلكان وغيره أنّه اجتمع قوم من الخوارج فتذاكروا أصحاب النهروان وترحّموا عليهم وقالوا: ما نصنع بالبقاء بعدهم؟ فتحالف عبد الرّحمٰن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي على أن يأتي كل واحد منهم واحداً من علي ومعاوية وعمرو بن العاص ﷺ، فقال ابن ملجم وهو أشقى الآخرين: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال ابن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، ثم سمّوا سيوفهم وتواعدوا لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان. فدخل ابن ملجم الكوفة فرأى امرأة حسناء يقال لها قطام كان علي بن أبي طالب ﷺ قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان، فخطبها فقالت: لا أتزوّجك حتى أشترط، قال: وما شرطك؟ قالت: ثلاثة آلاف وعبد ووصيفة وقتل علي، فقال لها: وكيف لي بقتل علي؟ فقالت: تروم ذلك غيلة فإن سلمت أرحت النّاس من شرّه وأقمت مع أهلك، وإن أصبت خرجت إلى الجنّة ونعيم لا يزول، فأنعم لها وقال: ما جئت إلاّ لقتله. ثم أقبل ابن ملجم حتى جلس مقابل السدّة الّتي يخرج منها علي ﷺ إلى الصلاة، فلمّا خرج لصلاة الفجر ضربه ابن ملجم على صلعته، فقال ﷺ: فزت وربّ الكعبة، شأنكم بالرجل فخذوه، فحُمل ابن ملجم على النّاس بسيفه فأفرجوا له وتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة، فرمى بها عليه واحتمله فضرب به الأرض وجلس على صدره، قالوا: وأقام علي ﷺ يومين ومات، وقتل الحسن بن علي عبد الرّحمٰن بن ملجم، فاجتمع النّاس وأحرقوا جثّته، وأمّا البرك فإنّه ضرب معاوية فأصاب أوراكه، وكان معاوية عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك، فلمّا أخذ قال: الأمان والبشارة فقد قتل علي في هذه الليلة فاستبقاه حتى جاءه الخبر بذلك فقطع معاوية يده ورجله وأطلقه، فرحل إلى البصرة وأقام بها حتى بلغ زياد بن أبيه أنّه ولد له فقال: أيولد له وأمير المؤمنين لا يولد له؟ فقتله، قالوا: وأمر معاوية باتخاذ المقصورة من ذلك الوقت، وأمّا ابن

(١) الثاغية: الشاة.
(٢) الراغية: الناقة.

بكر فإنّه رصد عمرو بن العاص رضي الله عنه فاشتكى عمرو بطنه فلم يخرج للصلاة، فصلّى بالنّاس رجل من بني سهم يقال له خارجة، فضربه ابن بكر فقتله فأُخذ ابن بكر، فلمّا أُدخل على عمرو رضي الله عنه ورآهم يخاطبونه بالإمارة قال: أو ما قتلت عمرواً؟ قال له: لا، وإنّما قتلت خارجة، قال: أردت عمرواً وأراد الله خارجة، فقتله عمرو رضي الله عنه، وقيل: أنّ علياً رضي الله عنه كان إذا رأى ابن ملجم يتمثّل ببيت عمرو بن معد يكرب بن قيس بن مكشوح المرادي وهو قوله:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

فقيل لعلي رضي الله عنه: كأنّك عرفته وعرفت ما يريد أفلا تقتله؟ قال: كيف أقتل قاتلي؟ ولمّا انتهى إلى عائشة رضي الله عنها قتل علي رضي الله عنه قالت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وعلي رضي الله عنه أوّل إمام خفي قبره قيل: إنّ علياً رضي الله عنه أوصى أن يخفى قبره لعلمه أنّ الأمر يصير إلى بني أميّة فلم يأمن أن يمثلوا بقبره. وقد اختلف في قبره فقيل: في زاوية الجامع بالكوفة؛ وقيل: في قصر الإمارة بها؛ وقيل: بالبقيع وهو بعيد؛ وقيل: إنّه بالنجف في المشهد الّذي يزار اليوم، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ذكره ابن خلكان في ذلك في باب الفاء في لفظ الفهد. والله الموفّق.

فائدة أجنبية: ولمّا كان الحديث ذا شجون. وإفادة العلم تحقق للطالبين ما يرجون، وتجدّد لهم ما ينسي الخليع أيّام المجون، أحببت أن أذكر ههنا فائدة غريبة ذكرها المؤرّخون، وهو أنّ كلّ سادس قائم بأمر الأمّة مخلوع وها أنا أذكر ما ذكروه وأزيد عليه قدراً يسيراً من سيرة كل واحد منهم وأيّامه وسبب موته ومدّة خلافته وعمره لتكمل بذلك الفائدة وتحصل الجدوى والعائدة.

قال المؤرّخون: إنّ أوّل قائم بأمر الأمّة النبيّ صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى على فترة من الرسل رحمة للعالمين فبلغ الرسالة، وجاهد في الله حق جهاده، ونصح الأمّة، وعبد ربّه حتى أتاه اليقين، فهو أفضل الخلق وأشرف الرسل، نبيّ الرحمة، وإمام المتّقين، وحامل لواء الحمد، وصاحب الشفاعة والمقام المحمود والحوض المورود، آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو خير الأنبياء، وأمّته خير الأمم، وأصحابه أفضل النّاس بعد الأنبياء، وملّته أشرف الملل، له المعجزات الباهرة والخلق العظيم، والعقل الكامل الجسيم، والنسب الأشرف والجمال المطلق، والكرم الأوفر، والشجاعة التّامة، والحلم الزائد، والعلم النّافع، والعمل الأرفع، والخوف الأكمل، والتقوى الباهرة، فهو أفصح الخلق وأكملهم في كل صفات الكمال، وأبعد الخلق عن الدناءات والنقائص، وفيه قال الشاعر:

لم يخلق الرّحمٰن مثل محمّد أبداً وعلمي أنّه لا يخلق

قالت عائشة رضي الله عنها : كان النبيّ ﷺ إذا كان في بيته في مهنة أهله أي في خدمتهم، وكان يفلي ثوبه ويرقعه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه ويقم البيت أي يكنسه، ويعقل البعير ويأكل مع الخادم، ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق، وكان عليه الصلاة والسلام متواصل الأحزان دائم الفكر ليست له راحة، وقد قال علي رضي الله عنه : سألت رسول الله ﷺ عن سنّته، فقال: «**المعرفة رأس مالي، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضاء غنيمتي، والفقر فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة**». وأمّا حلمه ﷺ وجوده وشجاعته وحياؤه وحسن عشرته ورأفته ورحمته وبرّه وعدله ووقاره وصبره وهيبته وثقته وبقية خصاله الحميدة الّتي لا تكاد تحصر فكثيرة جداً.

فقد صنّف العلماء رحمهم الله في سيرته وأيّامه ومبعثه وغزواته وأخلاقه ومعجزاته ومحاسنه وشمائله كتباً جمّة، ولو أردنا ذكر قدر يسير منها لجاء في مجلّدات كثيرة، ولسنا بصدد ذلك في هذا الكتاب. قالوا: وكانت وفاته ﷺ بعد أن أكمل الله تعالى لنا ديننا وأتمّ علينا نعمته في وسط الإثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة، وله ﷺ ثلاث وستّون سنة، وتولّى غسله علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ودفن ﷺ في حجرته الّتي بناها لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

خلافة (أبي بكر الصدّيق) رضي الله عنه

ثم قام بالأمر بعده ﷺ خليفته على الصلاة أيّام مرضه وابن عمّه الأعلى ونسيبه وصهره ومؤنسه في الغار ووزيره وصديقه الأكبر، وخير الخلق بعده أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه . بويع له بالخلافة في اليوم الّذي توفي فيه رسول الله ﷺ بسقيفة بني ساعدة، ولذلك قصّة تركناها لطولها واشتهارها. فقام بالأمر أتم قيام، وفتح في دولته اليسيرة اليمامة وأطراف العراق وبعض مدن الشام.

وكان رضي الله عنه كبير الشأن زاهداً خاشعاً إماماً حليماً وقوراً شجاعاً صابراً رؤوفاً عديم النظير في الصحابة رضي الله عنهم. ولمّا مات النبيّ ﷺ ارتدت العرب ومنعت الزكاة، فلمّا استخلف الصّدّيق جمع الصحابة رضي الله عنهم وشاورهم في القتال فاختلفوا عليه وقال له عمر رضي الله عنه : كيف تقاتل النّاس، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله، فمن قالها فقد عصم منّي دمه وماله إلاّ بحقه وحسابه على الله عز وجل**»؟ فقال الصدّيق رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإنّ الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدّونها رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنّه الحق. وفي رواية قال عمر رضي الله عنه : فقلت: تآلف النّاس وارفق بهم، فقال لي: أجبّارٌ في الجاهليّة وخوار في الإسلام يا عمر؟ إنّه قد انقطع الوحي وتمّ الدّين أينقص وأنا حيّ؟ ثم خرج لقتالهم.

وذكر جماعة من المؤرّخين وغيرهم أنّ رسول الله ﷺ كان قد وجّه أُسامة بن زيد ﷺ في سبعمائة بطل إلى الشام، فلمّا نزل بذي خشب قبض رسول الله ﷺ وارتدت العرب، فاجتمعت الصحابة ﷺ وقالوا للصدّيق ﷺ : رد هؤلاء، أي أسامة ومن معه فقال: والله الّذي لا إله إلاّ هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبيّ ﷺ ما رددت جيشاً جهّزه رسول الله ﷺ ولا حللت عقد لواء عقده رسول الله ﷺ. وفي رواية: لو علمت أنّ السباع تجر برجلي إن لم أردّه ما رددته، وأمر أسامة ﷺ أن يمضي لوجهه، وقال له: إن رأيت أن تأذن لعمر ﷺ بالمقام عندي أستأنس به وأستعين برأيه، فقال له أسامة ﷺ : قد فعلت، وسار أسامة ﷺ فجعل لا يمر بقبيلة تريد الارتداد إلاّ قالوا: لولا أنّ لهؤلاء قوّة ما خرج مثل هذا الجيش من عندهم، فلقوا الرّوم فقاتلوهم وهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين.

وعن عائشة ﷺ قالت: خرج أبي يوم الردّة شاهراً سيفه راكباً راحلته فجاء علي ﷺ حتى أخذ بزمام راحلته وقال: أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أُحد: شم سيفك لا تفجعنا بنفسك فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً، ومعنى شم: اغمد. وقال ابن قتيبة: ارتدت العرب إلاّ القليل منهم فجاهدهم الصدّيق حتى استقاموا، وفتح اليمامة، وقتل مسيلمة الكذّاب بها والأسود العنسي الكذّاب بصنعاء، وبعث الجيوش إلى الشام والعراق، وقال أبو رجاء العطاردي: دخلت المدينة فرأيت النّاس مجتمعين ورأيت رجلاً يقبّل رأس رجل ويقول: أنا فداؤك والله لولا أنت لهلكنا، فقلت: من المقبِّل، والمقبَّل فقالوا: عمر يقبّل رأس أبي بكر ﷺ من أجل قتال أهل الردّة، وقالت عائشة ﷺ : لمّا قبض رسول الله ﷺ ارتدّت العرب واشرأبّ النفاق ونزل بأبي ما لو نزل على الجبال الراسيات لهاضها. وقال أبو هريرة ﷺ : والله الّذي لا إله إلاّ هو لو لم يستخلف أبو بكر ﷺ عبد الله تعالى ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة، قالوا: وكان من اللين والتواضع على جانب عظيم، ولمّا مرض ترك التطبيب تسليماً لأمر الله تعالى فعاده الصحابة ﷺ ، وقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ فقال: نظر إلي، قالوا: وما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعّال لما أريد.

توفي ﷺ ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وله ﷺ ثلاث وستون سنة، وكان سبب موته كمداً لحقه على رسول الله ﷺ ما زال يذيبه. والكمد: الحزن المكتوم. ودفن في حجرة عائشة أم المؤمنين مع سيدنا رسول الله ﷺ. وكانت خلافته ﷺ سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيّام.

خلافة (عمر الفاروق) ﷺ

ثم قام بالأمر بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، بويع له بالخلافة في اليوم الّذي مات فيه أبو بكر ﷺ بوصية من أبي بكر إليه ﷺ ، فقام بعده بمثل سيرته وجهاده وثباته

وصبره على العيش الخشن وخبز الشعير والثوب الخام المرقّع والقناعة باليسير، وفتح الفتوحات الكبار والأقاليم الشاسعة، وهو أوّل من سمّي بأمير المؤمنين، وهو من المهاجرين الأوّلين صلّى إلى القِبلتين وشهد بدراً وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، ولمّا أسلم رضي الله عنه أعزّ الله به الإسلام. وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض وبشّره بالجنّة. ومناقبه رضي الله عنه كثيرة جداً وحسبك أنّه كان وزير سيدنا محمد ﷺ وعاش حميداً. وتوفي فقيراً سعيداً شهيداً فما يبغضه إلاّ زنديق أو حمار مفرط الجهل. وهو أوّل من عسّ في عمله رضي الله عنه أي كان يمشي ليلاً لحفظ الدين والنّاس.

وهابه النّاس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس بالأفنية، فلمّا بلغه رضي الله عنه هيبة النّاس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر رضي الله عنه يضع قدميه فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وصلّى على النبيّ ﷺ، ثم قال: بلغني أنّ النّاس قد هابوا شدّتي وخافوا غلظتي وقالوا: قد كان عمر يشتدّ علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر رضي الله عنه والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه، ولعمري من قال ذلك فقد صدق، كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عزّ وجلّ وهو عنّي راض والحمد لله وأنا أسعد النّاس بذلك، ثم ولي أمر النّاس أبو بكر رضي الله عنه فكنت خادمه وعونه أخلط شدّتي بلينه فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني، فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو عنّي راض، والحمد لله وأنا أسعد النّاس بذلك، ثم إنّي وليت أموركم اعلموا أنّ تلك الشدّة قد تضاعفت ولكنّها إنّما تكون على أهل الظلم والتعدّي على المسلمين، وأمّا أهل السلامة والدّين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويتعدّى عليه حتى أضع خدّه على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق، ولكم عليّ أيّها النّاس أن لا أخبأ عنكم شيئاً من خراجكم، وإذا وقع عندي أن لا يخرج إلا بحقه ولكم علي أن لا ألقيكم في المهالك وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

قال سعيد بن المسيب: وفّى والله عمر، وزاد في الشدّة في مواضعها واللين في مواضعه. وكان رضي الله عنه أبا العيال حتى كان يمشي إلى المغيبات ـ أي اللاتي غاب عنهنّ أزواجهنّ ـ ويقول: ألكنّ حاجة حتى أشتري لكن فإنّي أكره أن تخدعن في البيع والشراء، فيرسلن بجواريهن معه فيدخل في السوق ووراءه من جواري النساء وغلمانهن ما لا يحصى، فيشتري لهن حوائجهنّ، ومن كان ليس عندها شيء اشترى لها من عنده رضي الله عنه.

وروي أن طلحة رضي الله عنه خرج في ليلة مظلمة فرأى عمر رضي الله عنه وقد دخل بيتاً ثم خرج. فلمّا أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة، فقال لها طلحة: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ فقالت: إنّه يتعاهدني منذ كذا وكذا بما يصلحني ويخرج عنّي الأذى تعني

القذر، ولمّا رجع ﷺ من الشام إلى المدينة انفرد عن النّاس ليتعرّف أخبار رعيته، فمر بعجوز في خبائها فقصدها فقالت: يا هذا ما فعل عمر؟ قال: قد أقبل من الشام سالماً، فقالت: لا جزاه الله خيراً، قال: ولم؟ قالت: لأنّه والله ما نالني من عطائه منذ ولي أمر المؤمنين دينار ولا درهم، فقال: وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع؟ فقالت: سبحان الله والله ما ظننت أنّ أحداً يلي على النّاس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها، فبكى عمر ﷺ وقال: وا عمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر، ثم قال لها: يا أمة الله بكم تبيعني ظلامتك من عمر فإني أرحمه من النّار؟ فقالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله، فقال: لست بهزاء، فلم يزل بها حتى اشترى منها ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً، فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب وابن مسعود فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت: واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين في وجهه، فقال لها عمر ﷺ: لا بأس عليك رحمك الله، ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها: بسم الله الرّحمن الرّحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولّي إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً فما تدّعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى، فعمر منه بريء شهد على ذلك علي بن أبي طالب وابن مسعود ﷺ. ثم دفع الكتاب إلى ولده وقال: إذا أنا مت فاجعله في كفني ألقى به ربّي.

وأخباره ﷺ في مثل هذا كثيرة جداً. وذكر الفضائلي أنّ عمر ﷺ كتب إلى سعد بن أبي وقّاص ﷺ وهو بالقادسية بأن يوجّه نضلة الأنصاري ﷺ إلى حلوان العراق ليغير على ضواحيها، فبعث سعد نضلة في ثلاثمائة فارس، فساروا حتى أتوا حلوان العراق، فأغاروا على ضواحيها فأصابوا غنيمة وسبياً فأقبلوا بذلك حتى أرهقهم العصر وكادت الشمس تغرب، فألجأ نضلة السبي والغنيمة إلى سفح جبل ثم قام فأذّن فقال: الله أكبر الله أكبر فأجابه مجيب من الجبل: كبّرت كبيراً يا نضلة فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، فقال: كلمة الإخلاص يا نضلة، ثم قال: أشهد أنّ محمداً رسول الله، فقال: هو الّذي بشرنا به عيسى ابن مريم عليه السلام وعلى رأس أمّته تقوم الساعة، ثم قال: حيّ على الصلاة، فقال: طوبى لمن سعى إليها وواظب عليها، ثم قال: حيّ على الفلاح، فقال: قد أفلح من أجاب داعي الله ثم قال: الله أكبر الله أكبر لا إله إلاّ الله، قال: أخلصت الإخلاص كلّه يا نضلة، حرّم الله بها جسدك على النّار، فلمّا فرغ من أذانه قام فقال: من أنت يرحمك الله أملك أنت أم من الجن أم طائف من عباد الله قد أسمعتنا صوتك فأرنا شخصك، فإنّ الوفد وفد رسول الله ﷺ ووفد عمر بن الخطاب ﷺ. فانفلق الجبل عن هامة كالرحا أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف، فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا رزين بن برثملا وصي العبد الصالح عيسى ابن مريم عليه السلام أسكنني في هذا الجبل ودعا لي بطول البقاء إلى حين نزوله من السماء، فأقرئوا عمر منّي السلام وقولوا له: يا عمر سدد وقارب فقد دنا

الأمر وأخبروه بهذه الخصال الّتي أخبركم بها، يا عمر إذا ظهرت هذه الخصال في أمّة محمد ﷺ فالهرب الهرب إذا استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وانتسبوا إلى غير مناسبهم وانتموا إلى غير مواليهم ولم يرحم كبيرهم صغيرهم ولم يوقر صغيرهم كبيرهم وترك الأمر بالمعروف فلم يؤمر به وترك النهي عن المنكر فلم ينه عنه وتعلم عالمهم العلم ليجلب به الدنيا وكان المطر قيظاً والولد غيظاً وطولوا المنارات وفضضوا المصاحف وزخرفوا المساجد وأظهروا الرشا وشيدوا البناء واتّبعوا الهوى وباعوا الدين بالدنيا وقطعت الأرحام ومنعت الأحكام وأكلوا الرّبا وحاز الغني عزّاً والفقير ذلاً، وخرج الرجل من بيته فقام إليه من هو خير منه فسلّم عليه وركبت الفروج السروج، ثم غاب عنهم فلم يروه فكتب نضلة إلى سعد بذلك فكتب سعد بذلك إلى عمر ﷺ أجمعين فكتب إليه عمر ﷺ : سر أنت بنفسك ومن معك من المهاجرين والأنصار حتى تنزلوا بهذا الجبل فإن لقيته فأقرئه منّي السلام فخرج سعد ﷺ في أربعة آلاف فارس من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى نزلوا بذلك الجبل، ومكث سعد ﷺ أربعين يوماً ينادي بالصلاة فلا يجد جواباً ولا يسمع خطاباً، فكتب بذلك إلى عمر ﷺ .

وعمر ﷺ أوّل من أرّخ التاريخ وذلك في سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحاً، وفيها نزل سعد بن أبي وقّاص ﷺ الكوفة ومصرها، وهو أوّل من دوّن الدواوين ومصّر الأمصار وحقّق كلمته في إعلاء كلمة الله تعالى، ففتح الله تعالى على يديه مواضع عديدة، ففتح ﷺ دمشق ثم الرّوم ثم القادسية ثم انتهى الفتح إلى حمص وحلوان والرقة والرها وحرّان ورأس العين وخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل، وبيت المقدس وبيسان واليرموك والأهواز وقيسارية ومصر وتستر ونهاوند والري وما يليها، وأصبهان وبلاد فارس وإصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغير ذلك.

وكانت درّته أهيب من سيف الحجّاج، وهابه ملوك فارس والرّوم وغيرهم، ومع ذلك كله بقي على حاله كما كان قبل الولاية في لباسه وزيّه وأفعاله وتواضعه يسير منفرداً في حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب، لم تغيره الإمرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحداً في الحق، وكان لا يطمع الشريف في حيفه ولا ييأس الضعيف من عدله ولا يخاف في الله لومة لائم. ونزل نفسه ﷺ من مال الله تعالى منزلة رجل من المسلمين وجعل فرضه كفرض رجل من المهاجرين، وكان يقول: أنا في مالكم كولي مال اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، أراد بذلك أنّه يأكل ما تقوم به بنيته ولا يتعدّاه.

وقال مجاهد: تذاكر النّاس في مجلس ابن عباس ﷺ فأخذوا في فضل أبي بكر ثم في فضل عمر ﷺ، فلمّا سمع ابن عباس ذكر عمر ﷺ بكى بكاءً شديداً حتى أغمي عليه، ثم قال: رحم الله عمر، قرأ القرآن وعمل بما فيه فأقام حدود الله كما أمر لا تأخذه في الله لومة

لائم، لقد رأيت عمر رضي الله عنه وقد أقام الحد على ولده فقتله فيه، وستأتي الإشارة إلى ذلك في باب الدّال المهملة في لفظ الديك.

وقتل رضي الله عنه في سنة ثلاث وعشرين، قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة واسمه فيروز، وكان المغيرة رضي الله عنه يستغله كل يوم أربعة دراهم لأنّه كان يصنع الأرحاء فلقي عمر يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إنّ المغيرة قد أثقل عليّ غلّتي فكلّمه لي ليخفّف عنّي، فقال له عمر رضي الله عنه: اتّق الله وأحسن إلى مولاك، فغضب أبو لؤلؤة وقال: يا عجباه قد وسع النّاس عدله غيري، وأضمر على قتله واصطنع له خنجراً له رأسان وسمّه وتحين به عمر رضي الله عنه، فجاء عمر إلى صلاة الغداة، قال عمرو بن ميمون: إنّي لقائم في الصلاة وما بيني وبين عمر إلاّ ابن عباس رضي الله عنهما، فما هو إلاّ أن كبر فسمعته يقول: قتلني الكلب حين طعنه، وطار العلج بسكّين كانت ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلاّ طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات سبعة، وقيل: تسعة، فلمّا رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً فلمّا علم أنّه مأخوذ نحر نفسه، فقال عمر رضي الله عنه: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً، ثم قال: الحمد لله الّذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدّعي الإسلام، وكان أبو لؤلؤة مجوسياً، ويقال: كان نصرانياً.

توفّي في ذي الحجة لأربع عشرة ليلة مضت منه في السنة المذكورة بعد طعنه بيوم وليلة عن ثلاث وستّين سنة، ودفن مع صاحبه في الحجرة النبوية، ولمّا توفي عمر رضي الله عنه أظلمت الأرض، فجعل الصبي يقول: يا أمّاه أقامت القيامة؟ فتقول: لا يا بنيّ ولكن قتل عمر رضي الله عنه. وسيأتي طرف من هذا وذكر الشورى في لفظ الدّيك أيضاً. قال ابن إسحٰق: وكانت خلافته رضي الله عنه عشر سنين وستّة أشهر وخمس ليال، وقال غيره: وثلاثة عشر يوماً، والله أعلم.

خلافة أمير المؤمنين (عثمان بن عفّان) رضي الله عنه

ثم قام بعده بالأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله عنه فشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيّام واتّفقوا على مبايعته وهو ابن عم المصطفى صلى الله عليه وسلم الأعلى، بويع له بالخلافة في أوّل يوم من سنة أربع وعشرين. قال أهل التاريخ: إنّه لم يزل اسمه في الجاهلية والإسلام عثمان ويكنى أبا عمرو وأبا عبد الله والأوّل أشهر وينسب إلى أميّة بن عبد شمس، فيقال الأموي. يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف ويدعى بذي النورين، قيل: لأنّه تزوّج بابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيّة وأمّ كلثوم رضي الله عنهما ولم يعلم أحد تزوج بابنتي نبيّ غيره رضي الله عنه؛ وقيل: لأنّه إذا دخل الجنّة برقت له برقتين؛ وقيل: لأنّه كان يختم القرآن في الوتر، والقرآن نور وقيام الليل نور؛ وقيل: غير ذلك، وهو رضي الله عنه من السابقين الأوّلين، وصلّى إلى القِبلتين، وهاجر الهجرتين وهو أوّل من هاجر إلى الحبشة فاراً بدينه ومعه زوجته رقيّة رضي الله عنها، وعد من البدريين ومن أهل بيعة الرضوان ولم يحضرهما، وكان سبب غيبته عن بدر أن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحته وهي

مريضة فأذن له رسول الله ﷺ في الجلوس عندها ليمرضها، وقال له: «**لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه**».

وأمّا غيبته عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعزّ منه ببطن مكّة لبعثه رسول الله ﷺ مكانه وأنّ رسول الله ﷺ قال بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**». وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض وبشّره بالجنّة، ودعا له بالخصوصية غير مرّة، فأثرى وكثر ماله، وكانت له شفقة ورأفة، فلمّا ولي زاد تواضعه وشفقته ورأفته برعيّته، وكان يطعم النّاس طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت، وجهّز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً بأحلاسها وأقتابها وأتم الألف بخمسين فرساً، وقال قتادة: حمل عثمان رضي الله عنه على ألف بعير وسبعين فرساً، وقال الزهري: حمل على تسعمائة وأربعين بعيراً وستين فرساً.

وعن حذيفة بن اليمان قال: بعث رسول الله ﷺ إلى عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار فصبت بين يديه فجعل ﷺ يقلبها بيده ويقول: «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة**». وفي رواية: ما يضر عثمان ما فعل بعد اليوم. واشترى بئر رومة بخمسة وثلاثين ألفاً وسبلها وله رضي الله عنه من الخيرات وأفعال البرّ ما يطول ذكره.

قال ابن قتيبة: وافتتح في أيّامه الإسكندرية وسابور وإفريقية وقبرص وسواحل الرّوم وإصطخر الأخرى، وفارس الأولى، وخوزستان وفارس الأخرى، وطبرستان وكرمان وسجستان والأساورة وإفريقية من حصون قبرص وساحل الأردن ومرو، ولمّا عمرت المدينة وصارت وافرة الأنام وقبّة الإسلام وكثرت فيها الخيرات والأموال وجبي إليها الخراج من الممالك وبطرت الرعيّة من كثرة الأموال والخيل والنعم، وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنّوا وتفرّغوا، أخذوا ينقمون على خليفتهم عثمان رضي الله عنه لأنّه كان له أموال عظيمة. وكان له ألف مملوك، ولكونه يعطي المال لأقاربه ويولّيهم الولايات الجليلة فتكلّموا فيه إلى أن قالوا: هذا لا يصلح للخلافة وهمّوا بعزله وثاروا لمحاصرته، وجرت أمور يطول ذكرها، فحاصروه في داره أيّاماً وكانوا أهل جفاء ورؤوس شر، فوثب عليه ثلاثة فذبحوه في بيته والمصحف بين يديه. وهو شيخ كبير، وكان ذلك أوّل وهن وبلاء على هذه الأمّة بعد نبيّهم ﷺ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، قتلوه قاتلهم الله يوم الجمعة الثامن عشر من ذي الحجة الحرام سنة خمس وثلاثين.

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة جداً، شهد له رسول الله ﷺ بالجنّة وقال: «**ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة**»، وأخبر ﷺ بأنّه شهيد، وأنّه يبتلى.

وتفرقت الكلمة بعد قتله رضي الله عنه، وماج النّاس واقتتلوا للأخذ بثأره حتى قتل من المسلمين تسعون ألفاً.

وقال ابن خلكان وغيره: لمّا بويع عثمان رضي الله عنه نفى أبا ذر الغفاري رضي الله عنه إلى الربذة لأنّه كان يزهد النّاس في الدنيا. وردّ الحكم بن أبي العاص وكان قد نفاه رسول الله ﷺ إلى الربذة ولم يرده أبو بكر ولا عمر، فردّه عثمان رضي الله عنهم، قيل: إنّما ردّه بإذن من النبيّ ﷺ، قاله غير واحد، وولّى مصر عبد الله بن أبي سرح. وأعطى أقاربه الأموال فكان ذلك ممّا نقم عليه النّاس. فلمّا كانت سنة خمس وثلاثين قدم المدينة مالك الأشتر النخعي في مائتي رجل من أهل الكوفة ومائة وخمسين من أهل البصرة وستّمائة من أهل مصر، كلّهم مجمعون على خلع عثمان رضي الله عنه من الخلافة، فلمّا اجتمعوا في المدينة سير إليهم عثمان رضي الله عنه المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما يدعوهم إلى كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ فردوهما أقبح رد، ولم يسمعوا كلامهما، فبعث إليهما علياً رضي الله عنه فردّهم إلى ذلك وضمن لهم ما يعدهم به عثمان رضي الله عنه، وكتبوا على عثمان كتاباً بإزاحة عللهم والسير فيهم بكتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه ﷺ. وأخذوا عليه عهداً بذلك وأشهدوا على علي رضي الله عنه أنّه ضمن ذلك، واقترح المصريون على عثمان رضي الله عنه عزل عبد الله بن أبي سرح وتولية محمد بن أبي بكر، فأجابهم إلى ذلك وولاّه، وافترق الجمع كل إلى بلده، فلمّا وصل المصريون إلى إيلة وجدوا رجلاً على نجيب لعثمان رضي الله عنه ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان مصطنع على لسانه وعنوانه «من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح وفيه: إذا قدم محمد بن أبي بكر ومعه فلان وفلان فاقطع أيديهم وأرجلهم وارفعهم على جذوع النخل، فرجع المصريون ورجع البصريون والكوفيون لمّا بلغهم ذلك وأخبروه الخبر، فحلف عثمان رضي الله عنه أنّه ما فعل ذلك ولا أمر به، فقالوا: هذا أشد عليك يؤخذ خاتمك ونجيب من إبلك وأنت لا تعلم؟ ما أنت إلاّ مغلوب على أمرك، ثم سألوه أن يعتزل فأبى، فأجمعوا على حصاره، فحاصروه في داره وكان من أكبر المؤلبين عليه محمّد بن أبي بكر وكان الحصار في سلخ شوّال، واشتد الحصار ومنع من أن يصل إليه الماء.

قال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: كنّا مع عثمان وهو محصور في الدّار فقال: وبم يقتلوني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل دم امرىء إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفساً بغير حق، فيقتل بها**» فوالله ما أحببت بديني بدلاً منذ هداني الله تعالى، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت نفساً بغير حق، فبم يقتلوني؟ رواه الإمام أحمد.

وعن شدّاد بن أوس رضي الله عنه أنّه قال: لمّا اشتدّ الحصار بعثمان رضي الله عنه يوم الدّار، رأيت علياً رضي الله عنه خارجاً من منزله معتمّاً بعمامة رسول الله ﷺ متقلّداً بسيفه وأمامه ابنه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم فحملوا على النّاس وفرقوهم ثم دخلوا على عثمان رضي الله عنه فقال له علي رضي الله عنه: السلام عليك يا أمير المؤمنين، إنّ رسول الله ﷺ لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر، وإنّي والله لا أرى القوم إلاّ قاتليك فمرنا فلنقاتل، فقال

عثمان: أنشد الله رجلاً رأى لله عزّ وجل عليه حقاً وأقر أنّ لي عليه حقّاً أن يهريق بسببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فِيَّ، فأعاد عليٍّ عليه القول، فأجابه بمثل ما أجابه، قال: فرأيت علياً ﷺ خارجاً من الباب وهو يقول: اللّهمّ إنّك تعلم أنّا قد بذلنا المجهود، ثم دخل المسجد فاقتحموا على عثمان ﷺ الدّار والمصحف بين يديه، فأخذ محمد بن أبي بكر بلحيته فقال له عثمان ﷺ: أرسل لحيتي يا بن أخي فوالله لو رأى أبوك مقامك هذا لساءه، فأرسل لحيته وولّى فضربه بتار بن عياض وسودان بن حمران بسيفيهما، فنضح الدّم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 137]، وجلس عمرو بن الحمق على صدره وضربه حتى مات، ووطىء عمير بن صابىء على بطنه فكسر له ضلعين من أضلاعه.

وروى الإمام أحمد عن كعب بن عجرة ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة وعظمها وقربها، ثم مرّ رجل مقنع في ملحفة فقال: «**هذا يومئذٍ على الحق**»، فإذا هو عثمان ﷺ. وروى الترمذي معناه، فقال: «**هذا يومئذٍ على الهدى**». وقال إنّه حديث حسن صحيح. وكان لأمير المؤمنين عثمان ﷺ شيئان ليس لأبي بكر ولا لعمر ﷺ: صبره على نفسه حتى قتل مظلوماً، وجمعه النّاس على المصحف، قاله ابن مهدي وغيره.

وقال المدائني: قتل ﷺ يوم الأربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر؛ وقيل: يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين. وقال المهدوي: قتل في وسط أيّام التشريق وأقام ثلاثة أيّام لم يدفن ولم يصلّ عليه؛ وقيل: صلّى عليه ﷺ جبير بن مطعم، ودفن ﷺ ليلاً، واختلف في مدّة الحصار؛ فقيل: أكثر من عشرين يوماً؛ وقيل: تسعة وأربعون يوماً، قاله الواقدي، وقال الزبير بن بكار وغيره: ثمانون يوماً. وكانت خلافته ﷺ اثنتي عشرة سنة إلاّ اثني عشر يوماً، وقتل ﷺ وهو ابن ثمانين سنة، قاله ابن إسحٰق، وقال غيره: كانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً، وقتل ﷺ وعمره ثمان وثمانون سنة؛ وقيل: كانت خلافته اثنتي عشرة سنة وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة؛ وقيل: ابن ثلاث وثمانين سنة؛ وقيل: تسعين؛ وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

خلافة أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) ﷺ

ثم قام بعده بالأمر أمير المؤمنين علي ﷺ، بويع له بالخلافة يوم قتل عثمان ﷺ كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وهو ﷺ يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد المطّلب الجد الأدنى، وينسب إلى هاشم فيقال: القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ لأبويه، ولم يزل اسمه في الجاهليّة والإسلام علياً، ويكنى أبا الحسن وأبا تراب كناه به رسول الله ﷺ، وكان أحب الكنى إليه. أسلم ﷺ وهو ابن سبع؛ وقيل: ابن تسع؛ وقيل: ابن عشر؛ وقيل: خمس عشرة؛ وقيل: غير ذلك.

وشهد ﷺ المشاهد كلّها إلاّ تبوك فإنّه ﷺ خلفه في أهله، وكان ﷺ غزير العلم. ولمّا هاجر رسول الله ﷺ أقام بعده ثلاث ليال وأيّامها حتى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع، ثم لحق به، ويقال: إنّه ﷺ أوّل من أسلم وأوّل من صلّى. وزوّجه ﷺ ابنته فاطمة ﷺ ا، وبعث معها خميلة ووسادة من أدم حشوها ليف ورحيين وسقاء وجرّتين، وشهد له بالجنّة ﷺ.

ومناقبه ﷺ كثيرة جدّاً ويكفي منها قوله ﷺ: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**».

فائدة لطيفة: قال أبو هريرة ﷺ: سادات الأنبياء خمسة: نوح وإبراهيم الخليل وموسى وعيسى ومحمد صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين.

ذكر أسماء من وُلد من الأنبياء مختوناً:

عن كعب الأحبار ﷺ أنّه قال: هم ثلاثة عشر: آدم وشيث وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وشعيب وسليمان ويحيى وعيسى ومحمد صلّى الله وسلّم عليه وعليهم أجمعين. وقال محمد بن حبيب الهاشمي: هم أربعة عشر آدم وشيث ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ويوسف وموسى وسليمان وزكريا وعيسى وحنظلة بن صفوان نبي أصحاب الرس ومحمّد صلّى الله عليه وسلّم وعليهم أجمعين.

ذكر أسماء من كان يكتب، لرسول الله ﷺ:

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأُبيّ بن كعب وهو أوّل من كتب له وزيد بن ثابت الأنصاري ومعاوية بن أبي سفيان وحنظلة بن الربيع الأسدي وخالد بن سعيد بن العاص، وكان المداوم له على الكتابة: زيد أو معاوية.

ذكر من جمع القرآن حفظاً على عهد رسول الله ﷺ:

أُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو يزيد الأنصاري وأبو الدرداء وزيد بن ثابت وعثمان بن عفّان وتميم الدّاري وعبادة بن الصامت وأبو أيّوب الأنصاري.

ذكر من كان يضرب الأعناق بين يديه ﷺ: عليّ والزبير ومحمد بن مسلمة والمقداد وعاصم بن أبي الأفلح.

ذكر من كان يحرسه ﷺ:

سعد بن أبي وقّاص وسعد بن معاذ وعبّاد بن بشر وأبو أيّوب الأنصاري ومحمد بن مسلمة الأنصاري، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67] ترك الحراسة.

ذكر من كان يفتي على عهد رسول الله ﷺ من أصحابه:

أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرّحمٰن بن عوف وأُبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وعمّار بن ياسر وحذيفة وزيد بن ثابت وسلمان وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري.

ذكر من انتهت إليهم الفتوى من التّابعين بالمدينة: سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرّحمن بن الحارث وقاسم وعبيد الله وعروة وسليمان وخارجة.

ذكر من تكلّم في المهد:

وهم أربعة: صاحب جريج ببراءته من الزنا، وشاهد يوسف ببراءته من زليخا، وابن الماشطة الّتي لبنت فرعون حذرها من الكفر، وعيسى ابن مريم ببراءة أمّه عليه السلام.

وتكلّم بعد الموت أربعة: يحيى بن زكريا حين ذبح وحبيب النجّار حيث قال: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: 26] وجعفر الطيّار حيث قال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 169] الخ، والحسين بن علي رضي الله عنهما حيث قال: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227].

ذكر من حملته أمّه أكثر من مدّة الحمل:

سفيان بن حيان ولد لأربع سنين خلون في بطن أمّه، ومحمّد بن عبد الله بن حسن الضحّاك بن مزاحم ولد وهو ابن ستّة عشر شهراً خلون في بطن أمّه، ويحيى بن علي بن جابر البغوي كذلك، وسلمان الضحّاك ولد ابن سنتين خلتا في بطن أمّه.

ذكر النماردة:

وهم ستّة، فالأوّل: نمرود بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وهو أحد ملوك الأرض الّذين ملكوا الدّنيا بأجمعها، وقد كان في زمن إبراهيم الخليل عليه السلام، الثاني: نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، وهو صاحب النسور، وقصّته مشهورة. الثالث: نمرود بن ماش بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. الرابع: نمرود بن سنجار بن نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. الخامس: نمرود بن ساروع بن أرغو بن مالخ. السادس: نمرود بن كنعان بن المصاص بن نقطا.

ذكر الفراعنة:

وهم ثلاثة: فأوّلهم سنان الأشعل بن علوان بن العميد بن عمليق وهو فرعون إبراهيم عليه السلام. الثاني: الريّان بن الوليد وهو فرعون يوسف عليه السلام. الثالث: الوليد بن مصعب وهو فرعون موسى عليه السلام.

ذكر أصحاب المذاهب المتّبعة ووفاتهم من كتاب علوم الحديث للنووي رحمه الله:

سفيان الثوري، مات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، ومولده سنة سبع وعشرين. مالك بن أنس بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة، وولد سنة تسعين. وأبو حنيفة النعمان بن ثابت، مات ببغداد سنة خمسين ومائة، وهو ابن سبعين سنة. وأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي مات بمصر آخر رجب سنة أربع ومائتين، وولد سنة خمسين ومائة، وأبو عبد الله أحمد بن حنبل، مات ببغداد في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائة. رحمهم الله أجمعين.

ذكر أصحاب الأحاديث المعتمدة:

أبو عبد الله البخاري، ولد يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من شوّال سنة أربع وتسعين ومائة، ومات ليلة الفطر سنة ست وخمسين ومائتين. ومسلم، مات بنيسابور لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين وهو ابن خمس وخمسين. وأبو داود، مات بالبصرة في شوّال سنة خمس وسبعين ومائتين. وأبو عيسى الترمذي، مات بترمذ لثلاث عشرة مضت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين. وأبو عبد الرّحْمن النسائي، مات سنة ثلاث وثلاثمائة. وأبو الحسن الدارقطني، مات ببغداد في ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلثمائة، وولد في سنة ست وثلاثمائة. رحمة الله عليهم أجمعين.

قال أهل التاريخ: ولمّا قتل عثمان رضي الله عنه أتى النّاس علياً وضربوا عليه الباب ودخلوا، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولا بد للنّاس من إمام، ولا نعلم أحداً أحق بها منك، فردّهم عن ذلك فأبوا فقال: إن أبيتم إلاّ بيعتي فإنّ بيعتي لا تكون سرّاً، فأتوا المسجد. فحضر طلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص والأعيان، وأوّل من بايعه: طلحة، ثم بايعه النّاس، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلّف عن بيعته نفر فلم يكرههم، وقال: قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل، وتخلّف عن بيعته أيضاً معاوية ومن معه بالشام إلى أن كان منهم ما كان في صفّين. ثم خرج عليه الخوارج فكفّروه وكل من معه، وأجمعوا على قتاله قاتلهم الله وشقوا العصا يعني عصا المسلمين ونصبوا راية الخلاف وسفكوا الدّماء وقطعوا السبيل، فخرج إليهم بمن معه، ورام رجوعهم فأبوا إلاّ القتال فقاتلهم بالنهروان فقتلهم واستأصل جمهورهم، ولم ينج منهم إلاّ القليل.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد قال حين طعن: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق المستقيم، يعني علياً. وكان كما قال سلك بهم والله الطريق المستقيم، وكان له رضي الله عنه شفقة على رعيته متواضعاً ورعاً ذا قوّة في الدّين، وكان قوته رضي الله عنه من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها في القدح ثم يصبّ عليها ماء فيشربه، وكان قد تفرّق عليه الخوارج، واعتقد بعض النّاس فيه الإلٰهية فأحرقهم بالنّار، وسأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما: أكان علي رضي الله عنه يباشر القتال بنفسه يوم صفّين؟ فقال: والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه في متلفة مثل علي رضي الله عنه، ولقد كنت أراه يخرج حاسراً عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله. قال في «**درّة الغواص**»: وممّا يؤثر من شجاعة علي رضي الله عنه أنّه كان إذا اعتلى قَدَّ، وإذا اعترض قَطَّ. فالقد، قطع الشيء طولاً والقط قطعه عرضاً.

وقد تقدّم ذكر قتله رضي الله عنه ومن قتله وكان طعن ابن ملجم له في ليلة الجمعة السابعة عشرة من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، وثب عليه فضربه بخنجر على دماغه، فمات بعد

يومين. وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطّعوه إرباً بعد موت علي، وكان أفضل من بقي من الصحابة رضي الله عنه. ومناقبه كثيرة جدّاً جمعها الحافظ أبو عبد الله الذهبي في مجلد، وذكر غير واحد أنّه رضي الله عنه لمّا ضربه ابن ملجم قاتله الله أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفي آخرها: يا بني عبد المطّلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلن بي غير قاتلي اضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا به، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إيّاكم والمثلة**». ولمّا مات علي رضي الله عنه قتل الحسن رضي الله عنه عبد الرّحمن بن ملجم فقطع يديه ورجليه وكحّل عينيه بمسمار محمّى في النّار، كل ذلك ولم يتأوّه ولم يجزع فلمّا أرادوا قطع لسانه تأوّه وجزع، فسئل عن ذلك فقال: والله ما أتأوّه فزعاً ولا جزعاً من الموت وإنّما أتأوّه لأن تمرّ علي ساعة من ساعات الدّنيا لا أذكر الله تعالى فيها، فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك.

وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «**يا علي أتدري من أشقى الأوّلين؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**عاقر ناقة صالح**»، ثم قال: «**أتدري من أشقى الآخرين؟**» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**الّذي يضربك على هذه فيبل منها هذه**»، وأخذ بلحيته. وكان علي رضي الله عنه يقول: والله لوددت لو انبعث أشقاها، فضربه ابن ملجم الخارجي قاتله الله كما تقدّم. وكانت وفاته رضي الله عنه في سن سبع؛ وقيل ثمان وخمسين؛ وقيل ثمان وستين، وقال ابن جرير الطبري: مات علي رضي الله عنه وعمره خمس وستّون سنة، وقال غيره: ثلاث وستّون سنة. وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوماً واحداً، وكانت مدّة إقامته رضي الله عنه بالمدينة أربعة أشهر، ثم سار إلى العراق، وقتل بالكوفة، كما تقدّم. وللنّاس خلاف في مدّة عمره وفي قدر خلافته رضي الله عنه، والله أعلم.

خلافة أمير المؤمنين (الحسن بن علي) رضي الله عنهما

وهو السادس، فخلع كما سيأتي. قالوا: ثم قام بالأمر بعده أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكنيته أبو محمد، ولقبه الزكيّ، وأمّه فاطمة الزهراء رضي الله عنهما. بويع له بالخلافة بعد وفاة والده، ثم سار إلى المدائن واستقرّ بها، فبينما هو بالمدائن إذ نادى منادٍ: إنّ قيساً قد قتل فانفروا، وكان الحسن رضي الله عنه قد جعله على مقدّمة الجيش وهو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما، فلمّا خرج الحسن رضي الله عنه عدا عليه الجراح الأسدي قاتله الله وهو يسير معه فوجأه بالخنجر في فخذه ليقتله، فقال الحسن رضي الله عنه: قتلتم أبي بالأمس ووثبتم عليّ اليوم تريدون قتلي زهداً في العادلين ورغبة في القاسطين، والله لتعلمن نبأه بعد حين.

ثم كتب إلى معاوية رضي الله عنهما بتسليم الأمر إليه واشترط عليه شروطاً، فأجابه معاوية رضي الله عنه إلى ما التمسه منه، وصير له ما اشترط عليه، فسلّم الأمر إلى معاوية وبايع له لخمس بقين من شهر ربيع الأوّل، وذلك لأنّه رأى المصلحة في جمع الكلمة وترك القتال وظهرت المعجزة في

قوله ﷺ: «**إنّ ابني هذا سيد وسيصلح الله به**»، وفي رواية: «**ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»، ويقال: إنّه أخذ منه، يعني من معاوية ألف ألف درهم، وقالت فرقة: إنّه صالحه بأذرح في جمادى الأولى وأخذ منه مائة ألف دينار، ويقال: أربعمائة ألف درهم، ويقال: إنّه شرط عليه أن يمكّنه من بيت المال يأخذ منه حاجته، وأن يكون وليّ العهد من بعده. ففرح معاوية بذلك وأجاب. فخلع الحسن رضي الله عنه نفسه وسلّم الأمر إلى معاوية وصالحه ودخل هو وإيّاه الكوفة، فسمّي عام الجماعة لاجتماع الأمّة بعد الفرقة على خليفة واحد.

قال الشعبي: شهدت خطبة الحسن رضي الله عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد فإنّ أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور، وإنّ هذا الأمر الّذي اختلفت أنا ومعاوية فيه، إن كان له فهو أحق منّي به وإن كان لي فقد تركته له إرادة لإصلاح الأمّة وحقن دماء المسلمين، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء: 111].

ثم رجع إلى المدينة وأقام بها فعوتب على ذلك فقال رضي الله عنه: اخترت ثلاثاً على ثلاث: الجماعة على الفرقة وحقن الدماء على سفكها، والعار على النّار. وفي الحديث الصحيح عن أبي بكر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه وهو يقبل على النّاس مرّة وعليه أخرى ويقول: «**إنّ ابني هذا سيد ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**». ويروى عن الحسن رضي الله عنه أنّه قال: إنّي لأستحي من ربّي عزّ وجل أن ألقاه، ولم أمش إلى بيته، فمشى عشرين مرّة على رجليه من المدينة إلى مكّة. وإنّ النجائب لتقاد معه، وخرج رضي الله عنه من ماله مرّتين وقاسم الله عزّ وجل ماله ثلاث مرّات حتى إنّه يعطي نعلاً ويمسك أخرى.

قال ابن خلكان: لمّا مرض الحسن رضي الله عنه كتب مروان بن الحكم إلى معاوية بذلك، فكتب إليه معاوية أن أقبل المطي إلي بخبر الحسن، فلمّا بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخضراء، فكبّر أهل الشام بذلك التكبير، فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية: أقرّ الله عينك ما الّذي كبّرت لأجله؟ فقال: مات الحسن، فقالت: أعلى موت ابن فاطمة تكبّر؟ فقال: والله ما كبّرت شماتة بموته ولكن استراح قلبي. ودخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا بن عباس، هل تدري ما حدث في أهل بيتك؟ فقال: لا أدري ما حدث إلاّ أنّي أراك مستبشراً وقد بلغني تكبيرك؟ فقال: مات الحسن، فقال ابن عباس: يرحم الله أبا محمد ثلاثاً، والله يا معاوية لا تسدّ حفرته حفرتك ولا يزيد عمره في عمرك ولئن كنّا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بإمام المتّقين وخاتم النبيّين، فجبر الله تلك الصدعة وسكن تلك العبرة، وكان الله الخلف علينا من بعده.

وكان الحسن رضي الله عنه قد سمّ، سمّته امرأته جعدة بنت الأشعث فمكث شهرين يرفع من تحته

في اليوم كذا وكذا مرّة طست من دم. وكان ﷺ يقول: سُقيت السمّ مراراً ما أصابني فيها ما أصابني في هذه المرّة. وكان قد أوصى لأخيه الحسين ﷺ، وقال: إذا أنا متّ فادفنّي مع جدّي رسول الله ﷺ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وإن منعوك فادفنّي ببقيع الغرقد، فلمّا مات ﷺ لبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع جدّه، فخرج مروان بن الحكم في موالي بني أميّة وهو يومئذٍ عامل على المدينة فمنع الحسين ﷺ من ذلك.

وكانت وفاته في شهر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين؛ وقيل سنة خمسين. وصلّى عليه سعيد بن العاص، ودفن مع أمّه فاطمة ﷺ، وقيل: دفن بالبقيع في قبر في قبّة العبّاس، ودفن بهذا القبر أيضاً علي زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الصادق، فهم أربعة في قبر واحد، فأكرم به قبراً. وكانت خلافته ستّة أشهر وخمسة أيّام؛ وقيل ستّة أشهر إلاّ أيّاماً، وهي تكملة ما ذكره رسول الله ﷺ من مدّة الخلافة ثم يكون ملكاً عضوضاً ثم يكون جبروتاً وفساداً في الأرض، وكان كما قال رسول الله ﷺ، ومات الحسن ﷺ وعمره سبع وأربعون سنة.

خلافة أمير المؤمنين (معاوية بن أبي سفيان) ﷺ

قالوا: ولما خلع الحسن ﷺ نفسه من الخلافة تمّ الأمر لمعاوية ﷺ واستقام له الملك، وصفت له الخلافة وكان قد بويع له بالخلافة يوم التّحكيم، بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق، إلى أن صالحه الحسن ﷺ فأجمع النّاس على بيعته.

ومولده ﷺ بالخيف من منى، أسلم قبل أبيه أبي سفيان وصحب رسول الله ﷺ، وكتب له، وكان في عسكر أخيه يزيد بن أبي سفيان، وكان عاملاً لعمر ﷺ، استعمله على إمرة دمشق، فلمّا احتضر استخلف أخاه عليها، فأقرّه عمر ﷺ على ذلك في سنة عشرين، فلم يزل متولياً على الشام عشرين سنة، وذلك بقية خلافة عمر ﷺ وخلافة عثمان ﷺ وفي خلافة علي ﷺ متغلباً عليها إلى أن سلم إليه الحسن ﷺ الخلافة، فاجتمع له الأمر، وبعث نوّابه إلى البلاد، وذلك سنة إحدى وأربعين، فسمّي عام الجماعة، لأنّ الأمّة اجتمعت فيه بعد الفرقة على إمام واحد، وكانت امرأة استشارت النبيّ ﷺ في أن تتزوّج به، فقال: «**إنّه صعلوك لا مال له**»، ثم بعد هذا القول بإحدى عشرة سنة صار نائب دمشق، ثم بعد الأربعين صار ملك الدّنيا، وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة، والعدّة الكاملة، ويركب الخيل المسومة، وكان كثير البذل والعطاء محسناً إلى رعيّته، كبير الشأن يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف بن قصي، وينسب إلى أميّة بن عبد شمس، فيقال الأموي، وخرج عليه مرّة بن نوفل الأشجعي الحروري، وورد الكوفة وهو أوّل الخوارج، فكتب معاوية إلى أهل الكوفة: ألا لا ذمّة لكم عندي حتى تكفوني أمره، فقاتلوه وقتلوه.

وهو أوّل من اتّخذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب، وأوّل من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحربة، وأوّل من تنعم في مأكله ومشربه وملبسه، وكان رضي الله عنه حليماً وله في الحلم أخبار كثيرة، ولمّا حضرته الوفاة جمع أهله فقال: ألستم أهلي؟ قالوا: بلى، فداك الله بنا، فقال: وعليكم حزني ولكم كدّي وكسبي؟ قالوا: بلى، فداك الله بنا، قال: فهذه نفسي قد خرجت من قدمي فردّوها عليّ إن استطعتم، فبكوا وقالوا: والله ما لنا إلى هذا من سبيل، فرفع صوته بالبكاء ثم قال: فمن تغرّه الدنيا بعدي، وذكر غير واحد أنّه لمّا ثقل في الضعف وتحدّث النّاس أنّه الموت قال لأهله: احشوا عيني إثمداً واسبغوا رأسي دهناً، ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن، ثم مهدوا له مجلساً وأسندوه وأذنوا للنّاس فدخلوا وسلّموا عليه قياماً، فلمّا خرجوا من عنده أنشد قائلاً:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ثم إنّه أوصى أن تدق قلامة أظفار رسول الله ﷺ وتجعل في منافذ وجهه وأن يكفن بثوب سيدنا رسول الله ﷺ، وتوفّي بدمشق في نصف رجب؛ وقيل في مستهل رجب سنة ستّين، وصلّى عليه الضحّاك الفهري لغيبة ابنه يزيد ببيت المقدس، واختلف في عمره فقيل: ثمانون؛ وقيل: خمس وسبعون سنة؛ وقيل: خمس وثمانون؛ وقيل: ثمان وثمانون؛ وقيل: تسعون. وكانت خلافته منذ خلص له الأمر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيّام، وكان أميراً وخليفة أربعين سنة منها أربع سنين في خلافة عمر رضي الله عنه ، والله تعالى أعلم.

خلافة (يزيد بن معاوية)

ثم قام بالأمر بعده ابنه يزيد، بويع له بالخلافة يوم مات أبوه، وذلك أنّ أباه كان قد جعله وليّ العهد من بعده، وكان بحمص فقدم منها وبادر إلى قبر أبيه، ثم دخل دمشق إلى الخضراء وكانت دار السلطنة، فخطب النّاس بها، وبايعوه بالخلافة، وكتب إلى الأقاليم بذلك فبايعوه ولم يبايعه الحسين بن علي رضي الله عنهما ولا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه واختفيا من عامله الوليد بن عقبة بن أبي سفيان، وأقاما مصرّين على الامتناع إلى أن قتل الحسين رضي الله عنه بكربلاء.

وكان الّذي باشر قتله الشمر بن ذي الجوشن؛ وقيل: سنان بن أنس النخعي؛ وقيل إن الشمر ضربه على وجهه وأدركه سنان فطعنه فألقاه عن فرسه، ونزل خولي بن يزيد الأصبحي ليحز رأسه فارتعدت يداه، فنزل أخوه شبل بن يزيد فاحتز رأسه ودفعه إلى أخيه خولي، وكان أمير الجيش عبيد الله بن زياد بن أبيه من قبل يزيد بن معاوية، قالوا: ثم إنّ عبيد الله بن زياد جَهَّز علي بن الحسين ومن كان مع الحسين من حرمه بعد أن اعتمدوا ما اعتمدوه من سبي

الحريم وقتل الذراري ممّا تقشعر من ذكره الأبدان وترتعد منه الفرائص إلى البغيض يزيد بن معاوية وهو يومئذٍ بدمشق مع الشمر بن ذي الجوشن في جماعة من أصحابه، فساروا إلى أن وصلوا إلى دير في الطريق، فنزلوا ليقيلوا به فوجدوا مكتوباً على بعض جدرانه:

أترجو أمّة قتلت حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب

فسألوا الرّاهب عن السطر ومن كتبه، فقال: إنّه مكتوب هنا من قبل أن يبعث نبيّكم بخمسمائة عام؛ وقيل: إن الجدار انشق فظهر منه كف مكتوب فيه بالدم هذا السطر، ثم ساروا حتى قدموا دمشق، ودخلوا على يزيد بن معاوية ومعهم رأس الحسين رضي الله عنه فرمي به بين يدي يزيد، ثم تكلّم شمر بن ذي الجوشن، فقال: يا أمير المؤمنين ورد علينا هذا يعني الحسين في ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستّين رجلاً من شيعته فسرنا إليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله بن زياد أو القتال فاختاروا القتال، فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب، فلمّا أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون لوذان الحمام من الصقور، فما كان إلاّ مقدار جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجرّدة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تسفي عليهم الرياح زوّارهم العقبان ووفودهم الرخم، فلمّا سمع يزيد ذلك دمعت عيناه، وقال: ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن مرجانة أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه، ثم قال: يرحم الله أبا عبد الله، ثم تمثّل بقول الشاعر:

يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ثم أمر بالذريّة فأدخلوا دار نسائه، وكان يزيد إذا حضر غداؤه دعا علي بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه، ثم وجّه الذرية صحبة علي بن الحسين إلى المدينة ووجّه معه رجلاً في ثلاثين فارساً يسير أمامهم حتى انتهوا إلى المدينة.

وكان بين وفاة رسول الله ﷺ وبين اليوم الّذي قتل فيه الحسين رضي الله عنه خمسون عاماً؛ وقيل: إنّ الحسين رضي الله عنه لمّا وصل إلى كربلاء سأل عن اسم المكان فقيل: له كربلاء، فقال: ذات كرب وبلاء، لقد مر أبي بهذا المكان عند مسيره إلى صفّين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال: ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم، فسئل عن ذلك، فقال: نفر من آل محمد ينزلون ههنا، ثم أمر بأثقاله فحطت في ذلك المكان، وكان قتله رضي الله عنه يوم عاشوراء في سنة ستّين، ذكره أبو حنيفة رضي الله عنه في «**الأخبار الطوال**»، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الكاف، في لفظ الكلب ما ذكره ابن عبد البر في «**بهجة المجالس وأنس المجالس**» أنّه قيل لجعفر الصادق: كم تتأخر الرؤيا؟ فقال: خمسين سنة لأنّ النبيّ ﷺ رأى كأنّ كلباً أبقع ولغ في دمه فأوّله بأنّ رجلاً يقتل الحسين ابن بنته، كان الشمّر بن ذي الجوشن الكلب قاتل الحسين رضي الله عنه وكان أبرص، فتأخّرت الرؤيا بعده ﷺ خمسين سنة.

وفي هذه السنة أي سنة ستّين دعا ابن الزبير ﷺ إلى نفسه بالخلافة بمكّة، وعاب يزيد بشرب الخمر واللّعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه، فبايعه أهل تهامة والحجاز، فلمّا بلغ يزيد ذلك ندب له الحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي، وضم إلى كل واحد جيشاً واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المري وجعله أمير الأمراء ولمّا ودّعهم قال: يا مسلم لا تردن أهل الشام عن شيء يريدونه بعدوّهم واجعل طريقك على المدينة فإن حاربوك فحاربهم، فإن ظفرت بهم فأبحها ثلاثاً. فسار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرّة وخرج أهل المدينة فعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة الراهب وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلم ثلاثاً فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام، وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والأنصار، ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيّام، وقد جاء في الحديث عنه ﷺ أنّه قال: «**من أباح حرمي فقد حلّ عليه غضبي**»، ثم شخص بالجيش إلى مكّة وكتب إلى يزيد بما صنع بالمدينة، فلمّا بلغ مسلم هرشى اعتل ومات، فتولّى أمر الجيش الحصين بن نمير السكوني، فسار حتى وافى مكّة، فتحصّن منه ابن الزبير ﷺ في المسجد الحرام بجميع من كان معه، فنصب الحصين المنجنيق على أبي قبيس، ورمى به الكعبة المعظّمة، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر إلى الحصين بموت يزيد بن معاوية فأرسل إلى ابن الزبير يسأله الموادعة، فأجابه إلى ذلك، وفتح الأبواب واختلط العسكران يطوفان بالبيت، فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين بيده وقال له سرّاً: هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو النّاس إلى بيعتك، فإن أمرهم قد مرج ولا أرى أحداً أحقّ بها اليوم منك، ولست أعصى هناك، فاجتذب ابن الزبير يده من يده وقال وهو يجهر بقوله: دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام، فقال الحصين: لقد كذب الّذي يزعم أنّك من دهاة العرب، أكلمك سرّاً فتكلّمني علانية، وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني للحرب، ثم انصرف بمن معه إلى الشام.

وتوفّي يزيد بن معاوية في شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستّين وله تسع وثلاثون سنة، ودفن بمقبرة باب الصغير. وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر، وقد وقع للغزالي والكيا الهراسي فيه كلام، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الفاء في لفظ الفهد.

خلافة (معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)

ثم قام بالأمر بعده ابنه معاوية، وكان خيراً من أبيه فيه دين وعقل، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فأقام فيها أربعين يوماً، وقيل: أقام فيها خمسة أشهر وأيّاماً، وخلع نفسه، وذكر غير واحد أنّ معاوية بن يزيد لمّا خلع نفسه صعد المنبر فجلس طويلاً ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلغ ما يكون من الحمد والثناء، ثم ذكر النبيّ ﷺ بأحسن ما يذكر به، ثم قال: أيّها النّاس ما أنا

بالرّاغب في الائتمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم، وإنّي لأعلم أنّكم تكرهوننا أيضاً لأنّا بلينا بكم وبليتم بنا، إلاّ أنّ جدي معاوية رضي الله عنه قد نازع في هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله، وسابقته أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأوّلهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأخوه وزوّجه رسول الله ﷺ ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً باختياره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيّدي شباب أهل الجنّة وأفضل هذه الأمّة، تربية الرسول وابني فاطمة البتول من الشجرة الطيّبة الطاهرة الزكيّة، فركب جدّي معه ما تعلمون وركبتم معه ما لا تجهلون حتى انتظمت لجدّي الأمور، فلمّا جاءه القدر المحتوم واخترمته أيدي المنون بقي مرتهناً بعمله فريداً في قبره، ووجد ما قدّمت يداه ورأى ما ارتكبه واعتداه، ثم انتقلت الخلافة إلى يزيد أبي فتقلّد أمركم لهوى كان أبوه فيه ولقد كان أبي يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمّة محمد ﷺ فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جراءته على الله وبغيه على من استحل حرمته من أولاد رسول الله ﷺ فقلّت مدّته وانقطع أثره وضاجع عمله وصار حليف حفرته رهين خطيئته وبقيت أوزاره وتبعاته، وحصل على ما قدم وندم حيث لا ينفعه الندم، وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه، فليت شعري ماذا قال وماذا قيل له؟ هل عوقب بإساءته وجوزي بعمله؟ وذلك ظنّي. ثم اختنقته العبرة فبكى طويلاً وعلا نحيبه. ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم والساخط عليّ أكثر من الراضي، وما كنت لأتحمّل آثامكم ولا يراني الله جلّت قدرته متقلّداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه، ومن رضيتم به عليكم فولّوه فلقد خلعت بيعتي من أعناقكم، والسلام.

فقال له مروان بن الحكم وكان تحت المنبر: أسنّة عمرية يا أبا ليلى؟ فقال: اغد عني، أعن ديني تخدعني؟ فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم فأتجرع مرارتها، ائتني برجال مثل رجال عمر رضي الله عنه على أنّه ما كان من حين جعلها شورى وصرفها عمّن لا يشك في عدالته ظلوماً، والله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد نال أبي منها مغرماً ومأثماً، ولئن كانت سوءاً فحسبه منها ما أصابه. ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمّه فوجدوه يبكي، فقالت له أمّه: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك فقال: وددت والله ذلك ثم قال: ويلي إن لم يرحمني ربّي. ثم إنّ بني أميّة قالوا لمؤدبه عمر المقصوص: أنت علّمته هذا ولقنته إيّاه وصددته عن الخلافة، وزينت له حب علي وأولاده وحملته على ما وسمنا به من الظلم، وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق، وقال ما قال؟ فقال: والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علي فلم يقبلوا منه ذلك، وأخذوه ودفنوه حيّاً حتى مات.

وتوفي معاوية بن يزيد رحمه الله بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة؛ وقيل: بسبعين ليلة، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة؛ وقيل: إحدى وعشرين سنة؛ وقيل: ثماني عشرة، ولم يعقب.

خلافة (مروان بن الحكم)

ثم قام بالأمر بعده مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، بويع له بالخلافة بالجابية، ثم دخل الشام فأذعن أهلها له بالطاعة، ثم دخل مصر بعد حروب كثيرة، فبايعه أهلها، وكان يقال له: ابن الطريد لأنّ النبيّ ﷺ كان قد طرد أباه إلى الطائف، فردّه عثمان رضي الله عنه حين ولي كما تقدّم قريباً. وتوفي مروان في سنة خمس وستّين وثبت عليه زوجته لكونه شتمها فوضعت على وجهه مخدّة كبيرة وهو نائم، وقعدت هي وجواريها فوقها حتى مات، وكان قد لحق النبيّ ﷺ وهو صبيّ وولي نيابة المدينة مرّات، وهو قاتل طلحة أحد العشرة رضي الله عنهم، وكان كاتب السر لعثمان رضي الله عنه، وبسببه جرى عليه ما جرى، وكانت خلافته عشرة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وثمانين سنة.

روى الحاكم في «**كتاب الفتن والملاحم من المستدرك**» عن عبد الرّحمٰن بن عوف رضي الله عنه قال: كان لا يولد لأحد مولود إلاّ أتى به رسول الله ﷺ فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: «**هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون**». ثم قال صحيح الإسناد، ثم روى أيضاً عن عمرو بن مرّة الجهني، وكانت له صحبة أنّ الحكم بن أبي العاص استأذن على النبيّ ﷺ فعرف صوته فقال: «**ائذنوا له، عليه وعلى من يخرج من صلبه لعنة الله إلا المؤمن منهم وقليل ما هم يترفهون في الدنيا ويضيعون في الآخرة ذوو مكر وخديعة يعطون في الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق**»، وسيأتي هذا إن شاء الله تعالى في باب الواو في لفظ الوزغ.

خلافة (عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه مروان، وهو أوّل من سمّي بعبد الملك في الإسلام، وأوّل من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الإسلام، وكان على الدنانير نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية، قلت: ولهذا سبب وهو أنّي رأيت في «**كتاب المحاسن والمساوىء**» للإمام إبراهيم بن محمد البيهقي ما نصّه:

قال الكسائي: دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً، وأمر بتفريقه في خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمّله، وكان كثيراً ما يحدثني فقال: هل علمت أوّل من سنّ هذه الكتابة في الذهب والفضّة، قلت: يا سيدي هو عبد الملك بن مروان، قال: فما كان السبب في ذلك؟ قلت: لا علم لي غير أنّه أوّل من أحدث هذه الكتابة، فقال: سأخبرك، كانت القراطيس للرّوم وكان أكثر من بمصر نصرانياً على دين ملك الرّوم، وكانت تطرز بالرومية وكانت طرازها أباً وابناً وروحاً، فلم يزل ذلك كذلك صدر الإسلام كلّه يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك بن مروان فتنبّه له وكان

فطناً، فبينما هو ذات يوم إذ مرّ به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك، فأنكره وقال ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب، وهما يعملان بمصر، وغير ذلك ممّا يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله والبلد يخرج منه هذه القراطيس تدور في الآفاق والبلاد، وقد طرزت بسطر مثبت عليها، فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأمر صناع القراطيس أن يطرزوها بصورة التوحيد شهد الله أنّه لا إلٰه إلاّ هو، وهذا طراز القراطيس خاصّة إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد ولم يتغيّر، وكتب إلى عمّال الآفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرّزة بطراز الرّوم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل.

فلمّا ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل إلى بلاد الرّوم منها انتشر خبرها ووصل إلى ملكهم، وترجم له ذلك الطراز، فأنكره وغلظ عليه واستشاط غيظاً فكتب إلى عبد الملك: إنّ عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للرّوم ولم يزل يطرز بطراز الرّوم إلى أن أبطلته. فإن كان من تقدّمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطؤوا، فاختر من هاتين الحالتين أيّهما شئت وأحببت وقد بعثت إليك بهدية تشبه محلك وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من أصناف الأعلاق حاجة أشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية، وكانت عظيمة القدر.

فلمّا قرأ عبد الملك كتابه ردّ الرسول وأعلمه أنّه لا جواب له ورد الهدية، فانصرف بها إلى صاحبه، فلمّا وافاه أضعف الهدية وردّ الرسول إلى عبد الملك، وقال: إنّي ظننتك استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني عن كتابي فأضعفت الهدية، وإنّي أرغب إليك إلى مثل ما رغبت فيه من رد الطراز إلى ما كان عليه أوّلاً فقرأ عبد الملك الكتاب. ولم يجبه ورد الهدية فكتب إليه ملك الرّوم يقتضي أجوبة كتبه ويقول: إنّك قد استخففت بجوابي وهديّتي ولم تعفني بحاجتي فتوهمتك استقللت الهدية فأضعفتها فجريت على سبيلك الأوّل وقد أضعفتها ثالثة وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن برد الطراز إلى ما كان عليه أو لآمرن بنقش الدنانير والدارهم فإنّك تعلم أنّه لا ينقش شيء منها إلاّ ما ينقش في بلادي، ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام فينقش عليها شتم نبيّك، فإذا قرأته ارفضّ جبينُك عرقاً، فأحب أن تقبل هديّتي وترد الطراز إلى ما كان عليه ويكون فعل ذلك هدية تودني بها ونبقي على الحال بيني وبينك.

فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه الأمر وغلظ وضاقت به الأرض، وقال: أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام لأنّي جنيت على رسول الله ﷺ من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب إذا كانت المعاملات تدور بين النّاس

بدنانير الرّوم ودراهمهم. فجمع أهل الإسلام واستشارهم، فلم يجد عند أحد منهم رأياً يعمل به، فقال له روح بن زنباع: إنّك لتعلم المخرج من هذا الأمر، ولكنّك تتعمد تركه، فقال: ويحك من؟ فقال: عليك بالباقر من أهل بيت النبيّ ﷺ، قال: صدقت، ولكنّه أرتج على الرأي فيه.

فكتب إلى عامله بالمدينة أن أشخِصْ إلي محمد بن علي بن الحسين مكرماً ومتعه بمائة ألف درهم لجهازه وبثلاثمائة ألف درهم لنفقته، وأرحْ عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه وحبس الرسول قبله إلى موافاة محمد بن علي، فلمّا وافاه أخبره الخبر، فقال له محمد رحمه الله تعالى: لا يعظم هذا عليك، فإنّه ليس بشيء من جهتين، إحداهما أنّ الله عزّ وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الرّوم في رسول الله ﷺ، والأخرى وجود الحيلة فيه، قال: وما هي؟ قال: تدعو في هذه الساعة بصنّاع فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير، وتجعل النقش عليها صورة التوحيد، وذكر رسول الله ﷺ أحدهما في وجه الدرهم والدينار، والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الّذي يضرب فيه. والسنة الّتي يضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة الّتي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل، فتكون أوزانها جميعاً إحدى وعشرين مثقالاً، فتجزئها من الثلاثين فتصير العدّة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل، وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنّما هي الكسروية الّتي يقال لها اليوم البغلية لأنّ رأس البغل ضربها لعمر رضي الله عنه بسكة كسروية في الإسلام، مكتوب عليها سورة «الملك»، وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية نوش خور، أي: كل هنيئاً، وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً والدراهم الّتي كان وزن العشرة منها وزن ستّة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السمرية الخفاف والثقال، ونقشها نقش فارس.

ففعل ذلك عبد الملك وأمره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام، وأن يتقدّم إلى النّاس في التعامل بها وأن يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكّة من الدراهم والدنانير وغيرها، وأن تبطل وترد إلى مواضع العمل حتى تعاد إلى السكك الإسلامية ففعل عبد الملك ذلك، ورذ رسول ملك الرّوم إليه بذلك بقوله: إنّ الله عزّ وجل مانعك ممّا قد أردت أن تفعله، وقد تقدّمت إلى عمالي في أقطار البلاد بكذا وكذا وبإبطال السكك والطروز الرّومية، فقيل لملك الرّوم: افعل ما كنت تهدد به ملك العرب، فقال: إنّما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه لأنّي كنت قادراً عليه، والمال وغيره برسوم الرّوم، فأمّا الآن فلا أفعل لأنّ ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام، وامتنع من الّذي قال وثبت ما أشار به محمد بن

علي بن الحسين ﷺ إلى اليوم، ثم رمى، يعني الرّشيد بالدرهم إلى بعض الخدم وتمكّن عبد الله بن الزبير فبايعه أهل الحرمين واليمن والعراق واستناب على العراق وما يليه أخاه مصعب بن الزبير، وتفرّقت الكلمة، فبقي في الوقت خليفتان، أكبرهما ابن الزبير ﷺ ، ثم لم يزل عبد الملك إلى أن ظفر به وقتله بعد حروب عظيمة، وذلك أنّه سار من دمشق إلى العراق فبرز إليه نائبها مصعب بن الزبير، وكان عبد الملك قد كاتب جيشه بأمور فخذلوه وتسلّلوا عنه، فصار مصعب في نفر يسير والتحم بينهما القتال، فظهرت من مصعب شجاعة عظيمة.

ولم يزل كذلك حتى قتل، فاستولى عبد الملك حينئذٍ على العراق وخراسان واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعاً إلى دمشق، ثم جهّز الحجّاج بن يوسف الثقفي في جيش لحرب ابن الزبير، فحاصروه وضايقوه ونصبوا المنجنيق على جبل أبي قبيس، فكان يضرب بشجاعته المثل، كان ﷺ يحمل عليهم وحده فيهزمهم ويخرجهم من أبواب المسجد. واستمر يقاتلهم أربعة أشهر، ففي آخرها حمل عليهم، فسقط على رأسه شرافة من شراريف المسجد، فخر منها، فبادروا إليه واحتزوا رأسه ﷺ فأمر اللّعين الحجّاج أخزاه الله وقبّحه بصلب جسده.

وكان عبد الملك قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً فقيهاً واسع العلم، وكان طويل العنق رقيق الوجه مشدود الأسنان بالذهب حازماً لا يكل أمره إلى سواه، شديد البخل يلقب برشح الحجر لبخله، ويلقب بأبي ذباب لبخره محباً للفخر، مقداماً على سفك الدماء، وكذلك كان عماله الحجّاج بالعراق، والمهلب بن أبي صفرة بخراسان، وهشام بن إسماعيل وعبد الله ابنه بمصر، وموسى بن نصير بالمغرب ومحمد بن يوسف أخو الحجّاج ومحمد بن مروان بالجزيرة، وكل من هؤلاء ظلوم غشوم جبّار، قاله ابن خلكان.

ومن غريب ما سمع فيما حكاه ابن خلكان أنّ علي بن عبد الله بن عباس ومحمداً ابنه دخلا على عبد الملك بن مروان وعنده قائف، فأجلسهما، ثم قال للقائف: أتعرف هذا؟ قال: لا، ولكن أعرف من أمره أنّ هذا الفتى الّذي معه ابنه وأنّه يخرج من عقبه فراعنة يملكون الأرض لا يناوئهم مناوئ إلاّ قتلوه، فتغيّر لون عبد الملك، ثم قال: زعم راهب إيليا وكان قد رآه عنده أنّه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكاً ووصفهم بصفاتهم.

وذكر أبو حنيفة في «**الأخبار الطوال**» أنّ عبد الملك بن مروان أوصى ابنه الوليد لمّا ثقل في مرضه، فقال: يا وليد لا ألفينّك إذا وضعتني في حفرتي تعصر عينيك كالأمة الولهاء، بل اتزر وشمّر والبس جلد النمر وادع النّاس إلى البيعة، فمن قال برأسه كذا أي لا، فقل بالسيف كذا، أي اضرب عنقه ا هـ.

وكان عبد الملك يلقب بحمامة المسجد لقبه به ابن عمر ﷺ ، وجاءته الخلافة وهو يقرأ في المصحف فطبقه، وقال: سلام عليك هذا فراق بيني وبينك؛ وقيل لابن عمر ﷺ :

أرأيت لو نفاني أصحاب رسول الله ﷺ فمن نسأل بعدهم؟ فقال: سلوا هذا الفتى، يعني عبد الملك. توفّي عبد الملك بن مروان في شوّال سنة ست وثمانين، وله ثلاث وستّون سنة؛ وقيل: ستّون. وخلّف سبعة عشر ولداً، ولي الخلافة منهم أربعة، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً، منها ثمان سنين مزاحماً لابن الزبير ثم انفرد بمملكة الدّنيا إلى أن مات، رحمة الله عليه.

خلافة (عبد الله بن الزبير) رضي الله عنهما

وهو السادس فخلع كما سيأتي

وقد تقدّم أنّ معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خلع نفسه من الخلافة، فكيف يكون ابن الزبير رضي الله عنهما سادساً وسبق قبل ذلك أنّ الحسن رضي الله عنه خلع من الخلافة أيضاً، فعلى هذا الحال لا يستقيم أن يكون ابن الزبير رضي الله عنهما سادساً، وبويع له يعني ابن الزبير رضي الله عنهما بالخلافة بمكّة لسبع بقين من رجب سنة أربع وستين في أيّام يزيد بن معاوية كما تقدّم، وبايعه أهل العراق وأهل مصر وبعض أهل الشام إلى أن بايعوا لمروان بعد حروب.

واستمرّ له العراق إلى سنة إحدى وسبعين وهي الّتي قتل فيها عبد الملك بن مروان أخاه مصعب بن الزبير وهدم قصر الإمارة بالكوفة. وسبب هدمه أنّه جلس ووضع رأس مصعب بين يديه، فقال له عبد الملك بن عمير: يا أمير المؤمنين جلست أنا وعبيد الله بن زياد في هذا المجلس ورأس الحسين بين يديه ثم جلست أنا والمختار بن أبي عبيد، فإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يديه، ثم جلست أنا ومصعب هذا فإذا رأس المختار بين يديه، ثم جلست مع أمير المؤمنين فإذا رأس مصعب بين يديه وإنّي أعيذ أمير المؤمنين بالله من شرّ هذا المجلس، فارتعد عبد الملك وقام من فوره وأمر بهدم القصر.

وكان مصعب شجاعاً جواداً حسن الوجه كالقمر ليلة البدر رحمه الله تعالى. ولمّا قتل مصعب انهزم أصحابه، فاستدعى بهم عبد الملك بن مروان فبايعوه وسار إلى الكوفة ودخلها واستقرّ له الأمر بالعراق والشام ومصر، ثم جهز الحجّاج في سنة ثلاث وسبعين إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فحصره بمكّة ورمى البيت بالمنجنيق ثم ظفر به فقتله واحتز الحجّاج رأسه وصلبه منكّساً، ثم أنزله ودفنه في مقابر اليهود؛ وقيل: إن الحجّاج قال: لا أنزله حتى تتشفع فيه أمه أسماء، فتم على تلك الحال مدّة فمرت به أمّه يوماً، فقالت: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟ فبلغ الحجّاج ذلك فأمر بإنزاله وأن يعطى لأمّه أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما فأخذته ودفنته.

وسيأتي ذكر قتله أيضاً في باب الشين المعجمة في لفظ الشاة. وكانت خلافته رضي الله عنه بالحجاز والعراق تسع سنين واثنين وعشرين يوماً، قتل رضي الله عنه وله من العمر ثلاث وسبعون سنة؛ وقيل اثنتان وسبعون سنة.

خلافة (الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عبد الملك بن مروان ابنه الوليد، فإنّه كان ولي عهده وكان دميماً سائل الأنف يختال في مشيته، قليل العلم، وكان يختم القرآن في ثلاث ليال. قال إبراهيم بن أبي عبلة: كان يختم في رمضان سبع عشرة مرّة، وكان يعطيني أكياس الدراهم أقسمها في الصالحين. وعن الوليد قال: لولا أنّ الله عز وجل ذكر اللواط في كتابه ما ظننت أنّ أحداً يفعله.

بويع له بالخلافة يوم توفي والده، ولم يدخل المنزل حتى صعد المنبر فقال: الحمد لله إنّا لله وإنّا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا. قال الحافظ ابن عساكر: كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم، بنى المساجد بدمشق وأعطى النّاس وفرض للمجذومين. وقال: لا تسألوا النّاس وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً وكان يبر حملة القرآن ويقضي عنهم ديونهم. وبنى الجامع الأموي، وهدم كنيسة مار يوحنّا وزادها فيه، وذلك في ذي القعدة سنة ست وثمانين. وذكر أنّه كان في الجامع وهو يبني اثنا عشر ألف مرخم.

وتوفّي الوليد ولم يتم بناؤه فأتمّه سليمان أخوه، فكان جملة ما أنفق على بنائه أربعمائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل. وما زالت إلى أيّام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فجعلها في بيت المال، واتّخذ عوضها صفراً وحديداً. وبنى قبّة الصخرة ببيت المقدس، وبنى المسجد النبوي ووسّعه حتى دخلت الحجرة النبوية فيه وله آثار حسنة كثيرة جدّاً، ومع ذلك فقد روي أنّ عمر بن عبد العزيز قال: لما ألحدت الوليد ارتكض في أكفانه وغلت يداه إلى عنقه، نسأل الله العافية والسلامة.

وفتحت في أيّام خلافته الفتوحات العظام مثل السند والهند والأندلس وغير ذلك من الأماكن المشتهرة، وكان يركب المركوب الحسن الجيد ويتّقي الركوب والسفر والحرب في هذه الأيّام الآتي ذكرها، وينهى عن ذلك، وهي فائدة جليلة عظيمة القدر. روى علقمة بن صفوان عن أحمد بن يحيى مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «**توقوا اثني عشر يوماً في السنة، فإنّها تذهب بالأموال وتهتك الأستار**»، فقلنا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**ثاني عشر المحرم وعاشر صفر ورابع ربيع الأوّل وثامن عشر ربيع الثاني وثامن عشر جمادى الأولى وثاني عشر جمادى الثانية وثاني عشر رجب وسادس عشر شعبان ورابع عشر رمضان وثاني شوّال وثامن عشر ذي العقدة وثامن ذي الحجة**»، اهـ.

وقوله: إنّ الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر، وإنّما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان في أيام فتنة ابن الزبير لمّا منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفاً من أن يأخذ منهم ابن

الزبير البيعة له، فكان النّاس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير ﷺ كما سيأتي إن شاء الله تعالى عن ابن خلكان وغيره ولعلّها تشعثت[1]، فهدمها الوليد وبناها، والله تعالى أعلم.

وتوفّي الوليد بن عبد الملك في خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين بدير مروان عن ست وأربعين سنة؛ وقيل ثمان وأربعين؛ وقيل خمسين سنة، وترك أربعة عشر ولداً. وحمل على أعناق الرجال، ودفن في مقابر باب الصغير، وتولّى دفنه عمر بن عبد العزيز، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وقيل: عشر سنين، والله أعلم.

خلافة (سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعده أخوه سليمان وذلك لأنّ أباهما عقد لهما جميعاً بالأمر من بعده، بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد، وكان سليمان بالرملة، فلمّا جاءته الخلافة عزم على الإقامة بها، ثم توجّه إلى دمشق، وكمّل عمارة الجامع الأموي كما تقدّم، وجهّز أخاه مسلمة بن عبد الملك في سنة سبع وتسعين إلى غزوة الرّوم، فانتهى إلى القسطنطينية فنازلها، وستأتي الإشارة إلى شيء من ذلك في باب الجيم في لفظ الجراد.

وممّا يحكى من محاسنه رحمه الله تعالى أن رجلاً دخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان، فقال له سليمان: أما أنشدك الله فقد عرفناه فما الأذان، قال: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]، فقال له سليمان: ما ظلامتك؟ قال: ضيعتي الفلانية غلبني عليها عاملك فلان، فنزل سليمان رحمه الله عن سريره ورفع البساط ووضع خدّه بالأرض وقال: والله لا رفعت خدّي عن الأرض حتى يكتب له برد ضيعته. فكتب الكتاب وهو واضع خدّه رحمه الله، لما سمع كلام ربّه الّذي خلقه وخوّله في نعمه خشي على نفسه من لعنة الله تعالى وطرده.

قيل: إنّه أطلق من سجن الحجّاج ثلاثمائة ألف ما بين رجل وامرأة وصادر آل الحجّاج، واتخذ ابن عمّه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وزيراً ومشيراً، وأنّه أراد أن يستكتب يزيد بن أبي مسلم وزير الحجّاج، فقال له عمر بن عبد العزيز: سألتك بالله يا أمير المؤمنين لا تحكي ذكر الحجاج باستكتابك يزيد، فقال له: يا عمر إنّي لم أجد عنده خيانة في درهم ولا دينار، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ إبليس أعف منه في الدرهم والدينار، وقد أغوى الخلق كلهم جميعاً، فأضرب سليمان عما عزم عليه. وفي «**كامل المبرد**» وغيره أنّ يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميماً قبيحاً، فقال له سليمان: قبّح الله رجلاً أجرك رسنه وأشركك في

(١) تشعثت: تشققت.

أمانته، فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل هذا، قال: ولِمَ؟ قال: لأنّك رأيتني والأمر عنّي مدبر، ولو رأيتني والأمر عليَّ مقبل لاستحسنت ما استقبحت منّي ولاستعظمت ما استصغرت منّي، فقال له سليمان: ويحك أوَقد استقرّ الحجّاج في قعر جهنّم بعد أم لا؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك في الحجّاج، قال: ولِمَ؟ قال: لأنّ الحجّاج وطأ لكم المنابر وأذلّ لكم الجبابرة، وإنّه يأتي يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك، فحيثما كانا كان.

وكان سليمان رحمه الله فصيحاً بليغاً أديباً مؤثّراً للعدل محبّاً للغزو، محسناً لعلم العربية ويرجع إلى دين وخير واتباع القرآن وإظهار شعائر الإسلام مترفعاً عن سفك الدماء، وكان شرّها نكاحاً، قال ابن خلكان في ترجمته: إنّه كان يأكل في كل يوم نحو مائة رطل شامي، وكان به عرج، ولمّا ولي ردّ الصلاة إلى ميقاتها الأوّل، وكان من قبله من خلفاء بني أمية يؤخرونها إلى آخر وقتها، ولذلك قال محمد بن سيرين رحمه الله تعالى: إنّ سليمان افتتح خلافته بخير واختتمها بخير، افتتحها بإقامة الصلاة لميقاتها الأوّل، وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وذكر المفضل وغيره أنّ سليمان بن عبد الملك خرج من الحمّام في يوم جمعة فلبس حلّة خضراء واعتمّ بعمامة خضراء، وجلس على فراش أخضر وبسط ما حوله بالخضرة، ثم نظر في المرآة، وكان جميلاً فأعجبه جماله فشمّر عن ذراعيه وقال: كان فينا نبيّنا محمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، وكان أبو بكر رضي الله عنه صدّيقاً، وكان عمر رضي الله عنه فاروقاً، وكان عثمان رضي الله عنه حيياً، وكان علي رضي الله عنه شجاعاً، وكان معاوية رضي الله عنه حليماً، وكان يزيد صبوراً، وكان عبد الملك سائساً، وكان الوليد جبّاراً، وأنا الملك الشاب. ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له في صحن الدّار فأنشدته هذه الأبيات:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب ... عابه النّاس غير أنّك فاني

فلمّا فرغ من الصلاة ودخل داره، قال لتلك الحظية: ما قلت لي في صحن الدّار وأنا خارج؟ قالت: ما قلت لك شيئاً ولا رأيتك، وأنّى لي بالخروج إلى صحن الدّار، فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، نعيت إليّ نفسي. فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات، وقيل: إنّه صعد المنبر وخطب وإنّ صوته ليسمع من أقصى المسجد، فأخذته الحمّى فما زال صوته يخفى حتى لم يسمعه من تحته، ثم دخل داره يسحب رجليه بين رجلين، فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات. وقال ابن خلكان: إنّه حمّ ومات من ليلته؛ وقيل: إنّه مات بذات الجنب.

وتوفّي في صفر في عاشره سنة ثمان وتسعين وقيل سنة تسع وتسعين بمرج دابق من أرض قنسرين، وله تسع وثلاثون سنة؛ وقيل خمس وأربعون سنة. وكانت خلافته سنتين وثمانية شهور، رحمة الله تعالى عليه.

خلافة أمير المؤمنين (عمر بن عبد العزيز) رضي الله عنه

ثم قام بالأمر بعده الخليفة الراشد والإمام العالِم أبو حفص عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. بويع له بالخلافة يوم مات سليمان بن عبد الملك بعهد له منه بذلك، وكان يقال له: أشج بني أمية. وأمّه أمّ عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، فعمر رضي الله عنه جدّه من قبل أمّه، وهو تابعي جليل.

رَوَى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد رضي الله عنهما، ورَوَى عنه جماعة: ومولده رضي الله عنه بمصر سنة إحدى وستين، قال الإمام أحمد: ليس أحد من التّابعين قوله حجة إلاّ عمر بن عبد العزيز. وفي «**طبقات ابن سعد**» عن عمر بن قيس أنّه قال: لمّا ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سمع صوت لا يدرى قائله:

من الآن قد طابت وقرّ قرارها ... على عمر المهدي قام عمودها

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عفيفاً زاهداً ناسكاً عابداً مؤمناً تقيّاً صادقاً، وهو أوّل من اتخذ دار الضيافة من الخلفاء، وأوّل من فرض لأبناء السبيل، وأزال ما كانت بنو أمية تذكر به علياً على المنابر، وجعل مكان ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ...﴾ الآية، وقال فيه كثير عزة:

وَلِيت ولم تسبب علياً ولم تخف ... مريباً ولم تقبل مقالة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الّذي ... أتيت فأمسى راضياً كل مسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادي من فصيح وأعجم
يقول أميرَ المؤمنين ظلمتني ... بأخذك ديناري وأخذك درهمي
فأربح بها من صفقة لمبايع ... وأكرم بها من بيعة ثم أكرم

وكتب إلى عمّاله أن لا يقيّدوا مسجوناً بقيد فإنّه يمنع من الصلاة، وكتب إلى عامله بالبصرة عدي بن أرطأة: عليك بأربع ليال من السنة، فإنّ الله تبارك وتعالى يفرغ فيها الرحمة إفراغاً، وهي أوّل ليلة من رجب وليلة النصف من شعبان، وليلتا العيدين. وكتب إلى عمّاله: إذا دعتكم قدرتكم على النّاس إلى ظلمهم فاذكروا قدرة الله تعالى عليكم ونفاد ما تأتون إليه، وبقاء ما يأتي إليكم من العذاب بسببهم.

وذكر غير واحد عن محمد المروزي قال: أخبرت أنّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لمّا دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجة، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه مراكب الخلافة قربت إليك يا أمير المؤمنين لتركبها، فقال: مالي ولها نحوها عني وقربوا إليّ دابتي، فقربت إليه فركبها، فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة جرياً على عادة الخلفاء قبله، فقال له: تنحّ عنّي مالي ولك إنّما أنا رجل من المسلمين، ثم سار مختلطاً بين

النّاس حتى دخل المسجد، فصعد المنبر، فاجتمع النّاس إليه، فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبيّ ﷺ، ثم قال: أيّها النّاس إنّي ابتليت بهذا الأمر من غير رأي منّي فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين، وإنّي قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم غيري، فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضيناك أميرنا باليمن والبركة، فلمّا سكتوا حمد الله تعالى وأثنى عليه وصلّى على النبيّ ﷺ، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله، فإنّ تقوى الله تعالى خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف، واعملوا لآخرتكم فإنّه من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وآخرته، وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم، وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنّه هاذم اللذّات، وإنّي والله لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً. يا أيّها النّاس، من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

ثم نزل ودخل دار الخلافة، فأمر بالستور فهتكت وبالبسط فرفعت، وأمر ببيع ذلك وإدخال أثمانه في بيت مال المسلمين، ثم ذهب يتبوّأ مقيلاً، فأتاه ابنه عبد الملك، فقال: ما تريد أن تصنع يا أبت؟ قال: أي بنيّ أقيل، قال: تقيل ولا ترد المظالم؟ قال: أي بنيّ إنّي قد سهرت البارحة في أمر عمّك سليمان، فإذا صلّيت الظهر رددت المظالم، فقال: يا أمير المؤمنين من أين لك أن تعيش إلى الظهر؟ فقال: ادن منّي يا بني، فدنا منه فقبّله بين عينيه، وقال: الحمد لله الّذي أخرج من ظهري من يعينني على ديني. فخرج ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادي: ألا كل من كانت له مظلمة، فليرفعها، فتقدّم إليه ذمي من أهل حمص، فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله، قال: وما ذاك؟ قال: إنّ العباس بن الوليد اغتصبني أرضي والعباس جالس، فقال عمر: ما تقول يا عباس؟ قال: إنّ أمير المؤمنين الوليد أقطعني إيّاها، وهذا كتابه، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، اردد إليه أرضه يا عباس، فردّها إليه. ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان في يد أهل بيته من المظالم إلا ردّه مظلمة مظلمة.

فلمّا بلغ الخوارج سيرته وما ردّ من المظالم، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل، ولمّا بلغ عمر بن الوليد رد الضيعة على الذمي كتب إلى عمر بن عبدالعزيز: إنّك قد أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بهم بغير سيرتهم بغضاً لهم وشيناً لمن بعدهم من أولادهم، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ولن تترك على هذا الحال والسلام.

فلمّا قرأ كتابه كتب إليه: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد، السلام على سيد المرسلين والحمد لله ربّ العالمين، أمّا بعد، فقد بلغني كتابك. أما أوّل شأنك يا بن الوليد فأمّك بنانة أمة السكون كانت تطوف في سوق حمص

وتدخل في حوانيتها، ثم الله أعلم بها ثم اشتراها ذبيان من بيت مال المسلمين فأهداها لأبيك، فحملت بك فبئس المولود، ثم نشأت فكنت جبّاراً عنيداً تزعم أنّي من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الّذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل، وإنّ أظلم منّي وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيهاً على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك، ولم يكن له في ذلك نيّة إلاّ حب الوالد لولده، فويل لأبيك ما أكثر خصماءه يوم القيامة، وكيف ينجو أبوك من خصمائه، وإن أظلم منّي وأترك لعهد الله من استعمل الحجّاج يسفك الدم ويأخذ المال الحرام، وإنّ أظلم منّي وأترك لعهد الله من استعمل قرة أعرابياً جافياً على مصر، وأذن له في المعازف واللهو والشرب، وإنّ أظلم منّي وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية في خمس العرب نصيباً، فرويداً يا بن بنانة فلو التقت حلقتا البطان ورد الفيء إلى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك، فوضعتهم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم في الباطل، ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقّاً، والسلام على من اتّبع الهدى، ولا ينال سلام الله القوم الظالمين.

وروي أنّه وقع في زمانه غلاء عظيم، فقدم عليه وفد من العرب فاختاروا رجلاً منهم لخطابه فتقدّم إليه وقال: يا أمير المؤمنين إنّا وفدنا إليك من ضرورة عظيمة وراحتنا في بيت المال وماله لا يخلو من أن يكون لله أو لعباده أو لك، فإن كان لله فالله غني عنه، وإن كان لعباده فآتهم إيّاه، وإن كان لك فتصدّق به علينا إنّ الله يجزي المتصدّقين، فتغرغرت عينا عمر رضي الله عنه بالدموع وقال: هو كما ذكرت، وأمر بحوائجهم فقضيت، فهمّ الأعرابي بالانصراف فقال عمر: أيّها الرجل كما أوصلت حوائج عباد الله إليّ فأوصل حاجتي وارفع فاقتي إلى الله، فقال الأعرابي: إلٰهي اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه في عبادك. فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت السماء مطراً كثيراً، فجاء في المطر بردة كبيرة فوقعت على جرّة فانكسرت فخرج منها كاغَدُ مكتوب فيه، هذه براءة من الله العزيز الجبّار لعمر بن عبد العزيز من النّار، قال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من أعظم النّاس وأكيس النّاس وأجملهم في مشيته ولبسه، فلمّا استخلف قومت ثيابه وعمامته وقميصه وقباؤه وخفاه ورداؤه فإذا هن يعدلن اثني عشر درهماً.

وذكر ابن عساكر وغيره أنّ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان قد شدّد على أقاربه وانتزع كثيراً ممّا في أيديهم فتبرموا به وسمّوه. ويروى أنّه دعا بخادمه الّذي سمّه، فقال له: ويحك، ما حملك على أن سقيتني السمّ؟ قال: ألف دينار أعطيتها، قال: هاتها، فجاء بها، فأمر بطرحها في بيت مال المسلمين، وقال لخادمه اخرج بحيث لا يراك أحد. وعن فاطمة بنت عبد الملك زوج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنّها قالت: والله ما اغتسل عمر من حلم ولا من جنابة منذ ولي هذا الأمر، وكان نهاره في أشغال النّاس، ورد المظالم وليله في عبادة ربّه تعالى.

قال مسلمة بن عبد الملك: دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أعوده في مرضه الّذي مات فيه فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبد الملك: يا فاطمة اغسلي قميص أمير المؤمنين، فقالت: نفعل إن شاء الله تعالى، ثم عدت فإذا القميص على حاله فقلت: يا فاطمة ألم آمرك أن تغسلي قميص أمير المؤمنين فإنّ النّاس يعودونه، فقالت: والله ما له قميص غيره، وكان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
يغرك ما يفنى وتفرح بالمنى ... كما غر باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما سوف تكره غِبَّهُ ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

واعلم أنّ مناقب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كثيرة جدّاً، فمن أراد معرفة ذلك فعليه «**بسيرة العمرين**» و«**الحلية**» وغيرهما، وكان مرضه رضي الله عنه بدير سمعان من أرض حمص، ولمّا احتضر قال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: إلٰهي أنا الّذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت، ولكن لا إلٰه إلا الله. وتوفّي رضي الله عنه لخمس؛ وقيل: لست مضين؛ وقيل لعشر بقين من رجب الفرد سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر؛ وقيل: وهو ابن أربعين سنة. وكان رضي الله عنه أبيض مليحاً جميلاً مهيباً نحيف الجسم حسن اللحية بجبهته شجة من حافر فرس ضربه وهو صغير، وكان إليه المنتهى في العلم والفضل والشرف والورع والتألّف ونشر العدل، جدّد الله تعالى به للأمة دينها وسار فيها بسيرة جدّه لأمّه عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وكانت دولته في طول مدّة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهم أجمعين، وقبره رضي الله عنه بدير سمعان ظاهر، يزار.

قال الشافعي رضي الله عنه: الخلفاء الراشدون خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم أجمعين. وذكر الحافظ ابن عساكر أنّه لما وضع في قبره بدير سمعان هبّت ريح شديدة فسقطت منها صحيفة مكتوبة بأحسن خط: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، براءة من الله العزيز الجبّار لعمر بن عبد العزيز من النّار، فأخذوها ووضعوها في أكفانه. وكانت خلافته رضي الله عنه سنتين وخمسة أشهر.

خلافة (يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان، بويع له بالخلافة يوم مات ابن عمه عمر بن عبد العزيز بعهد له من أخيه سليمان في ذلك، ولمّا ولي قال: خذوا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فساروا بسيرته أربعين يوماً، فدخل عليه أربعون رجلاً من مشايخ دمشق، وحلفوا له أنّه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب في الآخرة، وخدعوه بذلك فانخدع لهم، وكان طائفة من جهّال الشاميين يعتقدون ذلك. وكان أبيض جسيماً مليح الوجه، وقال بعض المؤرّخين: إنّ يزيد هذا هو المعروف بالفاسق، وهو غلط، وإنّما الفاسق ولده الوليد كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

وذكر الحافظ ابن عساكر رحمه الله وغيره أن يزيد بن عبد الملك كان قد اشترى في أيّام أخيه سليمان جارية من عثمان بن سهل بن حنيف بأربعة آلاف دينار، وكان اسمها حبّابة بتشديد الباء الموحّدة وأحبّها حبّاً شديداً، فبلغ أخاه سليمان ذلك، فقال: هممت أن أحجر على يزيد، فبلغ ذلك يزيد، فباعها خوفاً من أخيه سليمان. فلمّا أفضت الخلافة إليه قالت له زوجته: يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من الدنيا شيء؟ قال: نعم، قالت: وما هو؟ قال: حبّابة. فاشترتها له، وهو لا يعلم وزيّنتها وأجلستها من وراء ستر لها، ثم قالت: يا أمير المؤمنين هل بقي في نفسك من الدنيا شيء؟ قال: أوَما أعلمتك أنّها حبّابة، فرفعت الستر وقالت: ها أنت وحبّابة، وتركته وإيّاها فحظيت عنده وغلبت على عقله، ولم ينتفع به في الخلافة.

وإنّه قال يوماً: إنّ بعض النّاس يقولون: إنّه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كامل من الدهر، وإنّي أريد أن أكذبهم في ذلك، ثم أقبل على لذاته واختلى مع حبّابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكره، فبينما هو على تلك الحالة في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حبّابة حبّة رمّان وهي تضحك، فغصت بها. فماتت، فاختلّ عقل يزيد وتكدّر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً وتركها أياماً لم يدفنها بل يقبّلها ويترشفها حتى أنتنت وجافت، فأمر بدفنها، ثم نبشها من قبرها، ولم يعش بعدها إلاّ خمسة عشر يوماً، وكان مرضه بالسل، وقال فيها:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلّد

وكل خليل زارني فهو قائل ... مِنَ اجلك هذا هالك اليوم أو غد

وسيأتي إن شاء الله تعالى قريب من هذا في باب الدّال المهملة في الدابة عن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام.

وتوفّي يزيد بن عبد الملك بإربل من أرض البلقاء؛ وقيل بالجولان، وحمل على أعناق الرجال إلى دمشق، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير، وذلك لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وله تسع وعشرون؛ وقيل ثمان وثلاثون سنة وشهر، وكانت خلافته أربع سنين وشهراً.

خلافة (هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعده أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان. بويع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد بعهد منه إليه، ولمّا أتته الخلافة كان بالرصافة، فسجد وسجد أصحابه لمّا بشر بها، وسار إلى دمشق.

قال مصعب الزبيري: زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى في منامه أنّه بال في المحراب أربع مرات، فدس من سأل سعيد بن المسيب ـ وكان يعبر الرؤيا ـ فقال: يملك من صلبه أربعة، فكان آخرهم هشاماً انتهى.

وكان هشام حازماً عاقلاً صاحب سياسة حسنة، أبيض جميلاً سميناً أحول يخضب بالسواد، وكان ذا رأي ودهاء وحزم، وفيه حلم وقلّة شره. وقام بالخلافة أتم قيام، وكان يجمع الأموال ويوصف بالبخل والحرص، ويقال: إنّه جمع من الأموال مالاً ما جمعه خليفة قبله. فلمّا مات احتاط الوليد بن يزيد على تركته، فما غسل وكفن إلا بالقرض والعارية وكان به حول.

وتوفّي بالرصافة في شهر ربيع الآخر بدمشق سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة؛ وقيل: أربع وخمسين سنة، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر؛ وقيل عشرين عاماً.

خلافة (الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

وهو السادس فخلع كما سيأتي

ثم قام بالأمر بعده ابن أخيه الوليد بن يزيد الفاسق، كان أبوه حين احتضر عهد بالأمر إلى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد بن يزيد، فلمّا مات هشام بويع له بالخلافة يوم موت عمّه هشام، وهو إذ ذاك بالبرية فارّاً من عمّه هشام لأنّه كان بينه وبين عمّه منافسة لأجل استخفافه بالدّين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق، فهمّ هشام بقتله ففرّ منه وصار لا يقيم بأرض خوفاً من هشام، فلمّا كانت الليلة الّتي قدم عليه البريد في صبيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقاً شديداً. فقال لبعض أصحابه: ويحك إنّه قد أخذني الليلة قلق، فاركب بنا حتى ننبسط، فسارا مقدار ميلين وهما يتحدّثان في أمر هشام وما يتعلق به من كتبه إليه بالتهديد والوعيد، ثم نظرا فرأيا من بعد رهجاً وصوتاً، ثم انكشف ذلك عن برد يطلبونه، فقال لصاحبه: ويحك، إنّ هذه رسل هشام، اللّهم أعطنا خيرهم، فلمّا قرب البرد منها وأثبتوا الوليد معرفة ترجّلوا وجاؤوا فسلّموا عليه بالخلافة فبهت وقال: ويحكم أمات هشام؟ قالوا: نعم، ثم أعطوه الكتب، فقرأها وسار من فوره إلى دمشق فأقام في الخلافة سنة واحدة، ثم أجمع أهل دمشق على خلعه وقتله لاشتهاره بالمنكرات وتظاهره بالكفر والزندقة.

قال الحافظ ابن عساكر وغيره: انهمك الوليد في شربه الخمر ولذّاته ورفض الآخرة وراء ظهره، وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين، وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ويمشي بالدف، وكان قد انتهك محارم الله تعالى، حتى قيل له: الفاسق، وكان أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وظرفاً وأعرفهم بالنحو واللغة والحديث، وكان جواداً مفضالاً ومع ذلك لم يكن في بني أمية أكثر إدماناً للشراب والسماع ولا أشدّ مجوناً وتهتكاً واستخفافاً بأمر الأمة من الوليد بن يزيد، يقال: إنّه واقع جارية له وهو سكران، وجاءه المؤذنون يؤذنونه بالصلاة، فحلف أن لا يصلّي بالنّاس إلاّ هي، فلبست ثيابه وتنكرت وصلّت بالمسلمين، وهي جنب سكرى، ويقال: إنّه اصطنع بركة من خمر، وكان إذا طرب ألقى نفسه فيها وشرب منها حتى

يبين النقص في أطرافها. وحكى الماوردي في «**كتاب أدب الدين والدنيا**» عنه أنّه تفاءل يوماً في المصحف فخرج له قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15]، فمزّق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبّار عنيد فها أنا ذاك جبّار عنيد
إذا ما جئت ربّك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلاّ أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره، ثم على أعلى سور بلده ا هـ، وسيأتي هذا أيضاً إن شاء الله تعالى في باب الطاء المهملة في الكلام على الطيرة في لفظ الطير. وأخباره في مثل هذا كثيرة مشهورة في كتب التواريخ فلا نطيل بذكرها. وقد جاء في الحديث: «**ليكونن في هذه الأمّة رجلٌ يقال له الوليد هو شر من فرعون**»، فتأوّله العلماء الوليد بن يزيد هذا.

ولمّا خلعه أهل دمشق بايعوا ابن عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فقال: من أحضر رأس الوليد فله مائة ألف درهم، وكان الوليد بالبحرة فحصره أصحاب يزيد فهمّ أصحاب الوليد بالقتال فنهاهم عن ذلك، فانفلوا من حوله، ثم دخلوا عليه في قصره، فقال: يوم كيوم عثمان، فقيل له: ولا سواء، فقطع رأسه وطيف به في دمشق، ونصب على قصره، ثم على أعلى سور دمشق.

ولمّا قتل الوليد اضطربت البلاد واستنصر على بني أمية أعداؤهم ولم تقم لهم قائمة بعده. وقتل في جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة، وكانت خلافته سنة واحدة؛ وقيل: سنة وشهرين. وكان من أجمل النّاس وأحسنهم وأقواهم وأجودهم شعراً، وكان فاسقاً مشتهراً منهمكاً متهتّكاً، فقاموا عليه لفسقه وارتكابه القبائح، فخرج عليه تديناً ابن عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقّب بالناقص، وتغلب على دمشق، وكان الوليد بناحية تدمر في الصيد، فجهّز يزيد عسكراً فحاربه إلى أن أحاطوا به بحصن البحرة من أرض تدمر ثم تسوّروا عليه وذبحوه، وأتوا برأسه على رمح ثم نصبوه على سور دمشق.

خلافة (يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك، بويع له بالخلافة يوم خلع ابن عمّه الوليد بن يزيد، وهو أوّل خليفة كانت أمّه أمة، وكان بنو أمية يتحرزون ذلك تعظيماً للخلافة، ولمّا سقط إليهم أنّ ملكهم يزول على يد خليفة أمّه أمة وكانوا يتخوّفون من ذلك إلى أن ولي الخلافة الوليد بن يزيد، فعلموا أن ملكهم قد انقضى، وكان يزيد يسمّى النّاقص، وإنّما سمّي بذلك لأنّه نقص أعطيات النّاس وردّهم إلى ما كانوا عليه أيّام هشام، وقيل: النقصان كان في أصابع رجليه، وأوّل من سمّاه بهذا مروان بن محمد.

وأقام يزيد في الخلافة والأمور مضطربة عليه، وكان مظهراً للنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان ذا دين وورع، إلاّ أنّه لم يمتع. وبغتته المنية. توفّي في ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وهو ابن أربعين سنة؛ وقيل: ست وأربعين، وقال الشافعي رحمه الله تعالى: ولي يزيد بن الوليد، فدعا النّاس إلى القدر وحملهم عليه. وكانت خلافته خمسة أشهر ونصفاً؛ وقيل: ستّة أشهر، والله أعلم.

خلافة (إبراهيم بن الوليد)

ولمّا مات يزيد بويع أخوه إبراهيم بن الوليد بعهد من أخيه يزيد بن الوليد، ولم يثبت له أمر، فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة بالإمارة، وجمعة لا يسلم عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة، وما زالت الأمور مضطربة عليه إلى أن قتله مروان بن محمد وصلبه، وكانت ولايته شهرين وعشرة أيّام، وفي هذا نظر لأنّ مروان بن محمد بن مروان الحمار لمّا سمع بمبايعته وكان نائباً على أذربيجان وتلك النواحي وصاحب الفتوحات سار لحينه ودعا إلى نفسه، وقدم الشام، فجهز له إبراهيم بن الوليد أخويه بشراً ومسروراً فالتقوا وانتصر عليهم مروان، فزحف حتى نزل مرج عذراء فبرز إليه سليمان بن هشام بن عبد الملك، فانكسر فبرز إليه الخليفة إبراهيم بن الوليد وعسكر بظاهر دمشق فخذله جنده وخامروا عليه بعد أن أنفق عليهم الخزائن فاختفى أمرهم، فبايع الناس مروان واستوثق له الأمر فظهر إبراهيم ودخل عليه ونزل له عن الخلافة.

خلافة (مروان بن محمد)

ولمّا قتل إبراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمد المنبوز بالحمار بالخلافة،وفي أيامه ظهر أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة، وظهر السّفاح بالكوفة، وبويع له بالخلافة وجهّز عمّه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم مروان وقتل من عسكره، وغرق ما لا يحصى، وتبعه عبد الله إلى أن وصل إلى نهر الأردن فلقي جماعة من بني أمية وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، فقتلهم عن آخرهم، ثم أمر عبد الله بسحبهم، فسحبوا وبسط عليهم بساطاً، وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم، فقال عبد الله: يوم كيوم الحسين ولا سواء، ثم جهّز السفّاح عمّه صالح بن عليّ على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله، وقد نازل دمشق ففتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيّام، ونقض عبد الله سورها حجراً حجراً، وهرب مروان إلى مصر فتبعه صالح.

وقتل مروان بأبي صير قرية من قرى الصعيد، كما سيأتي في باب الهاء في لفظ الهر، وكان قد عزم على الدخول إلى الحبشة، فبيتوه فقال حين قتل: انقرضت دولتنا، وكان بطلاً شديداً شجاعاً مهاباً ذا هيئة، أبيض ربعة أشهل ضخماً كث اللحية، وكان حازماً سائساً.

وتمزّقت بموته دولة بني أمية، وكان قتل مروان الجعدي في سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وهو ابن ست وخمسين سنة، وكانت خلافته خمس سنين؛ قيل: وشهرين وعشرة أيّام، وهو آخر خلفاء بني أمية، وهم أربعة عشر خليفة، أوّلهم: معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وآخرهم: مروان الجعدي المنبوز بالحمار، وكانت مدّة خلافتهم نيفاً وثمانين سنة، وهي ألف شهر. ولمّا انقضت دولتهم علم ما قال الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ لما قيل له: تركت الخلافة لمعاوية؟ فقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3]. وبدولة مروان اختلّ النظام في أنّ كل سادس يخلع لأنّ العدة لم تكمل، لأنّ الوليد بن يزيد المخلوع لم يل بعده من بني أميّة سوى ثلاثة: يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم أخوه إبراهيم ثم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وبه انقرضت دولة بني أمية، وجاءت الدولة العباسية ثبتها الله تعالى إلى قيام الساعة.

الدولة العباسية

خلافة (أبي العباس السفّاح)

قال المؤرّخون: ولمّا أتى الله تعالى بالدولة العباسية كان أوّلهم السفّاح، وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي، بويع له بالخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة يوم الجمعة ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، واستوزر أبا سلمة حفصاً الخلالي وهو أوّل من لقب بالوزير، واستمرّ اللقب لمن بعده إلى زمن الصاحب بن عبّاد، وإنّما سمّي بالصاحب لأنّه صحب ابن العميد واستمرّ على هذا الوزراء بعده إلى زمننا. قال الإمام أبو الفرج بن الجوزي وغيره: إنّ السفّاح خطب يوماً فسقطت العصا من يده فتطيّر بذلك، فقام شخص من أصحابه ومسح العصا وناوله إيّاها وأنشد:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

فسُرّيَ عنه.

وذكر ابن خلكان في ترجمته أنّه نظر يوماً في المرآة، وكان من أجمل النّاس وجهاً، فقال: اللّهم إنّي لا أقول كما قال سليمان بن عبد الملك، ولكنّي أقول: اللّهمّ عمّرني طويلاً في طاعتك متمتعاً بالعافية، قال: فما استتم كلامه حتى سمع غلاماً يقول لغلام آخر: الأجل بيني وبينك شهران وخمسة أيّام، فتطيّر من كلامه، وقال: حسبي الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله عليه توكلت وبه استعنت، فما مضت الأيام المذكورة حتى أخذته الحمّى فمرض ومات بعد شهرين وخمسة أيّام بالجدري بالأنبار بمدينته الّتي بناها وسمّاها الهاشمية، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ونصف سنة. وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، وكان أبيض مليحاً جميلاً حسن اللحية والهيئة.

خلافة (أبي جعفر المنصور)

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد المنصور، بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه بعهد منه، وكان السفّاح قد ولاّه إمرة الحج، فأتته الخلافة بمكان يعرف بالصافية، فقال: صفا أمرنا إن شاء الله تعالى فبايعه النّاس وحجّ بهم، فلمّا رجع ودخل الهاشمية بايعه النّاس البيعة العامة، وإنّه حج ثانياً، فلمّا قرب من مكّة رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من ريب المنية دافع

فلمّا قرأهما تيقّن انقضاء أجله فمات بعد ثلاثة أيّام، وكان قد رأى في نومه قبل موته قائلاً يقول:

كأنّي بهذا القصر قد باد أهله وعُرِّيَ منه أهله ومنازله
وصار رئيس القوم من بعد بهجة إلى جدث تبنى عليه جنادله

وكانت وفاته في سنة ثمان وخمسين ومائة ببئر ميمونة على أميال من مكّة وهو محرم بالحج وهو ابن ثلاث وستّين سنة، وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً و عة عشر يوماً. وأمّه بربرية. وكان طويلاً أسمر نحيفاً خفيف اللحية رحب الجبهة كأن عينيه لسانان، ناطقاً صارماً مهيباً ذا جبروت وسطوة وحزم ورأي وشجاعة وكمال عقل ودهاء وعلم وفقه وخبرة بالأمور، تقبله النفوس وتهابه الرجال، وكان يخلط أبهة الملك بزي النسك، وكان بخيلاً بالمال إلاّ عند النوائب.

خلافة (محمد المهدي)

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو عبد الله محمد المهدي بالله، بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المنصور بعهدٍ منه، وهو يومئذٍ ببغداد، ثم بويع له بها لإحدى عشرة من ذي الحجة البيعة العامة، وتوفي بقرية من قرى ماسبذان ساق خلف صيد فدخل خربة فدق ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس فتلف لوقته، وقيل: بل سمّته جاريته؛ قيل: إنّها جعلت السم في طعام لضرّتها، فدخل ومد يده فأكل فما جسرت أن تقول له: هو مسموم. وكانت وفاته لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة، ولم يوجد له نعش يحمل عليه فحمل على باب، ودفن تحت شجرة جوز، وله اثنتان وأربعون سنة ونصف؛ وقيل: ثلاث وأربعون سنة. وكانت خلافته عشر سنين وشهراً، وكان جواداً ممدوحاً محبباً إلى رعيّته حسن الخلق، يقال: إنّ أباه خلف في الخزائن مائة ألف ألف درهم وستّين ألف درهم ففرقها، ويقال: إنّه أجاز شاعراً بمائة ألف ألف درهم.

خلافة (موسى الهادي)

ثم قام بالأمر بعده ابنه موسى الهادي، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وكان مقيماً بجرجان يحارب أهل طبرستان، بويع له بماسبذان ثم أخذ له أخوه الرشيد البيعة ببغداد وبعث إليه يعزيه في والده ويهنيه بالخلافة، فقدم بغداد على خيل البريد، فتلقاه النّاس وبايعوه، ثم عزم على خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد، فعاجله القضاء وحال بينه وبين مراده، وكانت وفاة الهادي ببغداد رابع عشر شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وله أربع وعشرون سنة؛ وقيل: نحو من خمس وعشرين سنة بقرحة أصابته، وكانت خلافته سنة واحدة وخمسة وأربعين يوماً؛ وقيل: سنة وشهرين. وكان طويلاً مليحاً جسيماً ذا ظلم وجبروت سامحه الله تعالى.

خلافة (هارون الرشيد)

ثم قام بالأمر بعده أخوه هارون الرشيد بن محمد المهدي، وكان أبوهما قد أخذ لهما ولاية العهد معاً، بويع له بالخلافة في اللّيلة الّتي توفي فيها أخوه، وولد له في تلك اللّيلة المأمون، وكانت ليلة عجيبة لم ير مثلها في بني العباس، مات فيها خليفة وولد فيها خليفة وولّي فيها خليفة، ولمّا بويع الرّشيد قلّد يحيى بن خالد بن برمك وزارته، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب العين المهملة في لفظ العقاب إيقاع الرّشيد بالبرامكة. وقتله جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وتخليد يحيى وولده الفضل في السّجن إلى أن ماتا، وسبب ذلك مبيناً إن شاء الله.

ومن غريب ما اتفق لهارون الرّشيد أنّ أخاه موسى الهادي لمّا ولّي الخلافة سأل عن خاتم عظيم القدر كان لأبيه المهدي فبلغه أنّ الرّشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع من إعطائه فألحّ عليه فيه فحنق عليه الرّشيد، ومرّ على جسر بغداد فرماه في الدجلة، فلمّا مات الهادي وولّي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم رصاص فرماه في ذلك المكان، وأمر الغطّاسين أن يلتمسوه ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعد ذلك من سعادة الرّشيد وإبقاء ملكه.

ونظير هذا ما حكاه ابن الأثير في حوادث سنة ستّين وخمسمائة. قال: لمّا فتح السلطان الملك الناصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب قلعة بانياس وأخذها من الفرنج ملأها ذخائر وعدّة ورجالاً، ثم عاد إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت قيمته ألف ومائة دينار، فسقط من يده في شجرة بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفّة الأغصان. فلما بعد عن المكان الّذي ضاع فيه الخاتم علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلّهم على مكانه، وقال: أظنّه هناك سقط، فرجعوا إليه فوجدوه، انتهى.

وكان الرشيد مع عظم ملكه يعتريه خوف الله تعالى، فمن ذلك ما ذكره الإمام العلاّمة

محمد بن ظفر وغيره أنّ خارجياً خرج عليه فقتل أبطاله وانتهب أمواله مراراً، ثم إنّه جهّز إليه مرّة جيشاً كثيفاً فقاتلوه فغلبوه بعد جهد وأمسكوه وأتوا به الرّشيد، فجلس مجلساً عاماً وأمر بإدخاله عليه، فلمّا مثل بين يديه قال له: يا هذا ما تريد أن أصنع بك؟ قال: ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه؟ فعفا عنه، وأمر بإطلاقه، فلمّا خرج قال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين رجل قتل أبطالك وانتهب أموالك تطلقه بكلمة واحدة؟ تأمّل هذا الأمر فإنّه مما يجرىء عليك أهل الشر، فقال الرّشيد: ردّوه، فعلم الرجل أنّه قد تكلّم في أمره فقال: يا أمير المؤمنين لا تطعهم فلو أطاع الله فيك النّاس ما ولاّك طرفة عين، قال: صدقت، ثم أمر له بصلة وصرفه. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما اتفق له في الفضيل بن عياض وسفيان الثوري في باب الباء الموحدة والفاء.

وتوفّي الرّشيد في سنة ثلاث وتسعين ومائة بطوس ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة، وهو ابن سبع وأربعين سنة؛ وقيل: خمس وأربعين، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً؛ وقيل: ثلاثاً وعشرين فقط. وولد بالري، وكان جواداً ممدوحاً غازياً مجاهداً شجاعاً مهيباً مليحاً أبيض طويلاً عبل الجسم قد وخطه الشيب، يقال إنّه: منذ استخلف، كان يصلّي كل يوم وليلة مائة ركعة، ويتصدّق من خالص ماله بألف درهم، وكان له معرفة جيدة بالعلوم.

خلافة (محمد الأمين)

وهو السادس فخلع وقتل كما سيأتي

ثم قام بالأمر بعده ابنه محمد الأمين، بويع له بالخلافة يوم توفّي والده بطوس واستناب أخاه المأمون على ممالك خراسان، وهو إذ ذاك ببغداد، فورد بها عليه خاتم الخلافة والبردة والقضيب، ثم بويع له بها البيعة العامة، وفي سائر الآفاق، وكان الرّشيد قد جدّد البيعة بطوس بولاية العهد لابنه المأمون بعد الأمين وأشهد على نفسه أنّ جميع ما معه من مال وسلاح وغير ذلك للمأمون، وأوصى أن يكون ما معه من الجيوش مضمومين إليه بخراسان. فلمّا مات الرّشيد نادى الفضل بن الربيع في عسكر الرشيد بالرحيل إلى بغداد وخالف وصية الرّشيد. فعظم ذلك على المأمون وكتب إلى الفضل يذكره العهود الّتي أخذها عليه الرّشيد ويحذّره البغي ويسأله الوفاء، فلم يلتفت الفضل إليه، فكان هذا الأمر سبب ابتداء الوحشة بين الأمين والمأمون.

وذكر أبو حنيفة في «**الأخبار الطوال**» وغيره عن الكسائي أنّه قال: إنّ الرّشيد ولاّني تأديب الأمين والمأمون، فكنت أشدّد عليهما في الأدب وآخذهما به أخذاً شديداً وخاصة الأمين، فأتتني ذات يوم خالصة جارية زبيدة، وقالت: يا كسائي إنّ السيدة تقرأ عليك السلام، وتقول لك: حاجتي إليك أن ترفق بابني محمد فإنّه قرّة عيني وثمرة فؤادي وأنا أرق عليه رقّة

شديدة فقلت لخالصة: إنّ محمداً مرشح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير في أمره، فقالت خالصة: إنّ لرقّة هذه السيدة سبباً أنا أخبرك إيّاه، إنّها في الليلة الّتي ولدته فيها رأت في منامها كأن أربع نسوة أقبلن إليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه، فقالت الّتي بين يديه: ملك قليل العمر، عظيم الكبر، ضيق الصدر، واهي الأمر، كبير الوزر، شديد الغدر، وقالت الّتي من ورائه: ملك قصاف، مبذر متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإسراف، وقالت الّتي عن يمينه: ملك عظيم الطخم[1]، قليل الحلم، كثير الإثم، قطوع للرحم، وقالت الّتي عن يساره: ملك غدّار، كثير العثار، سريع الدمار. ثم بكت خالصة وقالت: يا كسائي وهل ينفع الحذر من القدر؟.

ثم إنّ المأمون خلع الأمين من الخلافة وجهّز لقتاله طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، فسارا إليه وحاصراه ببغداد بعد حروب كثيرة ببغداد وترامواً بالمجانيق، وجرت بينهم وقائع في أيّام متعددة، وعظم الأمر واشتدّ البلاء حتى خرب بسبب ذلك منازل المدينة.

ووثب العيارون على أموال النّاس فانتهبوها وأقام الحصار مدّة سنة فتضايق الأمر على الأمين وفارقه أكثر أصحابه، وكتب طاهر إلى وجوه أهل بغداد سراً يعدهم إن أعانوه ويتوعدهم إن لم يدخلوا في طاعته فأجابوه وصرحوا بخلع الأمين، وتفرّق عنه أكثر من معه، فالتجأ إلى مدينة أبي جعفر فحاصره طاهر بها ومنعه من كل شيء حتى كاد هو وأصحابه يموتون جوعاً وعطشاً. فلمّا عاين الأمين ذلك كاتب هرثمة بن أعين وطلب منه أن يؤمنه حتى يأتيه، فأجابه إلى ذلك، فبلغ ذلك طاهراً فشق عليه كراهية أن يظهر الفتح لهرثمة دونه، فلمّا كان يوم الخميس لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة خرج الأمين إلى هرثمة فلقيه هرثمة في حراقة فركب الأمين معه، وكان طاهر قد أكمن للأمين، فلمّا صار الأمين في الحراقة خرج عليه كمين طاهر ورموا الحراقة بالحجارة فغرق من فيها فشق الأمين ثيابه وسبح إلى بستان، فأدركوه وأخذوه وحملوه على برذون وأتوا به طاهراً فبعث إليه جماعة وأمرهم بقتله فهجموا عليه وبأيديهم السيوف، فركبوا عليه وذبحوه من قفاه، وأخذوا رأسه وأتوا به طاهراً، فأمر بنصبه، فلمّا رآه النّاس سكنت الفتنة، ثم جهّزه طاهر إلى المأمون وصحبته خاتم الخلافة وبردة رسول الله ﷺ وقضيبه، فلمّا وضع الرأس بين يديه خر ساجداً شكراً لله تعالى على ما رزقه من الظفر وأمر للرسول بألف ألف درهم. وذكر عن الأصمعي أنّه قال: دخلت على الرّشيد وكنت قد غبت عنه بالبصرة حولاً فسلّمت عليه بالخلافة فأومأ إليّ بالجلوس قريباً منه، فجلست قليلاً ثم نهضت فأومأ إليّ أن اجلس، فجلست حتى خفّ النّاس. ثم قال لي: يا أصمعي ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله بنيَّ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين إني لأحب ذلك، وما أردت القصد

(١) الطخم: التكبر.

إلا إليهما لأسلّم عليهما، فقال: يكفي ذلك ثم قال: عليَّ بمحمّد وعبد الله، فانطلق الرسول إليهما وقال: أجيبا أمير المؤمنين، فأقبلا كأنهما قمرا أفق قد قاربا خطاهما ورميا ببصرهما الأرض حتى وقفا على أبيهما، فلمّا سلّما عليه بالخلافة فأومأ إليهما بالجلوس، فجلس محمد عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقي عليهما شيئاً من فنون الأدب إلاّ أجابا فيه وأصابا، فقال: كيف ترى أدبهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة فهمهما، وذهنهما، فأطال الله تعالى بقاءهما ورزق الأمّة من رأفتهما ومعطفتهما فضمهما إلى صدره، وسبقته عبرته، فبكى حتى تحدرت دموعه على لحيته، ثم أذن لهما في القيام فنهضا حتى إذا خرجا قال لي: يا أصمعي كيف بهما إذا ظهر تعاديهما وبدا تباغضهما ووقع بأسهما بينهما حتى تسفك الدماء، ويود كثير من الأحياء أنّهم كانوا موتى؟ قلت: يا أمير المؤمنين هذا شيء قضى به المنجمون عند مولدهما أو شيء أثرته[1] العلماء في أمرهما، قال: لا بل شيء أثرته العلماء عن الأوصياء عن الأنبياء في أمرهما، وكان المأمون يقول في خلافته: كان الرّشيد سمع جميع ما يجري بيننا من موسى بن جعفر، ولذلك قال ما قال.

وذكر صاحب «**عيون التواريخ**» وغيره: أنّ المأمون مرّ يوماً على زبيدة أمّ الأمين فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه، فقال لها: يا أمّاه أتدعين عليّ لكوني قتلت ابنك وسلبته ملكه؟ فقالت: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: فما الّذي قلته؟ قال: يعفيني أمير المؤمنين فألحّ عليها وقال: لا بد أن تقوليه، قالت: قلت قبّح الله الملاححة، قال: وكيف ذلك؟ قالت: لأني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرّشيد بالشطرنج على الحكم والرضا، فغلبني فأمرني أن أتجرّد من أثوابي وأطوف القصر عريانة، فاستعفيته، فلم يعفني، فتجرّدت من أثوابي وطفت القصر عريانة، وأنا حنقة عليه، ثم عاودنا اللعب فغلبته فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة فيه، فاستعفاني من ذلك، فلم أعفه، فبذل إلي خراج مصر والعراق فأبيت، وقلت: والله لتفعلن ذلك، فأبى، فألححت عليه، وأخذت بيده وجئت به للمطبخ فلم أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أشوه خلقة من أمّك مراجل فأمرته أن يطأها، فوطئها فعلقت منه بك، فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه، فولّى المأمون وهو يقول: لعن الله الملاححة أي الّتي ألحّ عليها حتى أخبرته بهذا الخبر.

وقتل الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة؛ وقيل: سبع وعشرين، وكان طويلاً أبيض، بديع الحسن، وكانت خلافته أربع سنين وثمانية شهور؛ وقيل ثلاثة أعوام وأيّاماً لأنّه خلع في رجب سنة ستّ، ومن حسب له إلى موته فخلافته خمس سنين خلا أشهراً. وكان مبذراً للأموال

(١) أَثَرَتْه: تناقلته.

لعاباً لا يصلح للخلافة، وكان مشتغلاً باللهو والقصف والإقبال على اللذات، فقال فيه بعضهم من أبيات:

إذا غدا ملك باللهو مشتغلاً فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

خلافة (عبد الله المأمون)

ثم قام بالأمر بعده أخوه عبد الله المأمون، بويع له بالخلافة البيعة العامة صبيحة الليلة الّتي قتل فيها الأمين بإجماع من الأمّة على ذلك خلا ما كان من أمير الأندلس، فإنّه كان والأمراء قبله وبعده لم يتقيّدوا بطاعة العباسيين لبعد الديار، قال في «**الأخبار الطوال**»: كان المأمون شهماً بعيد الهمّة أبيّ النفس، وكان نجم بني العباس في العلم والحكمة، وكان قد أخذ من العلوم بقسط وضرب فيها بسهم، وهو الّذي استخرج كتاب إقليدس وأمر بترجمته وتفصيله، وعقد المجالس في خلافته للمناظرة في الأديان والمقالات، وكان أساذه فيها أبا الهذيل محمد بن الهذيل البصري المعتزلي الّذي يقال له العلاّف. وستأتي الإشارة إليه في باب الباء الموحّدة في لفظ البرذون.

وفي أيّامه ظهر القول بخلق القرآن، وقال غيره: إنّ القول بخلق القرآن ظهر في أيّام الرّشيد، وكان النّاس فيه بين أخذ وترك إلى زمن المأمون، فحمل النّاس على القول بخلق القرآن، وكل من لم يقل بخلق القرآن عاقبه أشدّ عقوبة، وكان الإمام أحمد رضي الله عنه إمام أهل السنّة من الممتنعين من القول بخلق القرآن، فحمل إلى المأمون مقيداً، فمات المأمون قبل وصوله إليه، وسيأتي ذكر محنته في خلافة المعتصم، وقالوا: دخل المأمون بلاد الجزيرة والشام وقام بها مدّة طويلة، ثم غزا الرّوم وفتح فتوحات كثيرة، وأبلى بلاء حسناً. وتوفّي بنهر بردى لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب؛ وقيل: لثمان مضين منه سنة ثمان عشرة ومائتين، وهو ابن تسع وأربعين سنة؛ وقيل تسع وثلاثين والأوّل أصحّ؛ وقيل: ثمان وأربعين. وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر، ودفن بطرسوس قال ابن خلكان: كان المأمون عظيم العفو جواداً بالمال عارفاً بالنجوم والنحو وغيرهما من أنواع العلوم خصوصاً علم النجوم، وكان يقول: لو يعلم النّاس ما أجد في العفو من اللذة لتقربوا إلي بالذنوب، وقال غيره: إنّه لم يكن في بني العباس أعلم من المأمون، وكان يشتغل بعلم النجوم كثيراً، وفي ذلك يقول الشاعر:

هل علوم النجوم أغنت عن المأ مون شيئاً أو ملكه المأنوس
خلفوه بساحتي طرسوس مثل ما خلفوا أباه بطوس

وكان أبيض مليح الوجه، مربوعاً، طويل اللحية، ديّناً عارفاً بالعلم فيه دهاء وسياسة.

خلافة (أبي إسحاق إبراهيم المعتصم)

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو إسحاق إبراهيم المعتصم بن هارون الرّشيد، بويع له بالخلافة يوم موت أخيه بعهد منه، فأمر بهدم ما بنوا من طوانة، وغزا عمورية وأناخ عليها وحاصرها حصاراً شديداً، ولم يكن في بني العباس مثله في القوّة والشجاعة والإقدام؛ قيل: إنّه أصبح ذات يوم برد عظيم وثلج فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه، فأوتر المعتصم في ذلك اليوم أربعة آلاف قوس ولم يزل يحاصرها حتى فتحها عنوة واحتوى على ما فيها من الأموال وغيرها وأخذ أهلها أسرى.

ولما ولّي طلب الإمام أحمد وكان في سجن المأمون كما تقدّم، وامتحنه بخلق القرآن كما سنذكره إن شاء الله تعالى، وتلخيص ما كان من أمره أنّ هارون الرّشيد لم يقل بخلق القرآن مدّة خلافته، ولهذا السبب كان الفضيل بن عياض يتمنّى طول عمر الرّشيد لأنّه والله أعلم كان قد كشف له بأنّ فتنة تحدث بعد موت الرّشيد ولم تحدث في أيّام خلافته فتنة، ولكن كان الأمر في زمن ولايته بين أخذ وترك كما قدمنا قريباً، إلى أن ولي ابنه المأمون فقال بخلق القرآن، وبقي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في دعواه النّاس إلى ذلك إلى أن قوي عزمه في السنة الّتي مات فيها، فحمل النّاس على القول بخلق القرآن، وكل من لم يقل بخلقه عاقبه أشدّ عقوبة، وإنّه طلب الإمام أحمد بن حنبل وجماعة، فحمل إليه الإمام أحمد، فلمّا كان ببعض الطريق توفّي المأمون وعهد إلى أخيه المعتصم بالخلافة وأوصاه بأن يحمل النّاس على القول بخلق القرآن.

واستمر الإمام أحمد محبوساً إلى أن بويع المعتصم، فأحضر الإمام أحمد إلى بغداد وعقد له مجلساً للمناظرة، وفيه عبد الرّحمٰن بن إسحٰق والقاضي أحمد بن أبي دؤاد وغيرهما، فناظروه ثلاثة أيّام، ولم يزل معهم في جدال إلى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب بالسياط، ولم يزل عن الصراط إلى أن أغمي عليه ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه بارية[1] وديس عليه ثم حمل وصار إلى منزله، وكانت مدّة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتي ويحدّث إلى أن مات المعتصم. وولّي الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة. وقال للإمام أحمد: لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكنّي في بلد أنا فيه، فأقام الإمام أحمد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وولّي المتوكّل فرفع المحنة وأمر بإحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه وأطلق له مالاً كثيراً فلم يقبله وفرّقه على الفقراء والمساكين، وأجرى المتوكّل على أهله وولده في كل شهر أربعة آلاف درهم، فلم يرض الإمام أحمد بذلك رحمه الله تعالى. وذكر العراقي في «**مجمع الأخبار**» وغيره أنّه نوظر في الأيام الثلاثة وأنّ المعتصم كان يخلو به، ويقول: ويحك يا أحمد أنا والله عليك شفيق وإنّي

(١) بارية: حصير.

لأشفق عليك مثل شفقتي على ابني هارون يعني الواثق، فأجبني: فوالله لئن أجبتني لأطلقن غلّك بيدي ولأطأن عتبتك ولأركبن إليك بجندي، فيقول: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالى أو سنّة رسول الله ﷺ، فإذا طال به المجلس ضجر وقام ورد أحمد في الموضع الّذي كان فيه وتردّد إليه رسل المعتصم يقولون: يا أحمد، أمير المؤمنين يقول لك: ما تقول في القرآن؟ فيرد عليهم كما ردّ أوّلاً، فلمّا كان في اليوم الثالث طلب للمناظرة، فأُدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيّات والقاضي أحمد بن أبي دؤاد، فقال المعتصم: كلّموه وناظروه. فلم يزالوا معه في جدال إلى أن قالوا: يا أمير المؤمنين، اقتله ودمه في أعناقنا، فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد فخرّ مغشياً عليه فتمعّرت وجوه قوّاد خراسان، وكان عم أحمد فيهم فخاف الخليفة منهم على نفسه، فدعا بماء ورشّ على وجهه، فلمّا أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمّه وقال: يا عمّ لعل هذا الماء الّذي رشّ على وجهي غصب عليه صاحبه، فقال المعتصم: ويحكم أما ترون ما يتهجّم به علي هذا وقرابتي من رسول الله ﷺ؟ لا رفعت السوط عنه حتى يقول: القرآن مخلوق، ثم التفت إلى أحمد وأعاد عليه القول، فردّ أحمد كالأوّل فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس، فعند ذلك قال: عليك لعنة الله لقد كنت طمعت فيك قبل هذا، خذوه اخلعوه اسحبوه، فأُخذ وسحب، ثم خلع ثم قال المعتصم: السياط، قال الإمام أحمد: وكان عندي شعرات من شعر النبيّ ﷺ قد صررتها في كم قميصي، فجاء بعض القوم إلى قميصي ليحرقه، فقال له المعتصم: لا تحرقوه وانزعوه عنه، وإنّما درىء عن القميص الحرق ببركة شعر النبيّ ﷺ وشدّوا يديه فتخلّعت. ولم يزل أحمد يتوجّع منها حتى مات، ثم قال المعتصم للجلاّدين: تقدّموا، ونظر إلى السياط، فقال: ائتوا بغيرها، ثم قال لأحدهم: أذمه وأوجع قطع الله يدك، فتقدّم وضربه سوطين ثم تنحّى ثم قال لآخر: أذمه وشدّ قطع الله يدك، فتقدّم وضربه سوطين، ثم تنحّى ولم يزل يدعو رجلاً رجلاً فيضربه كل واحد سوطين ويتنحّى، ثم قام المعتصم وجاءه وهم محدقون به، وقال: يا أحمد تقتل نفسك؟ أجبني حتى أطلق غلّك بيدي، وجعل بعضهم يقول له: يا أحمد إمامك على رأسك قائم فأجبه وعجيف ينخسه بالسيف ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلّهم، وبعضهم يقول: يا أمير المؤمنين اجعل دمه في عنقي، فرجع المعتصم إلى الكرسي، ثم قال للجلاّد: أذمه قطع الله يدك، ثم جاء المعتصم إليه ثانياً، وقال: يا أحمد أجبني، فقال كالأوّل، فرجع المعتصم وجلس على الكرسي ثم قال للجلاّد: شدّ عليه قطع الله يدك.

قال أحمد: فذهب عقلي فما عقلت إلا وأنا في حجرة مطلق عنّي، وكل ذلك وهو صائم لم يفطر رضي الله عنه، وضرب ثمانية عشر سوطاً، فلمّا كان في أثناء الضرب انحلّت وزرته فهمهم بشفتيه فخرجت يدان فربطتاها فسئل عن ذلك بعد إطلاقه فقال: قلت: اللّهمّ إن كنت على الحق فلا تفضحني. ثم وجّه المعتصم رجلاً ينظر الضرب والجراحات ويعالجه، فنظر إليه

وقال: والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت ضرباً أشد من هذا، ثم عالجه وبقي أثر الضرب بيّناً في ظهره إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وقال صالح: سمعت أبي يقول: والله لقد أعطيت المجهود من نفسي ولوددت أنّي أنجو من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي.

وحكي أنّ الشافعي رضي الله عنه لمّا كان بمصر رأى في المنام سيد المرسلين ﷺ وهو يقول له: «بشر أحمد بن حنبل بالجنّة على بلوى تصيبه فإنّه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب إلى ذلك، بل يقول هو منزّل غير مخلوق». فلمّا أصبح الشافعي رضي الله عنه كتب صورة ما رآه في منامه وأرسله مع الرّبيع إلى بغداد إلى أحمد، فلمّا وصل إلى بغداد قصد منزل أحمد واستأذن عليه، فأذن له، فلمّا دخل عليه قال له: هذا كتاب أخيك الشافعي، فقال له: هل تعلم ما فيه؟ قال: لا، ففتحه وقرأه وبكى وقال: ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله، ثم أخبره بما فيه، فقال: الجائزة، وكان عليه قميصان أحدهما على جسده والآخر فوقه، فنزع الّذي على جسده ودفعه إليه، فأخذه ورجع إلى الشافعي، فقال له الشافعي: ما أجازك؟ قال: أعطاني القميص الّذي على جسده، فقال: أمّا أنّا فلا أفجعك فيه، ولكن اغسله وائتني بمائه، فغسله وأتاه بالماء فأفاضه على سائر جسده.

وقال إبراهيم الحربي: جعل الإمام أحمد بن حنبل جميع من ضربه أو حضره أو ساعد عليه في حل إلا ابن أبي دؤاد، وقال: لو لا أنّه ذو بدعة لأحللته ولو تاب من بدعته لأحللته. وقال أحمد بن سنان: بلغنا أنّ أحمد بن حنبل جعل المعتصم في حل يوم فتح بابل أو فتح عمورية وقال: هو في حل من ضربي.

قال عبد الله بن الورد: رأيت النبيّ ﷺ في المنام، فقلت له: يا رسول الله ما شأن أحمد بن حنبل؟ فقال ﷺ: «سيأتيك موسى بن عمران فاسأله»، فإذا أنا بموسى بن عمران عليه السلام، فقلت: يا كليم الله ما شأن أحمد بن حنبل؟ فقال: أحمد بن حنبل بلي في السراء والضراء فوُجد صابراً صادقاً فأُلحق بالصدّيقين، والحكمة في إحالة النبيّ ﷺ على موسى عليه السلام أمور منها بيان فضيلة أمّة محمد ﷺ على الأمم، حتى إنّ موسى عليه السلام يبيّن ذلك ويقرره، ومنها بيان فضل الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وما جعل له من الثواب العظيم في المحنة لما جرى عليه، حتى إنّه شهد بعظيم فضله وعلو منزلته نبيّ كريم، ومنها أنّ محنة الإمام أحمد في كون القرآن مخلوقاً، وهو كلام الله تعالى وموسى بن عمران عليه السلام كليم الله تعالى كلّمه الله تكليماً وهو يعلم أنّ القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق فناسب الإحالة ليعرف النّاس ذلك ليزداد يقينهم بأنّه منزّل غير مخلوق.

وذكر ابن خلكان في «ترجمته» أنّه ولد في سنة أربع وستّين ومائة، وتوفّي في سنة إحدى وأربعين ومائتين، وحزر من حضر جنازته من الرجال، فكانوا ثمانمائة ألف ومن النساء ستّين ألفاً وأسلم يوم موته عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس، انتهى.

وقال الإمام النووي في «**تهذيب الأسماء واللغات**»: إنّ المتوكل أمر أن يقاس الموضع الّذي وقف النّاس فيه للصلاة على الإمام أحمد، فبلغ مقام ألفي وخمسمائة ألف، ووقع المأتم في أربعة أصناف: في المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. انتهى.

قال محمد بن خزيمة: لمّا بلغني موت الإمام أحمد بن حنبل اغتممت غمّاً شديداً فرأيته من ليلتي في المنام وهو يتبختر في مشيته، فقلت: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية؟ فقال: مشية الخدام في دار السلام، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي وتوّجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال: يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي غير مخلوق، ثم قال تبارك وتعالى: يا أحمد ادعني بتلك الدعوات الّتي بلغتك عن سفيان الّتي كنت تدعو بهن في دار الدّنيا، قال: فقلت: يا رب كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء لا تسألني عن شيء واغفر لي كل شيء، فقال جلّ وعلا: يا أحمد هذه الجنّة، قم فادخلها، فدخلتها فإذا أنا بسفيان الثوري له جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة، وهو يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: 74]، قال: قلت: ما فعل الله بعبد الوهاب الورّاق؟ قال: تركته في بحر من نور في زورق من نور يزور به الملك الغفور، فقلت: فما فعل ببشر بن الحارث؟ فقال لي: بخ بخ، ومَنْ مثلُ بشر؟ تركته بين يدي الله جلّ جلاله، وبين يديه مائدة من الطعام والجليل جلّ جلاله مقبل عليه وهو يقول: كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب، وانعم يا من لم ينعم.

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين احتجم المعتصم بسر من رأى فحم ومات وذلك لاثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأوّل وهو ابن ثمان أو سبع وأربعين سنة. وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية شهور وثمانية أيّام، وهو الثامن من خلفاء بني العباس، وخلف من الذهب ثمانية آلاف دينار ومن الدراهم ثمانية عشر ألف ألف درهم، ومن الخيل ثمانية آلاف فرس، ومثلها من الجمال والبغال، ومن المماليك ثمانية آلاف مملوك وثمانية آلاف جارية. وكان يقال له: الثماني لأجل ذلك، وكان أميّاً وذلك أنّه كان له مملوك صغير يذهب معه إلى الكتاب، فمات فقال له الرّشيد: مات مملوكك يا إبراهيم، فقال: استراح من الكتاب يا أمير المؤمنين، فقال: أوَ بلغ الكتاب منك إلى هذا الحد، اتركوا ولدي لا تعلّموه، فكان أميّاً لذلك. وكان أبيض أصهب اللحية مربوعاً، وكان شجاعاً مهيباً قوي البدن إلى الغاية، فتح الفتوحات الكبار مثل عمورية من أقصى بلاد الرّوم، ودانت له الأمم وكان فيه ظلم وعنف، وبذلك أرهف الأعداء سامحه الله تعالى.

خلافة (هارون الواثق بالله)

ثم قام بالأمر بعده ابنه هارون الواثق بالله، بويع بالخلافة بسر من رأى يوم موت أبيه، ونفذت البيعة إلى بغداد واستقرّ له الأمر ببغداد وغيرها. ولمّا ولي قتل أحمد بن نصر الخزاعي على القول بخلق القرآن ونصب رأسه إلى الشرق، فدار إلى القِبلة، فأجلس رجلاً معه رمح أو

قصبة فكان كلّما دار الرأس إلى القبلة أداره إلى الشرق. وروي أنّه رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك، فقال: غفر لي ورحمني إلاّ أنّي كنت مهموماً منذ ثلاث، قيل: ولم؟ قال: لأنّ النبيّ ﷺ مرّ عليّ مرّتين فأعرض بوجهه الكريم عنّي فغمّني ذلك، فلمّا مرّ عليّ ﷺ الثالثة قلت له: يا رسول الله ألست على الحق وهم على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: فما بالك تعرض عنّي بوجهك الكريم؟ فقال النبيّ ﷺ: «**حياء منك إذ قتلك رجل من أهل بيتي**».

وقد رأيت حكاية تدلّ على أنّ الواثق رجع عن هذا الاعتقاد والامتحان، وذلك فيما ذكره الخطيب البغدادي في «**تاريخه وترجمته**»، قال: سمعت طاهر بن خلف يقول: سمعت محمد بن الواثق الّذي يقال له: المهتدي بالله يقول: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا ذلك المجلس، فبينما نحن ذات يوم عنده إذ أتي بشيخ مصفود مقيّد، فقال أبي: ائذنوا لأبي عبد الله يعني ابن أبي دؤاد وأصحابه، وأدخل الشيخ في مصلاه فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له: لا سلم الله عليك، فقال: يا أمير المؤمنين بئسما أدّبك به مؤدّبك، قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ**﴾ [النساء: 86]، والله ما حيّتني بها ولا بأحسن منها، فقال ابن أبي دؤاد: يا أمير المؤمنين الرجل متكلّم، فقال: كلّمه، فقال: يا شيخ ما تقول في القرآن؟ قال: أنصفني في السؤال، فقال: له سل، فقال الشيخ: ما تقول أنت في القرآن؟ قال: مخلوق، فقال الشيخ: هذا شيء علمه النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ والخلفاء الراشدّون أم شيء لم يعلموه؟ فقال: شيء لم يعلموه، فقال: سبحان الله شيء لم يعلمه النبيّ ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الرّاشدون تعلمه أنت، فخجل وقال: أقلني، فقال: قد فعلت والمسألة بحالها، قال: نعم، قال: فما تقول في القرآن، قال: مخلوق، قال: هذا شيء علمه النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الرّاشدون أم لم يعلموه؟ قال: علموه، ولم يدعوا النّاس إليه، فقال: أفلا وسعك ما وسعهم، قال: ثم قام أبي فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وهو يقول: هذا شيء لم يعلمه النبيّ ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الرّاشدون، تعلمه أنت؟ سبحان الله، شيء علمه النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء الرّاشدون، ولم يدعوا النّاس إليه، أفلا وسعك ما وسعهم، ثم دعا عماراً الحاجب فأمره أن يرفع القيود عنه ويعطيه أربعمائة دينار، ويأذن له في الرجوع، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعد ذلك أحداً رحمة الله تعالى عليه.

كذا وقع في هذه الرواية أنّ المهتدي بالله ابن الواثق اسمه محمد، وبذلك سمّاه الحافظ أبو عبد الله الذهبي في كتاب «**دول الإسلام**»، وذكر المؤلف بعد في ترجمته أنّ اسمه جعفر، وقد جاء في رواية غير هذه ما يدلّ على أنّ اسمه أحمد، وفيها زيادة ونقص ومغايرة في بعض الألفاظ والمعنى، وذلك فيما ذكره الحافظ أبو نعيم في «**حليته**»، قال: قال الحافظ أبو بكر الآجري:

بلغني عن المهتدي رحمه الله تعالى أنّه قال: ما قطع أبي يعني الواثق إلاّ شيخ جيء به من المصيصة فمكث في السجن مدّة ثم إنّ أبي ذكره يوماً فقال: عليّ بالشيخ، فأتي به مقيداً، فلمّا وقف بين يديه سلّم عليه فلم يرد عليه السلام، فقال له الشيخ: يا أمير المؤمنين ما استعملت معي أدب الله عز وجل ولا أدب رسول الله ﷺ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86]، وأمر النبيّ ﷺ برد السلام، فقال له أبي: وعليك السلام، ثم قال لابن أبي دؤاد: سله، فقال: يا أمير المؤمنين أنا محبوس مقيد أصلّي في الحبس وأتيمم للصلاة، فمر لي بحلّ القيود وبالوضوء فأمر بحلّه وأمر بماء فتوضّأ وصلّى، ثم قال لابن أبي دؤاد: سله، فقال الشيخ: المسألة لي، فمره أن يجيبني، فقال: سل.

فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد، فقال: أخبرني عن هذا الأمر الّذي تدعو النّاس إليه أشيء دعا إليه رسول الله ﷺ؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه أبو بكر رضي الله عنه بعده؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعدهما؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه عثمان بن عفّان رضي الله عنه بعدهم؟ قال: لا، قال: فشيء دعا إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعدهم؟ قال: لا، قال الشيخ: فشيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم تدعو النّاس إليه، ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعني وإياك من السكوت ما وسع القوم، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت فيا لكع بن لكع يجهل النبيّ ﷺ والخلفاء الرّاشدون رضي الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت وأصحابك؟ قال المهتدي: فرأيت أبي وثب قائماً ودخل الحجرة وجعل ثوبه في فيه وهو يضحك، ثم جعل يقول: صدق ليس يخلو من أن يقول علموه أو جهلوه، فإن قلنا علموه وسكتوا عنه وسعنا من السكوت ما وسع القوم وإن قلنا جهلوه وعلمته أنت فيا لكع بن لكع يجهل النبيّ ﷺ شيئاً وأصحابه وتعلمه أنت وأصحابك، ثم قال: يا أحمد فقلت، لبيك، قال: لست أعنيك إنّما أعني ابن أبي دؤاد، فوثب إليه، فقال: أعط هذا الشيخ نفقة وأخرجه عن بلدنا، فدل هذا على أنّ المهتدي كان اسمه أحمد لقوله: ولست أعنيك لأنّه ربّما قال قائل: إنّما كان استجابة المهتدي لأبيه على طريق الأدب فقوله: إنّما أعني ابن أبي دؤاد يبطل ذلك لأنّ اسمه أحمد، وسيأتي إن شاء الله تعالى في ترجمة المهتدي هذه الحكاية بطريقة أخرى بسياق غير هذا، وهذا الّذي قاله الشيخ إلزام صحيح وبحث لازم للمعتزلة.

وكان الواثق مؤثراً لكثرة الجماع، فقال لطبيبه: اصنع لي دواء للباه، فقال له الطبيب: يا أمير المؤمنين لا تهدم بدنك بالجماع، واتقّ الله في نفسك، فقال: لا بد من ذلك، فأمره الطبيب أن يأخذ لحم سبع فيغلي عليه سبع غليات بخل خمر ويتناول منه إذا شرب وزن ثلاثة دراهم ولا يجاوز هذا القدر، فأمر بذبح سبع فذبح، وطبخ له من لحمه، وصار يتنقل منه على شرابه، فلم يكن إلاّ قليلاً، حتى استسقى فأجمع رأي الأطباء على أن لا دواء له إلا أن ينزل

بطنه، ثم يترك في تنور قد سجر بحطب زيتون حتى يصير جمراً، ثم يجلس فيه، ففعل ذلك، ومنع الماء ثلاث ساعات، فجعل يستغيث ويطلب الماء فلم يسقوه فصار في جسده نفاطات مثل البطيخ، ثم أخرجوه فجعل يقول: ردوني في التنور وإلاّ مت فردّوه، فسكن صياحه، ثم انفجرت تلك النفاطات وقطر منها ماء فأخرج من التنور وقد اسودّ جسده، ومات بعد ساعة، ولمّا احتضر جعل يقول:

الموت فيه جميع النّاس تشترك لا سوقة منهم يبقى ولا ملك

ما ضرّ أهل قليل في مقابرهم وليس يغني عن الملاك ما ملكوا

ثم أمر بالبسط فطويت وألصق خدّه بالأرض، وجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه. ولمّا مات سجي بثوب واشتغل النّاس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذون من البستان فاستلّ عينيه وذهب بهما، ولم يعلموا به حتى غسلوه، وهذا من أغرب ما سمع. حكي أنّ ذلك له سبب، وهو أنّ الواثقي قال: كنت أمرض الواثق إذ لحقته غشية، فما شككت أنّه قد مات، فقال بعضنا لبعض: تقدّموا فما جسر أحد منّا فتقدّمت أنا، فلمّا أردت أن أضع إصبعي على أنفه فتح عينيه فكدت أن أموت فزعاً وتأخّرت إلى خلفي فتعلقت قبيعة السيف بالعتبة وعثرت فاندق السيف، فكاد أن يدخل في لحمي، فخرجت وطلبت سيفاً غيره، ثم رجعت فوقفت عنده فوجدته مات بلا شك، فشددت لحييه وغمضته وسجيته وأخذ الفرّاشون تلك الفرش الثمينة ليردّوها إلى الخزانة وترك وحده في البيت، فقال لي أحمد بن أبي دؤاد القاضي: إنّا نشتغل بعقد البيعة فاحفظه حتى يدفن، فرجعت وجلست عند الباب، فسمعت بعد ساعة حركة أفزعتني فدخلت فإذا بجرذون قد جاء فاستلّ عينيه فأكلهما، فقلت: لا إله إلاّ الله هذه العين الّتي فتحها من ساعة فعثرت، واندق سيفي هيبة لها.

وتوفّي الواثق بسر من رأى في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وهو ابن ست وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر، وكان أبيض مليحاً يعلوه اصفرار، حسن اللحية، في عينيه نكتة، عالماً أديباً جيد الشعر شجاعاً مهاباً حازماً، فيه جبروت كأبيه سامحهما الله تعالى.

خلافة (جعفر المتوكل)

ثم قام بالأمر بعده أخوه جعفر المتوكل، بويع له بالخلافة بسر من رأى يوم موت أخيه الواثق بعهد منه في ذي الحجّة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، فرفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنّة وأمر بنشر الآثار النبوية. وذكر ابن خلكان في **ترجمته** أنّه قال: ركبت إلى دار الواثق في مرضه الّذي مات فيه لأعوده، فجلست في الدّهليز أنتظر الإذن، فبينما أنا جالس إذ سمعت النياحة عليه وإذا إيداخ ومحمد بن عبد الملك الزيّات يأتمران في أمري، فقال محمد: نقتله في التنور، وقال إيداخ: بل ندعه في الماء البارد حتى يموت، ولا يرى عليه أثر القتل، فبينما هما

على ذلك إذ جاء أحمد بن أبي دؤاد القاضي فدخل وحدثهما كلاماً لا أعقله لما داخلني من الخوف، وشغل القلب بإعمال الحيلة في الهرب، فبينما أنا كذلك وإذا بالغلمان يتعادون ويقولون: انهض يا مولانا، فلم أشك أنّي داخل لأبايع ولد الواثق، ثم ينفذ فيّ ما قدّر، فلمّا دخلت بايعوني، فسألت عن الحال فأعلمت أن ابن أبي دؤاد كان سبب ذلك، ثم إنّ المتوكل قتل إيداخ بالماء البارد، وابن الزيّات في التنور، قال: وهذا من أغرب الاتفاق وعجيب الظفر، ومن العجيب أيضاً أنّ محمد بن عبد الملك الزيّات هو الّذي صنع التنور ليعذب فيه النّاس فعذبه الله فيه، وكان التنّور من حديد داخله مسامير غير مثنية، وكان يسجر بحطب الزيتون حتى يصير كالجمر، ثم يدخل الإنسان فيه. نسأل الله العافية في الدّنيا والآخرة.

ولمّا ولّي أحيى السنّة وأمات البدعة وكتب للآفاق برفع المحنة وإظهار السنّة، وتكلّم في مجلسه بالسنّة وأعزّ أهلها وأخمد المعتزلة، وكانوا في قوّة ونماء إلى أيّام المتوكّل، فخمدوا ولم يكن في هذه الملّة الإسلامية أهل بدعة أشر منهم، نعوذ بالله من شر مقالتهم ونسأل الله السلامة من الزيغ والردى، وكان المتوكّل يبغض علياً رضي الله عنه ويتنقصه فذكر علياً رضي الله عنه يوماً وغض منه فتمعر وجه ابنه المنتصر فشتمه المتوكّل وأنشد مواجهاً لها:

غضب الفتى لابن عمّهْ رأس الفتى في حِرامِّهْ

فحقد عليه وأغراه ذلك على قتله لما كان يغلو في بغض علي رضي الله عنه ويكثر الوقيعة فيه والاستخفاف به، فبينما المتوكّل في قصره يشرب مع ندمائه وقد سكر إذ دخل بغا الصغير وأمر النّدماء بالانصراف فانصرفوا ولم يبق عنده إلا الفتح بن خاقان، فإذا الغلمان الّذين عيّنهم المنتصر لقتل المتوكّل، قد دخلوا وبأيديهم السيوف مصلتة فهجموا عليه، فقال الفتح بن خاقان: ويلكم أمير المؤمنين، ثم رمى نفسه عليه فقتلوهما جميعاً، ثم خرجوا إلى المنتصر، فسلّموا عليه بالخلافة، وكان قتل المتوكّل في شوّال سنة سبع وأربعين ومائتين وعمره أربعون سنة وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر؛ وقيل خمس عشرة سنة. وكان أسمر رقيقاً مليح العينين خفيف اللحية ليس بالطويل فيه قصف وانهماك على اللهو والمكاره، لكنه أحيا السنّة وأمات بدعة القول بخلق القرآن، وله كرم زائد، وكان قد عزم على خلع ولده المنتصر من ولاية العهد وتقديم ابنه المعتز عليه لفرط محبته لأمّه، وأخذ يؤذيه ويتهدّده إن لم يخلع نفسه واتفق مصادرته لوصيف وبغا، فعملوا على قتله، فدخل عليه خمسة نصف الليل وهو في مجلس لهوه ففتكوا به وضربوه بسيوفهم وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان كما تقدّم.

خلافة محمد المنتصر بالله

ثم قام بالأمر بعده ابنه محمد المنتصر بالله، بويع له بالخلافة في الليلة الّتي قتل فيها أبوه، وبويع له من الغد البيعة العامة، فلم تطل دولته ولم يمتع بالملك، روي أنّه بسط بين

يديه بساط فرأى عليه شيئاً مكتوباً فلم يعلم ما هو، فأمر بإحضار من قرأه، فإذا كتابته بقلم اليونان، وإذا عليه مكتوب: عمل هذا البساط للملك قباذ بن كسرى، قاتل أبيه، وفرش قدامه فلم يلبث غير ستة أشهر ومات، فتطيّر المنتصر واغتمّ لذلك، وأمر برفع البساط. ومات في آخر الستّة أشهر، وكانت خلافته ستّة أشهر وأيّاماً، وعمره ستّ وعشرون سنة، وأمّه رومية. وكان مربوعاً سميناً أعين، أقنى الأنف، مليحاً مهيباً، كامل العقل، يحب الخير؛ قيل: إنّ أمراء الترك خافوه، فلمّا حم دسوا إلى الطبيب بكيس فيه ألف دينار، ففصده بريشة مسمومة؛ وقيل: بل سمّ في طعامه، فقال لأمّه: ذهبت عنّي الدنيا، والآخرة عاجلت أبي فعوجلت.

خلافة (أحمد المستعين بالله)

وهو السادس فخلع وقتل

ثم قام بالأمر بعده ابن عمّه أحمد المستعين بالله بن محمد المعتصم، بويع له بالخلافة ليلة الإثنين لستّ خلون من شهر ربيع الآخر، وعمره إذ ذاك ثمان وعشرون سنة، وكان كثير الجماع، مغرماً بحب النساء، وكان له ابنة عمّ بديعة الحسن والجمال، فطلبها من أبيها فامتنع، فأحضر الأصمعي والرقاشي وأبا نواس، وقال: كل من أنشد لي بطبق مرادي في ابنة عمّي أعطيته الجائزة العظمى، فأنشد أبو نواس:

ما روض ريحانكم الزاهر وما شذا نشركم العاطر
وحق وجدي والهوى قاهر مذ غبتمو لم يبق لي ناظر
والقلب لا سال ولا صابر

قالت ألا لا تلجن دارنا وكابد الأشواق من أجلنا
واصبر على مر الجفا والضنا ولا تمرن على بيتنا
إن أبانا رجل غائر

فقلت إنّي طالب غرة يحظى بها القلب ولو مرّة
قالت بعيد ذاك مت حسرة قلت سأقضي غرّتي جهرة
منك وسيفي صارم باتر

قالت فإن البحر من بيننا فابرح ولا تأت إليّ حينا
واشرب بكأس الموت من هجرنا قلت ولو كان كثير العنا
يكفيك أنّي سابح ماهر

قالت فإنّ القصر عالي البنا قلت ولو كان عظيم السنا
أو كان بالجو بلغت المنى قالت منيع في الورى قصرنا
قلت وإنّي فوقه طائر

قالت فعندي لبوة والد فقلت إنّي أسد شارد
غشمشم مقتنص صائد قالت لها شبل بها لابد
قلت وإنّي ليثها الكاسر
قالت فعندي إخوة سبعة جمعاً إذا ما التقّوا عصبة
قلت ولي يوم اللقا وثبة قالت لهم يوم الوغى سطوة
قلت وإني قاتل قاهر
قالت فإنّ الله من فوقنا يعلم ما نبديه من شوقنا
نمضي إلى الحق غداً كلنا ونختشي النقمة من ربّنا
قلت وربي ساتر غافر
قالت فكم أعييتنا حجّة تجي بها كاملة بهجة
فيا لها بين الورى خجلة إن كنت ما تمهلنا ساعة
فائت إذا ما هجع الساهر
واسقط علينا كسقوط الندى إيّاك أن تظهر حرف الندا
يتيقظ الواشي ويأتي الردى وكن كضيف الطيف مسترصدا
ساعة لا ناه ولا آمر
حاججتها عشراً وصافحتها على دنان الخمر صافيتها
رامت مواثيقاً فوافيتها ملتحفاً سيفي ولاقيتها
آخر ليلي والدّجى عاكر
يا ليلة قضيتها خلوة مرتشفاً من ريقها قهوة
تكر من قد يبتغي سكرة ظننتها من طيبها لحظة
يا ليت لا كان لها آخر

فلمّا أنشد ذلك أبو نواس بحضرة الخليفة أعجبه ذلك وأمر له بالجائزة العظمى ووفى بما عهد، ثم إنّ المستعين أشهد على نفسه أنّه قد خلعها من الخلافة، وأنّه قد أحلّ النّاس من بيعته بشروط وخطب للمعتز بن المتوكل، فنقل المستعين إلى قصر الحسن بن وهب، فاعتقل به تسعة أشهر، ووكل به من يحفظه، ثم أحدر به إلى واسط، ودسّ عليه المعتز سعيداً الحاجب فقتله صبراً في أوّل شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وجيء برأسه إلى المعتز وهو يلعب الشطرنج، فقيل له: هذا رأس المخلوع، فقال: دعوه هناك حتى أفرغ من اللعب. فلمّا فرغ أحضره ونظره، ثم أمر بدفنه.

وكانت خلافته سنتين وتسعة أشهر، وعمره إحدى وثلاثون سنة، وكان مربوعاً مليح الوجه، به أثر جدري، وكان ألثغ يجعل السين ثاء، وكان كريماً مبذراً للأموال رحمه الله تعالى.

خلافة (أبي عبد الله محمد المعتز بالله) بن المتوكّل

ثم قام بالأمر بعده ابن عمّه محمد المعتز بالله بن المتوكّل، بويع له بالخلافة لمّا خلع المستعين نفسه في أوّل سنة اثنتين وخمسين ومائتين، ثم دبر عليه صالح بن وصيف حاجبه فجاء إليه ومعه جماعة وبعثوا إليه أن اخرج فاعتذر بأنّه تناول دواء، فأمر صالح أن يدخل إليه بعضهم، فدخلوا وجرّوا برجله إلى باب الحجرة فأقيم في الشمس الحارة فصار يرفع قدماً ويضع أخرى وهم يلطمونه ويقولون له: اخلعها وهو يتّقي بيديه ويأبى ثم أجابهم وخلع نفسه، فتسلّمه صالح بن وصيف ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة أيّام ثم أنزله إلى سرداب مجصص أطبقه عليه حتى مات، ثم أخرجه وأشهد عليه أنّه لا أثر به، وقيل إنّه بعد خلعه بخمسة أيّام أدخله الحمّام ومنعه الماء حتى عاين التلف، ثم أتوه بماء مالح فشربه فسقط ميّتاً، وذلك في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة، وخلافته أربع سنين وستّة أشهر وكان بديع الحسن رحمه الله تعالى.

خلافة (جعفر المهتدي بالله) بن هارون

ثم قام بالأمر بعده ابن عمّه جعفر بن هارون الواثق بن المعتصم، ورأيت في غير هذا الموضع أنّ المهتدي اسمه محمد ويلقب بأبي إسحق، بويع له بالخلافة يوم خلع ابن عمّه المعتز بالله. ولمّا وُلّي أخرج الملاهي وحرّم سماع الغناء والشراب، وأمر بنفي المغنيات وطرد الكلاب والسباع، وألزم نفسه الإشراف على الدواوين والجلوس للنّاس وإزالة المظالم، وتغيير المنكرات. وقال: إنّي أستحي من الله أن لا يكون في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية، فتبرم به بابك التركي. وكان ظلوماً غشوماً فأمر المهتدي بقتله، ولمّا قتل هاجت الأتراك، ووقع الحرب بينهم وبين المغاربة، فقتل من الفريقين أربعة آلاف. وخرج المهتدي والمصحف في عنقه، وهو يدعو النّاس إلى نصرته والمغاربة معه وبعض العامة فحمل عليهم طيبغا أخو بابك فهزمهم، ومضى المهتدي منهزماً والسيف في يده، وقد جرح جرحين حتى دخل دار محمد بن يزداد، فتجمّعت الأتراك وهجموا عليه وأخذوه أسيراً وحمله أحمد بن خاقان على دابة وأردف خلفه سائساً بيده خنجر فأدخل إلى دار أحمد بن خاقان، وجعلوا يصفعونه ويقولون: اخلعها، فأبى عليهم فسلم إلى رجل فوطىء مذاكيره حتى قتله، وذلك في رجب سنة ست وخمسين ومائتين، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وكانت خلافته أحد عشر شهراً، رحمة الله تعالى عليه؛ وقيل: سنة.

وكان أسمر مليح الصورة ديّناً ورعاً عابداً عادلاً حازماً شجاعاً خليقاً للإمارة، لكنّه لم يجد ناصراً يقال: إنّه كان يسرد الصوم، وربّما كان فطوره في بعض الليالي على خبز وخل وزيت. وقد كان سد باب اللهو والطرب والغناء، وحسم الأمراء عن الظلم، وكان يجلس لحساب الدواوين بنفسه.

ومما يحكى من محاسنه ما ذكره الحافظ أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي في كتابه قال: إنّ أبا الفضل صالح بن علي بن يعقوب بن المنصور الهاشمي، وكان من وجوه بني هاشم وأهل الخلافة والسبق منهم، قال: حضرت المهتدي بالله أمير المؤمنين وقد جلس ينظر في أمور النّاس في دار العامة، فنظرت إلى قصص النّاس تُقرأ عليه من أوّلها إلى آخرها، فيأمر بالتوقيع فيها وإنشاء الكتب لأصحابها فتُختم وتدفع إلى أصحابها بين يديه، فسرّني ذلك وجعلت أنظر إليه ففطن لي ونظر إليّ فغضضت عنه حتى كان ذلك منّي ومنه مراراً إذا نظر إليّ غضضت وإذا اشتغل عنّي نظرت، فقال: يا صالح، قلت: لبّيك يا أمير المؤمنين، وقمت قائماً، فقال: أفي نفسك منّي شيء، تحب أن تقوله؟ فقلت: نعم يا سيّدي، فقال: عد إلى موضعك، فعدت وعاد في النظر حتى قام، وقال للحاجب: لا يبرح صالح، فانصرف النّاس.

ثم أذن لي وقد أهمتني نفسي، فقمت فدخلت ودعوت له، فقال لي: اجلس، فجلست، فقال: يا صالح تقول ما دار في نفسك أو أقول أنا ما دار في نفسي أنّه دار في نفسك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين ما تعزم عليه وتأمر به أطال الله بقاءك، فقال: كأنّي بك وقد استحسنت ما رأيت منّا، فقلت: أي خليفة خلفتنا إن لم يكن يقول القرآن مخلوق، فورد على قلبي أمر عظيم وأهمتني نفسي، ثم قلت: يا نفس هل تموتين إلاّ مرّة، وهل تموتين قبل أجلك، وهل يجوز الكذب في جدّ أو هزل؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما دار في نفسي إلاّ ما قلت، ثم أطرق ملياً، وقال: ويحك اسمع منّي ما أقول فوالله لتسمعن الحق فسرّي عنّي، فقلت: يا سيّدي من أولى بقول الحق منك وأنت أمير المؤمنين وخليفة ربّ العالمين وابن عم سيد المرسلين من الأوّلين والآخرين، فقال لي: ما زلت أقول القرآن مخلوق صدراً من خلافة الواثق حتى أقدم علينا أحمد بن أبي دؤاد شيخاً من أهل الشام من أهل أذنة، فأدخل الشيخ على الواثق مقيّداً، وهو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة، فرأيت الواثق قد استحيا منه ورقّ له، فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه فسلّم الشيخ بأحسن السلام ودعا بأبلغ الدعاء وأوجز، فقال له الواثق: اجلس، ثم قال له: يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظر عليه، قال الشيخ: يا أمير المؤمنين إنّ ابن أبي دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة، فغضب الواثق وعاد مكان الرقة له غضباً، فقال: أبو عبد الله بن أبي دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت، فقال الشيخ: هوّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك وائذن لي في مناظرته، فقال الواثق: ما دعوتك إلاّ للمناظرة، فقال الشيخ: يا أحمد بن أبي دؤاد، إلام دعوت النّاس ودعوتني إليه؟ فقال: إلى أن تقول القرآن مخلوق، لأنّ كل شيء من دون الله مخلوق، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين إنّي رأيت أن تحفظ عليّ وعليه ما نقول؟ قال: أفعل، فقال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه أواجبة داخلة في عقد الدّين، فلا يكون الدّين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت؟ قال: نعم، قال الشيخ: يا أحمد أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عزّ وجلّ هل ستر شيئاً ممّا أمره الله به في دينه؟ قال: لا، قال الشيخ: فدعا رسول الله ﷺ النّاس إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي

دؤاد، فقال الشيخ له: تكلّم، فسكت، فالتفت الشيخ إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين واحدة، فقال الواثق: واحدة، فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن آخر ما أنزل الله من القرآن على رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فقال الشيخ: أكان الله تبارك وتعالى الصادق في إكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدّين كاملاً حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد، فقال الشيخ: أجب يا أحمد، فلم يجب، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين اثنتان، فقال الواثق: اثنتان، فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟ فقال ابن أبي دؤاد: علمها، فقال الشيخ: أدعا النّاس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين ثلاث، فقال الواثق: ثلاث، فقال الشيخ: يا أحمد فاتسع لرسول الله ﷺ كما زعمت فلم يطالب أمّته بها؟ قال: نعم، فقال الشيخ: واتسع لأبي بكر رضي الله عنه وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم؟ قال ابن أبي دؤاد: نعم.

فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق فقال: يا أمير المؤمنين قد قدمت القول أنّ أحمد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة، يا أمير المؤمنين إن لم يتّسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فلا وسع الله على من لم يتّسع له ما اتّسع لهم من ذلك، فقال الواثق: نعم، إن لم يتّسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فلا وسّع الله علينا، اقطعوا قيد الشيخ. فلمّا قطعوا قيده ضرب الشيخ بيده إلى القيد ليأخذه فجذبه الحدّاد إليه، فقال الواثق: دع الشيخ ليأخذه، فأخذه فوضعه الشيخ في كمّه، فقيل للشيخ: لم جاذبت عليه؟ فقال الشيخ: لأنّي نويت أن أتقدّم إلى من أوصي إليه إذا أنا مت أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، وأقول: يا رب، سل عبدك هذا لم قيّدني وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك عليّ؟ وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكيت.

ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وسعة ممّا ناله منه، فقال الشيخ: والله يا أمير المؤمنين قد جعلتك في حل وسعة من أوّل يوم إكراماً لرسول الله ﷺ إذ كنت رجلاً من أهله، فقال الواثق: لي إليك حاجة، فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلت، فقال الواثق: تقيم قبلنا فتنتفع بك فتياننا، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين إنّ ردّك إيّاي إلى الموضع الّذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي عندك وأخبرك لم ذلك أصير إلى أهلي وولدي فأكف دعاءهم عليك، فقد خلفتهم على ذلك، فقال له الواثق: أفتقبل منّا صلة تستعين بها على دهرك، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين لا تحل لي أنا عنها غني وذو ثروة، فقال له: أتسأل حاجة؟ قال: أوَتقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: تخلي سبيلي إلى السفر الساعة وتأذن لي، قال: قد أذنت لك، فسلّم عليه الشيخ وخرج.

قال صالح: فقال المهتدي بالله: فرجعت عن هذه المقالة منذ ذلك اليوم. وأظن أنّ الواثق بالله كان رجع عنها من ذلك الوقت، ولي فيها طرق أخرى وفيها بعض المغايرة لهذه وقد سبق في ترجمة الواثق ما يدل على رجوعه، والله تعالى أعلم.

خلافة (أبي القاسم أحمد المعتمد على الله) بن المتوكّل

ثم قام بالأمر بعده ابن عمّه أحمد المعتمد على الله بن المتوكّل على الله بن المعتصم بالله، بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمّه المهتدي بالله بسر من رأى، وكان له اسم الخلافة ولأخيه الموفق بن المتوكّل تدبير الملك، ولمّا مات الموفق قام بتدبير الملك بعده ابنه أحمد المعتضد بن الموفق، وغلب على عمّه المعتمد كما كان أبوه غالباً عليه، فكان المعتمد يطلب الشيء الحقير فلا يناله ولم يكن له سوى الاسم، فقال في ذلك:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

قيل: إنّه شرب يوماً على الشط شراباً كثيراً فتغشى ومات؛ وقيل: إنّه اغتمّ ومات وهو نائم في بساط؛ وقيل: إنّه سمّ في لحم، وذلك في شوّال سنة تسع وسبعين ومائتين، وله خمسون سنة، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة، وتوفّي ببغداد. وكان أسمر ربعة رقيقاً مدوّر الوجه، مليح العينين، صغير اللحية، أسرع إليه الشيب، منهمكاً على اللهو واللذات يسكر ويعض يده.

خلافة (أبي العباس أحمد المعتضد بالله) بن الموفق

بويع له بالخلافة يوم مات عمّه المعتمد، فاستقلّ بالأمر، وكان شجاعاً عادلاً ذا هيبة عظيمة مع سطوة وجبروت وحزم ورأي وذكاء مفرط في أحكامه. وسيأتي ذكر شيء من ذلك، وكان كثير الجماع فاعتراه فساد مزاج، وكان ذلك سبب وفاته، وكان محبّاً للعدل مؤثراً له، وله فيه حكايات نادرة، وتوفّي سنة تسعين ومائتين لسبع بقين من شهر ربيع الآخر، وهو ابن ستّ وأربعين سنة؛ وقيل أربعين سنة. وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر؛ وقيل: عشر سنين. وكان أسمر مهيباً معتدل الشكل.

خلافة (أبي محمد علي المكتفي بالله) بن المعتضد

ثم قام بالأمر بعده ابنه علي أبو محمد المكتفي بالله بن المعتضد بن الموفق بن المتوكّل بن المعتصم، بويع له بالخلافة يوم توفّي أبوه المعتضد، وتوفّي ببغداد سنة ثلاث وتسعين ومائتين، وهو ابن أربع وثلاثين سنة؛ وقيل: ثلاثين، وخلافته سنتان وثمانية أشهر، هكذا ذكروا وفاته وعمره وخلافته، والّذي رأيته في كتب الذهبي أنّه كانت وفاته في ذي القعدة

سنة تسع وتسعين ومائتين عن إحدى وثلاثين سنة، وكانت خلافته ست سنين ونصفاً، وكان وسيماً جميلاً بديع الحسن، درّي اللون معتدل الطول أسود الشعر، وكان حسن العقيدة كارهاً لسفك الدماء، ووطأ له أبوه المعتضد الأمور، وكان المكتفي مائلاً إلى حب علي بن أبي طالب رضي الله عنه بارّاً لأولاده.

يحكى أنّ يحيى بن علي الشاعر أنشده بالرقة قصيدة يذكر فيها فضل أولاد العباس على أولاد علي، فقطع المكتفي عليه إنشاده، وقال: يا يحيى كأنّهم ليسوا بني عم ما أحب أن يخاطب أهلنا بشيء من ذلك، وإن كانوا خلفاء، ولم يسمع القصيدة ولا أجازه عليها، رحمة الله عليه.

خلافة (أبي الفضل جعفر المقتدر بالله)

وهو السادس فخلع مرتين كما سيأتي

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو الفضل جعفر المقتدر بن المعتضد، بويع له بالخلافة ببغداد يوم وفاة أخيه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة وأربعين يوماً ولم يل الخلافة بعده، قيل: ولا قبله أصغر منه، وضعف دست الخلافة في أيّامه. وذكر صاحب النشوار[1] وغيره عن صافي مولى المعتضد أنّه قال: مشيت يوماً بين يدي المعتضد وهو يريد دار الحرم، فلمّا بلغ دار المقتدر وقف وتسمّع وتطلّع من خلل في الستر، فإذا هو بالمقتدر، وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها، وهو جالس وحوله قدر عشر وصائف من أترابه في قدر سنّه وبين يديه طبق فضّة وفيه عنقود عنب في وقت فيه العنب عزيز جدّاً والصبي يأكل عنبة واحدة، ثم يطعم الجماعة عنبة عنبة على الدور حتّى إذا بلغ الدور إليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فني العنقود، والمعتضد يتمزّق غيظاً، ثم رجع ولم يدخل الدّار فرأيته مهموماً فقلت: يا مولاي ما سبب ما فعلته؟ فقال: يا صافي والله لولا العار والنّار لقتلت هذا الغلام اليوم، يعني المقتدر، فإنّ في قتله صلاحاً للأمّة، فقلت: يا مولاي ما شأنه وأي شيء عمل أعيذك بالله يا مولاي من هذا؟ فقال: ويحك أنا أبصر بما أقوله، أنا رجل قد ست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد، ولا بد من موتي وأنا أعلم أنّ النّاس بعدي لا يختارون أحداً على ولدي وإنّهم سيُجلسون ابني علياً يعني المكتفي، وما أظن أنّ عمره يطول للعلّة الّتي به يعني الخنازير الّتي كانت في حلقه فيتلف عن قريب، ولا يرى النّاس إخراجها عن ولدي، ولا يجدون بعده أمثل من جعفر يعني المقتدر وهو صبي وله من الطبع والسخاء هذا الّذي قد رأيته من أنّه أطعم الوصائف مثل ما أكل وساوى بينه وبينهن في شيء عزيز في العالم، والشحّ على مثله في طباع الصبيان غالب فتحتوي عليه النساء لقرب عهده بهنّ فيقسم ما جمعته من الأموال كما قسم العنب ويبدد ارتفاع الدّنيا، فتضيع الثغور وتعظم الأمور وتخرج الخوارج، وتحدث الأسباب الّتي يكون فيها زوال

(١) نشوار المحاضرة: للقاضي التنوخي.

الملك عن بني العباس رأساً، فقلت: يا مولاي يبقيك الله حتى ينشأ في حياة منك ويصير كهلاً في أيّامك ويتأدّب بآدابك ويتخلق بأخلاقك، ولا يكون هذا الّذي ظننت، فقال: ويحك، احفظ عنّي ما أقول لك فإنّه كما قلت.

قال: ومكث يومه مغموماً مهموماً وضرب الدهر ضرباته، ومات المعتضد، وولّي المكتفي، فلم يطل عمره ومات، وولّي المقتدر، فكانت الصورة كما قال مولاي المعتضد بعينها، فكنت كلّما ذكرت قوله أعجب منه، فوالله لقد وقفت يوماً على رأس المقتدر وهو في مجلس لهوه فدعا بالأموال فأخرجت إليه ووضعت البدر بين يديه، فجعل يفرّقها على الجواري والنساء ويلعب بها ويمحقها ويهبها، فذكرت قول مولاي المعتضد ثم إنّ الجند وثبوا على العباس وزيره فقتلوه وأحضروا عبد الله بن المعتز وبايعوه وخلعوا المقتدر.

خلافة (عبد الله بن المعتز المرتضي بالله)

بويع له بالخلافة بعد خلع المقتدر بعد أن شرط عليهم أن لا يكون في ذلك حرب ولا سفك دم. فلمّا بويع له كتب إلى المقتدر يأمره بلزوم دار ابن طاهر بوالدته وجواريه، وأمر الحسن بن حمدان وابن عمرويه صاحب الشرطة أن يصير إلى دار المقتدر فمضيا، فخرج إليهما الغلمان ورموهما بالحجارة، وجرى بينهم حرب شديد، آخره أنّ أصحاب المقتدر ظهروا عليهما فانهزما وانهزم المرتضي بالله وتفرّق أصحابه واستتر عند ابن الجصاص، ولم يتم له أمر غير يوم وليلة، ولذلك لم يعد المؤرّخون خلافته في هذه المدّة.

ثم عاد المقتدر إلى ما كان عليه ثم ظفر بالمرتضي بالله فقتله خنقاً وأظهر أنّه مات حتف أنفه، وأُخرج وهو ميّت من دار الخلافة، فدفنوه في خرابة بإزاء داره، وكان عمره خمسين سنة.

قال ابن خلكان في **ترجمته**: كان شاعراً ماهراً فصيحاً مجيداً مخالطاً للعلماء والأدباء، وهو صاحب التشبيهات الّتي أبدع فيها ولم يتقدّمه من شق غباره، وكان قد اتّفق معه جماعة وخلعوا المقتدر وبايعوه ولقّبوه بالمرتضي بالله، فأقام يوماً وليلة، ثم إنّ أصحاب المقتدر تحزّبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم، فاستخفى ابن المعتز، ثم أخذ ليلاً فلمّا دخل على المقتدر أمر به فطرح على الثلج عرياناً، وحشى سراويله ثلجاً فلم يزل كذلك والمقتدر يشرب إلى أن مات، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ستّ وتسعين ومائتين رحمه الله. وليس هو بمعدود في الخلفاء لأنّه لم يثبت له أمر.

واستمر للمقتدر الأمر إلى أن بلغ مؤنساً الخادم أنّ المقتدر قد عزم على اغتياله، وكان مؤنس مقدم جيش المقتدر، فبلغ المقتدر ما نقل إلى مؤنس، فحلف على بطلان ذلك وأسرها مؤنس في نفسه، ثم جرى بين العامة وبين بعض مماليكه حرب فظن أنّ ذلك بأمر المقتدر، فوافى مؤنس دار الخلافة في اثني عشر ألف فارس، فدخل إلى المقتدر وقبض عليه وعلى

والدته السيدة وحملهما إلى قصره ونهب الجند دار الخلافة وخلع المقتدر نفسه من الخلافة، وكتب بذلك إلى الآفاق، فلمّا كان ثاني يوم خلعه شغب الجند وقتلوا صاحب الشرطة، وهرب ابن مقلة الوزير، وهرب الحجاب وجاء المقتدر فجلس وأحضر أخاه القاهر وأجلسه بين يديه وقبّل ما بين عينيه، وقال: يا أخي لا ذنب لك، فجعل القاهر يقول: الله الله في نفسي يا أمير المؤمنين، فقال المقتدر: والله وحق رسول الله ﷺ لا جرى عليك مني سوء أبداً.

وعاد ابن مقلة الوزير وكتب إلى الآفاق بخلافة المقتدر.

ثم جرى بين المقتدر وبين مؤنس الخادم حرب، فاقتحم المقتدر نهر السكران فأحاط به جماعة من البربر فقتله رجل منهم، وأخذوا رأسه وسلبه وثيابه ومضوا إلى مؤنس الخادم، فمرّ بالمقتدر رجل من الأكراد فستر عورته بحشيش ودفنه وأخفى أثره. وكان قتله يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوّال سنة ست عشرة وثلثمائة، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وشهر. وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، خلع فيها مرّتين ثم قتل كما تقدّم.

وحكى الذهبي أنّ خلافته كانت خمساً وعشرين سنة، وأنّه عاش ثمانياً وثلاثين سنة، وأنّه كان مسرفاً مبذراً للمال، ناقص الرأي أعطى جارية له الدرّة اليتيمة وكان وزنها ثلاثة مثاقيل، وما كانت تقوّم؛ وقيل: إنّه محق من الذهب ثمانين ألف ألف دينار في أيّامه، وإنّه خلّف من الأولاد عدّة منهم: الراضي بالله والمقتفي بالله وإسحاق والمطيع لله.

خلافة (محمد القاهر بالله)

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو منصور محمد بن المعتضد بالله، بويع له بالخلافة ببغداد لليلتين بقيتا من شوّال. ولمّا ولّي قبض على ابن أخيه المكتفي وأمر به فأقيم في بيت وسد عليه بالآجر والجص حتى مات غمّاً، وقبض على السيدة أم المقتدر وطالبها بمال لم تقدر عليه فتهدّدها وضربها بيده وعذّبها بأنواع العذاب، وعلّقها منكّسة حتى كان يجري بولها على وجهها، وهي تقول له: ألست أمّك في كتاب الله وخلصتك من ابني في المرّة الأولى، وأنت تعاقبني بهذه العقوبة ولم يبق عندي مال، ثم إنّها ماتت عقب ذلك، ثم إنّ الجند شغبوا عليه وجاؤوا إلى داره وهجموا عليه من سائر الأبواب فهرب إلى سطح حمّام واستتر فيه، فأتوا إليه وقبضوا عليه وحبسوه وخلعوه من الخلافة، وسملوا عينيه، وذلك في جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

قال ابن البطريق في «تاريخه»: كان القاهر قد ارتكب أموراً قبيحة لم يسمع بمثلها في الإسلام، وذكر منها طرفاً طويلاً، حكي أنّ رجلاً قال: صلّيت في جامع المنصور ببغداد فإذا أنا بإنسان عليه جبّة عنّابيّة وقد ذهب وجهها وبقي بعض قطن بطانتها وهو يقول: أيّها النّاس تصدّقوا عليّ، بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين، فسألت عنه فقيل

لي: إنّه القاهر بالله، وفي هذه الحكاية أعظم عبرة، نعوذ بالله من سخطه وزوال نعمه. وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وسبعة أيام، وكان أهوج طائشاً، سفّاكاً للدماء، يدمن السكر، وكان له حربة يأخذها بيده فلا يضعها حتى يقتل إنساناً، ولولا وجود الحاجب سلامة لأهلك النّاس.

خلافة (أبي العباس أحمد الراضي بالله) بن المقتدر

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو العباس أحمد الراضي بالله بن المقتدر بن المعتضد، بويع له بالخلافة يوم خلع عمّه القاهر، واستوزر أبا علي بن مقلة، وأطلق كل من كان في حبس القاهر، ثم استدعى بالأمير محمد بن رائق، وكان بواسط متغلّباً عليها لأنّ الضرورة ألجأته إلى ذلك لاضطراب الأمور عليه، ولضعف من يلي الوزارة عن القيام بها، فقدم ابن رائق بغداد فجعله الراضي أمير الأمراء، وفوّض إليه تدبير المملكة وخلع عليه وأعطاه اللواء، ومن ذلك اليوم بطل أمر الوزارة ببغداد ولم يبق إلاّ اسمها، والحكم للأمراء والملوك المتغلّبين، وكان قدومه لخمس بقين من ذي الحجّة سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، ثم دخلت سنة خمس والدّنيا في أيدي المتغلّبين، وهم ملوك الأرض وكل من حصل في يده بلد ملكه ومانع عنه، فالبصرة وواسط والأهواز في يد عبد الله البريدي وأخويه، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة وديار مضر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد بن طغج، والمغرب وافريقية في يد المهدي، والأندلس في يد بني أمية، وخراسان وما والاها في يد نصر بن أحمد بن الساماني، واليمامة وهجر والبحرين في يد أبي طاهر القومطي، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، ولم يبق في يد الراضي وابن رائق سوى بغداد وما والاها، فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة، وضعف ملكها وعمّ الخراب لذلك.

وتوفّي الرّاضي ليلة السبت خامس عشر ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلاثمائة بعلّة الاستسقاء والتنحنح. وكان أكبر أسباب علّته من كثرة الجماع، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وأشهر، وخلافته ست سنين وعشرة أشهر. وكان سمحاً جواداً واسع الصدر أديباً شاعراً حسن البيان؛ وقيل إنّ عمره كان اثنتين وثلاثين سنة، وخلافته ستّ سنين وعشرة أيّام، وكان قصيراً أسمر نحيفاً وله شعر جيد مدوّن وخطب بالنّاس في سامراء فأبلغ وأجاد ومرض أيّاماً ثم قاء دماً كثيراً ومات.

خلافة (إبراهيم المتّقي بالله)

ثم قام بالأمر بعده أخوه أبو العباس إبراهيم المتّقي بالله بن المقتدر بالله بن المعتضد، بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الراضي، فصلّى ركعتين وصعد على السرير، وكان ذا دين وورع، ولهذا لقّبوه المتّقي بالله، فكان تدبير المملكة إلى الأمير حكم التركي وليس للمتّقي

إلا الاسم، ثم إنّ نوروز استولى على بغداد وخلع المتّقي بالله وسلّمه لابن عمّه المكتفي بالله، فأخرجه إلى جزيرة بقرب السندية وأكحله بعد أن أشهد على نفسه بالخلع، وذلك يوم السبت لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً؛ وقيل: كانت أربع سنين. وتوفّي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وكان مولده في سنة سبع وتسعين ومائتين، فأبوه أكبر منه بخمس عشرة سنة، وكان كثير الصوم والتهجّد يدمن التلاوة في المصحف، ولا يشرب مسكراً، وعاش بعد خلعه أربعاً وعشرين سنة.

خلافة (عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي)

ثم قام بالأمر بعده ابن عمّه أبو العباس عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي بن المعتضد، بويع له بالخلافة يوم خلع ابن عمّه المتّقي بالله، ولمّا ولّي الخلافة خلع على نوروز وفوّض إليه تدبير المملكة، وفي أيّامه قدم معزّ الدولة ابن بويه بغداد فخلع عليه وفوّض إليه ما وراء بابه، وضرب السكّة باسمه وأمر أن يخطب له على المنابر ولقّبه بمعزّ الدولة، ولقب أخاه الحسن علياً بعماد الدولة، وهو أكبر بني بويه، وله خبر عجيب، سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الحاء المهملة في لفظ الحيّة، ولقب أخاهما أبا الفتح بركن الدولة، وهو أوسطهم، وله خبر عجيب أيضاً يأتي إن شاء الله تعالى في باب الدال المهملة في لفظ الدّابة، وكان قدوم معزّ الدولة في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وفيها كان خلع المستكفي بالله.

وسبب ذلك أنّ معزّ الدولة بلغه أنّ المستكفي قد دبّر على هلاكه، فدخل على المستكفي وقبّل الأرض ثم قبّل يديه، فطرح له كرسي فجلس عليه، ثم تقدّم لديه رجلان من الدّيلم ومدّا أيديهما إلى المستكفي، فظنّ أنّهما يريدان تقبيل يده، فمدّها إليهما فجذباه من على السرير وجعلا عمامته في عنقه، ثم سحب إلى معزّ الدولة واعتقل ثم خلع وسملت عيناه، وانتهبت دار الخلافة، حتى لم يبق فيها شيء، وذلك لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وتوفّي في دار معزّ الدولة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وهو ابن ستّ وأربعين سنة، وكانت خلافته سنة وأربعة شهور.

خلافة (أبي الفضل المطيع لله)

ابن المقتدر وهو السادس فخلع

ثم قام بالأمر بعده ابن عمّه أبو الفضل المطيع لله ابن المقتدر بن المعتضد، بويع له بالخلافة وله يومئذٍ أربع وثلاثون سنة يوم خلع ابن عمّه المستكفي بالله، وتدبير المملكة إلى معزّ الدولة بن بويه، وفي أيّامه توفّي معز الدولة ببغداد في سنة ستّ وخمسين وثلاثمائة. وكانت مدّة ملكه بالعراق إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً قوي القلب، إلاّ أنّه كان في أخلاقه شراسة، فما زالت التجارب تحنكه والسعادة تخدمه وترفعه إلى

أن بلغ الغاية الّتي لم يبلغها قبله أحد في الإسلام إلاّ الخلفاء. ولمّا توفّي قام ولده عزّ الدولة بختيار بتدبير المملكة وقلّده المطيع لله موضع والده، وخلع عليه واستقل بالأمور.

وفي أيّامه أيضاً توفّي كافور الإخشيدي صاحب مصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وكانت مدّة ملكه اثنتين وعشرين سنة، وفيها قدم جوهر القائد غلام المعز لدين الله صاحب القيروان مصر، فأقام الدعوة بها للمعز لدين الله وبايعه بها النّاس على ذلك وانقطعت الخطبة بمصر عن بني العباس، وشرع جوهر القائد في بناء القاهرة لإسكان الجند بها، ثم دخل المعزّ لدين الله مصر لثمان مضين من شهر رمضان سنة اثنتين وستّين وثلاثمائة، وهو أوّل الخلفاء الفاطميين بمصر، ولمّا تغلّب سبكتكين التركي على بغداد، وكان أكبر حجاب معزّ الدولة ولم تزل منزلته ترتفع عند معزّ الدولة حتى عظم أمره ونفذت كلمته، وخاف المطيع لله منه على نفسه وانضاف إلى ذلك أنّه لازمه مرض، فخلع نفسه من الخلافة طائعاً وسلّمها لولده عبد الكريم؛ وقيل: أبي بكر؛ وقيل: إنّها كنيته، وسمّاه الطائع لله وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة. ثم توفّي بدير العاقول سنة أربع وستّين وثلاثمائة، وكان بين خلعه وموته شهران، وكان عمره ثلاثاً وستّين سنة، وكان وطيء الجانب كثير الصدقات غير أنّه كان مغلوباً على أمره، وليس له من الخلافة إلا الاسم. وكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وأربعة شهور، رحمة الله تعالى عليه.

خلافة (أبي بكر عبد الكريم الطائع لله)

ثم قام بالأمر بعده ولده عبد الكريم أبو بكر الطائع لله، بويع له بالخلافة يوم خلع أبوه نفسه من الخلافة، وعمره سبع وأربعون سنة، ولم يل الخلافة من بني العباس من هو أكبر منه سنّاً. قال صاحب (رأس مال النديم): إنّه لم يتقلّد الخلافة مَنْ أبوه حيٌّ سوى الطائع لله والصدّيق رضي الله عنه وكلاهما اسمه أبو بكر، وهو السادس، فخلع كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وذلك إذا لم يُعَدّ ابن المعتز وإن عدَّ فالمطيع هو السادس وقد خلع نفسه لما حصل له من الفالج، ولمّا ولّي أعني الطائع خلع على سبكتكين التركي وولاّه ما وراء بابه. وفي أيام الطائع استولى الملك عضد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه على بغداد وملكها، فخلع عليه الطائع لله الخلع السلطانية، وتوّجه وطوّقه وسوّره وعقد له لواءين وولاّه ما وراء بابه وتسلّم عضد الدولة الوزير أبا طاهر بن بقية وزير عزّ الدولة، فقتله وصلبه، فرثاه أبو الحسن بن الأنباري بمرثية لم يسمع في مصلوب مثلها، فلنأت بها وهي هذه:

علو في الحياة وفي الممات ... لَحَقٌّ أنت إحدى المعجزات

كأنّ النّاس حولك إذ أقاموا ... وفود نداك أيّام الصلات

كأنّك قائم فيهم خطيباً ... وكلّهم قيام للصلاة

مـددت يـديـك نـحـوهـم احـتـفـاء كـمـدِّكـهـا إلـيـهـم بـالـهـبـات
ولـمـا ضـاق بـطـن الأرض عـن أن يـضـم عـلاك مـن بـعـد الـمـمـات
أصـاروا الـجـو قـبـرك واسـتـعـاضـوا عـن الأكـفـان ثـوب الـسـافـيـات
لـعـظـمـك فـي الـنـفـوس تـبـيـت تـرعـى بـحـراس وحـفـاظ ثـقـات
وتـوقـد حـولـك الـنـيـران قِـدْمـاً كـذلـك كـنـت أيّـام الـحـيـاة
ركـبـت مـطـيـة مـن قـبـل زيـد عـلاهـا فـي الـسـنـين الـمـاضـيـات
وتـلـك قـضـيـة فـيـهـا تـأس تـبـاعـد عـنـك تـعـيـيـر الـعـداة
ولـم أر قـبـل جـذعـك قـط جـذعـاً تـمـكـن مـن عـنـاق الـمـكـرمـات
أسـأت إلـى الـنـوائـب فـاسـتـثـارت فـأنـت قـتـيـل ثـأر الـنـائـبـات
وكـنـت تـجـيـرنـا مـن صـرف دهـر فـعـاد مـطـالـبـاً لـك بـالـتِّـرات
وصـيـر دهـرك الإحـسـان فـيـه إلـيـنـا مـن عـظـيـم الـسـيـئـات
وكـنـت لـمـعـشـرٍ سـعـداً فـلـمّـا مـضـيـت تـفـرّقـوا بـالـمـنـحـات
غـلـيـل بـاطـن لـك فـي فـؤادي حـقـيـق بـالـدمـوع الـجـاريـات
ولـو أنّـي قـدرت عـلـى قـيـام بـفـرضـك والـحـقـوق الـواجـبـات
مـلأت الأرض مـن نـظـم الـقـوافـي ونـحـت بـهـا خـلاف الـنـائـحـات
ولـكـنـي أصـبـر عـنـك نـفـسـي مـخـافـة أن أعـد مـن الـجـنـاة
ومـالـك تـربـة فـأقـول تـسـقـى لأنّـك نُـصْـبُ هـطـل الـهـاطـلات
عـلـيـك تـحـيـة الـرّحْـمـن تـتـرى بـرحـمـات غـواد رائـحـات

وتوفّي الملك عضد الدولة بن بويه في ذي الحجّة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة وهو ابن تسع وأربعين سنة وأحد عشر شهراً، وكان له ملك العراق وكرمان وعمّان وخوزستان والموصل وديار بكر وحرّان ومنبج. وكانت مدّة ملكه ببغداد خمس سنين، وكان ملكاً فاضلاً، جليلاً، عظيماً، مهيباً، صارماً، كريماً، شجاعاً، بطلاً، ذكياً، وله في الذكاء أخبار عجيبة، ونكت غريبة، ليس هذا موضع ذكرها.

وهو أوّل من تسمّى بملك في الإسلام، ولمّا احتضر جعل يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحاقة: 28-29]، ويردّدها حتى مات. ولمّا مات كتم موته، ودفن بدار المملكة ببغداد ثم ظهر موته، وأخرج من قبره وحمل إلى مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فدفن به، وكان عضد الدولة قد بنى المشهد قبل موته كما سيأتي إن شاء الله تعالى في باب الفاء في لفظ الفهد.

ومما يحكى أنّ عضد الدولة خرج يوماً إلى بستان له متنزهاً، فقال: ما أطيب يومنا هذا لو ساعدنا فيه الغيث، فجاء المطر في الوقت فقال:

ليس شرب الراح إلاّ في المطر وغناء من جوار في السحر
ناعمات سالبات للنهى ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح مَنْ فاقَ البشر
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر
سهل الله له بغيته في ملوك الأرض ما دار القمر
وأراه الخير في أولاده ليساس الملك منهم بالغُرَر

فلم يفلح بعد هذه الأبيات وعوجل بقوله: غلاب القدر، ولمّا مات عضد الدولة قام بتدبير المملكة بعده ولده بهاء الدولة، فخلع عليه الطائع لله، وقلّده ما كان بيد أبيه، ثم إنّ بهاء الدولة أمسك الطائع لله واعتقله ونهب دار الخلافة، ثم أشهد على الطائع بخلع نفسه من الخلافة، وذلك في شهر شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. وأقام مخلوعاً معتقلاً إلى أن توفّي في ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. وكانت خلافته سبع عشرة سنة وتسعة أشهر، وعمره ثمان سبعون سنة، وكان مربوعاً، أشقر، كبير الأنف شديد القوّة، في خلقه حدة، كريماً، شجاعاً، بطلاً، جواداً، سمحاً إلاّ أنّ يده كانت قصيرة مع ملوك بني بويه رحمة الله تعالى عليه.

خلافة (أبي العباس أحمد القادر بالله) بن إسحاق

ثم قام بالأمر بعده أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد، بويع له بالخلافة ليلة خلع الطائع لله وعمره يومئذٍ أربع وأربعون سنة، وكان كثير البر والصدقات، مريداً للفقراء، موثراً للتبرك بهم، لكنّه كان مقهوراً على أمره. وتوفّي في ذي القعدة؛ ويقال في ليلة الأضحى؛ ويقال ليلة الحادي عشر من ذي الحجّة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وهو ابن ستّ وثمانين سنة، وكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وشهوراً؛ قيل: هي ثلاثة؛ وقيل: إنّه كان ابن سبع وثمانين سنة. وكان أبيض، طويل اللحية كبيرها يخضبها لشيبه، وكان دائم التهجد، كثير الصدقات، من الديانة على عفة اشتهرت عليه، له مصنف في السنّة وذم المعتزلة، والروافض، وكان يقرأ القرآن في كل جمعة مرّة ويحضره النّاس.

خلافة (أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله) ابن القادر بالله

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله ابن القادر بالله، بويع له بالخلافة يوم موت والده، وفي أيّامه كان ابتداء دولة السلاطين السلجوقية وانقراض دولة بني بويه، وكانت مدّة ملكهم مائة وسبعاً وعشرين سنة، وذلك في سنة ثلاثين وأربعمائة، ذكر ذلك ابن البطريق في «**تاريخه**» في حوادث سنة ستّ وأربعين.

وكان القائم بأمر الله أبيض اللون، مليح الوجه، مشرباً بحمرة، ورعاً، زاهداً عابداً،

مريداً لقضاء حوائج المسلمين، موقراً لأهل العلم، معتقداً في الفقراء والصالحين، حسن الطوية، ولم يقم أحد في الخلافة قدر إقامته، وكان كثير الصدقة، له فضل وعلم من خيار الخلفاء لاسيّما بعد عوده للخلافة في نوبة البساسيري، فإنّه صار يكثر الصيام والتهجّد، وما كان ينام إلاّ على سجادة، وما تجرد من ثيابه لنوم قط.

وتوفّي القائم بأمر الله في سنة سبع وتسعين وأربعمائة لعشر ليال مضت من شعبان، وكانت خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر؛ وقيل: تسعة أشهر؛ وقيل: خمساً وأربعين سنة. وأمّه أرمينية رحمه الله تعالى.

خلافة (أبي القاسم المقتدي بأمر الله) بن محمد بن القائم

ثم قام بالأمر بعده ولد ولده أبو القاسم عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن القائم بأمر الله، بويع له بالخلافة يوم وفاة جدّه القائم بأمر الله في ثالث عشر شعبان سنة سبع وستّين وأربعمائة، وذلك أنّ جدّه كان لمّا مرض افتصد فانفجر فصاده وخرج منه دم عظيم، فخارت قوّته وعجز، فطلب ابن ابنه وعهد إليه بالأمر، ولقبه المقتدي بأمر الله بمحضر من الأئمة والعلماء، وكان ولد بعد موته أبيه ذخيرة الدّين بستّة أشهر وعمرت بغداد في أيّامه، وخطب له بالحجاز واليمن والشام.

حكي أنّ المقتدي قدم إليه يوماً طعام فتناول منه وغسل يديه وهو على أكمل حال وأحسن هيئة في نفسه وجسمه وبين يديه قهرمانته شمس، فقال لها: ما هذه الأشخاص الّذين دخلوا بغير إذن فالتفتت، فلم تر أحداً، ثم نظرت إليه فرأته قد تغيّر وجهه واسترخت يداه، وانحلّت قواه وسقط إلى الأرض، فظنّت أنّه قد غشي عليه، فإذا هو قد مات، فأمسكت نفسها عن البكاء، واستدعت الخادم فاستدعى الوزير أبا منصور فبكيا وأحضرا أبا العباس أحمد المستظهر بن المقتدي، وكان قد عهد إليه أبوه فعزياه وهنآه، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وأشهراً؛ قيل: هي ثلاثة، وقيل: إنّ عمره كان تسعاً وثلاثين سنة، وكان موته في المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ويقال: إنّ جاريته سمّته، وقد كان السلطان صمّم على إخراجه من بغداد إلى البصرة، وكانت حرمته وافرة بخلاف من كان قبله من الخلفاء رحمه الله تعالى.

خلافة (المستظهر بالله أبي العباس أحمد)

ثم قام بالأمر بعده ابنه المستظهر بالله أبو العباس أحمد، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهد منه، وكان مولده في سنة سبعين وأربعمائة، وكان المستظهر كريم الأخلاق، سخي النفس، محبّاً للعلماء، حافظاً للقرآن، منكراً للظلم، وكان لين الجانب، محبّاً للخير، جيد الأدب والفضيلة، قوي الكتابة، مسارعاً في أعمال البر.

توفّي لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وله إحدى وأربعون سنة؛ وقيل اثنتان وأربعون أو ثلاث بعلّة التراقي، وهي الخوانيق، وخلّف أولاداً عدّة. وتوفّيت جدّته أرجوان بعده بيسير في خلافة ابنه المسترشد وهي سرية محمد الذخيرة، وكانت خلافته أربعاً؛ وقيل خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر، رحمه الله تعالى.

خلافة (أبي منصور الفضل المسترشد بالله) ابن المستظهر

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر بالله، بويع له بالخلافة يوم موت والده بعهد من أبيه، وسنّه يومئذٍ سبع وعشرون سنة. وروي أنّه ورد إليه رسل، فجلس لهم في جماعة من أهل بيته، فلمّا أحضروهم بين يديه هجم عليهم الفداوية بالسكاكين، فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه، يقال: إنّ مسعوداً أخا السلطان محمود جهّز عليه الفداوية، وذلك في سابع عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

وكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية شهور، وقيل: سبعة أو ستّة أشهر، وعاش أربعاً وأربعين سنة، وقيل: خمساً وأربعين ولم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أشهم منه، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، شديد الهيبة، ذا رأي وفطنة، وهمّة عالية، ضبط الأمور، وأحيا مجد بني العباس وجاهد غير مرّة.

خلافة (أبي منصور جعفر الراشد بالله)

وهو السادس، فخلع كما سيأتي، هذا إذا لم يُعَدَّ ابن المعتز وإلاّ فالسادس المسترشد، وقد هجم عليه قاعدته، أي الباطنة أرسلهم إليه السلطان سنجر الملقب ذا القرنين فقتلوه، ثم قام بالأمر بعده، يعني: المسترشد ابنه أبو منصور جعفر الراشد بالله بن المسترشد بن المستظهر، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه بعهدٍ منه، فمكث ما شاء الله ثم وقع بينه وبين السلطان مسعود فاستخدم الرّاشد أجناداً كثيرة، وتهيأ للقائه، فكاتب السلطان مسعود أتابك زنكي واستماله، وكذلك فعل بأرتقش فأشارا على الراشد بالتوقف، وأقبل السلطان مسعود بجيوشه، فدخل بغداد في ذي القعدة؛ وقيل: في ذي الحجّة سنة ثلاثين وخمسمائة، فنهب دور الجند، ومنع من نهب البلد، واستمال الرعية وأحضر القضاة والشهود، فقدحوا في الرّاشد بأنّه صدرت منه سيرة قبيحة من سفك الدماء المحرّمة وارتكاب المنكرات وفعل ما لا يجوز فعله وشهدوا عليه بذلك، فحكم قاضي قضاة الممالك وهو ابن الكرخي، والعلم عند الله تعالى بخلعه فخلعوه لأربع عشرة من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة.

وكان الرّاشد قد هرب هو وأتابك زنكي إلى الموصل، فطلبه السلطان مسعود، فهرب إلى فارس ثم دخل أصبهان، فحاصرها وتمرض هناك، فوثب عليه جماعة من الفداوية، فقتلوه. وله إحدى وعشرون سنة؛ وقيل: ثلاثون سنة، وكانت خلافته إلى أن خلع منها سنة إلاّ أياماً،

وكان قتله في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وهو صائم في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان؛ وقيل: إنّه كان قد سقي أيضاً. ودفن في جامع حيي. وخلّف بضعة وعشرين ولداً ذكراً، وخطب له بولاية العهد أكثر أيّام أبيه، وكان شابّاً أبيض، مليحاً، تام الشكل شديد البطش، شجاع النفس، حسن السيرة شاعراً فصيحاً جواداً، كريماً، لم تطل دولته، رحمه الله تعالى.

خلافة (أبي عبد الله محمد المقتفي لأمر الله)

ثم قام بالأمر بعده عمّه أبو عبد الله محمد بن المستظهر بن المقتدي، بويع له بالخلافة يوم خلع ابن أخيه، ولقّب بالمقتفي لأمر الله، وسبب لقبه بهذا أنّه رأى النبيّ ﷺ في المنام قبل خلافته بستّة أشهر؛ وقيل: بسنة وهو يقول له: إنّه سيصل إليك هذا الأمر، فاقتف بي، وكان آدم اللون بوجهه أثر جدري، مليح الشيبة، عظيم الهيبة، سيداً عالماً، فاضلاً، ديّناً، حليماً، شجاعاً، فصيحاً، مهيباً، خليقاً للإمارة، كامل السؤدد، عظيم المملكة، بيده أزمة الأمور، كان لا يجري في خلافته أمر، وإن صغر إلاّ بتوقيعه، وكانت أمّه حبشية، كتب في أيّام خلافته ثلاث ربعات، وكانت وفاته بالخوانيق في شهر ربيع الأوّل سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وهو ابن ستّ وستّين سنة.

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: خمساً وعشرين سنة، وقد جدد باب الكعبة، وعمل لنفسه من العقيق تابوتاً دفن فيه، وقد رأيت فيما نقلته من خط صاحبنا الحافظ صلاح الدين خليل بن محد الأقفهسي فيما نقله من خط الصدر عبد الكريم العلاّمة ابن العلاّمة علاء الدين القونوي أنّ القائم بالأمر بعد المقتفي المستظهر، كذا ذكره، ولا أعلم من هذا المستظهر فليحرر ذلك، وقد ذكر الخلفاء كما هنا الذهبي على هذا الترتيب.

خلافة (أبي المظفر يوسف المستنجد بالله) بن المقتفي

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي، وكان أبوه ولاّه العهد في سنة سبع وأربعين وخمسمائة، بويع له بالخلافة بعد موت أبيه بيوم؛ وقيل: بل يوم مات أبوه. قال ابن خلكان في ترجمته، وهنا نكتة لطيفة وهي أنّ المستنجد رأى في منامه في حياة والده المقتفي أنّ ملكاً نزل من السماء، فكتب في كفّه أربع خاءات، فطلب معبّراً وقص عليه ما رآه، فقال له: تلي الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان كذلك. وتوفّي في سنة ست وسبعين وخمسمائة في ثامن شهر ربيع الثاني، وحبس في حمّام وهو ابن ثمان وأربعين سنة.

وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة، وكان موصوفاً بالعدل والديانة، وأبطل المكوس، وقام كل القيام على المفسدين، وله شعر وسط وأمّه طاوس الكوفية أدركت دولته.

خلافة (المستضيء بنور الله) بن المستنجد

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو الحسن عليّ المستضيء بنور الله بن المستنجد، بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه، وخطب له بالديار المصرية واليمن، وكانت الدولة العباسية منقطعة منهما من زمن المطيع، وكان جواداً، كريماً، مؤثراً للخير، كثير الصدقات، معظماً للعلم وأهله، وتوفّي في سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

وكانت خلافته تسع عشرة سنة، وعاش تسعاً وثلاثين سنة؛ وكان سمحاً جواداً، محبّاً للسنّة. أمنت البلاد في زمنه، وأبطل مظالم كثيرة، واحتجب عن أكثر النّاس، ولم يكن يركب إلاّ مع مماليكه، ولم يكن يدخل عليه غير الأمير قيماز.

خلافة (أبي العباس أحمد الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء، بويع له بالخلافة في بغداد يوم وفاة أبيه في أوّل ذي القعدة سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وعمره ثلاث وعشرون سنة، فبسط العدل وأمر بإراقة الخمور وكسر الملاهي وإزالة المكوس والضرائب، فعمرت البلاد وكثرت الأرزاق، وقصد النّاس بغداد وتبرّكوا به.

وتوفّي سنة اثنتين وعشرين وستّمائة وهو ابن خمسين سنة، وذلك في سلخ شهر رمضان، وحمل على أعناق الرجال إلى البدرية، ودفن بها رحمة الله تعالى عليه. وكانت خلافته سبعاً وعشرين سنة. وكان أبيض تركي الوجه، أقنى الأنف، مليحاً، خفيف العارضين، أشقر اللحية، رقيق المحاسن، فيه شهامة وإقدام، وله عقل، وكان فيه دهاء وفطنة، وتيقظ ونهضة بأعباء الخلافة، وكان في أكثر الليل يشق الدروب والأسواق، وكان الناس يتهيّبون لقاءه، وكان مستقلاً بالأمور في العراق، متمكناً من الخلافة، يتولّى الأمور بنفسه. وما زال في عز وجلالة واستظهار وسعادة، أظهر القسي والبندق والحمام في أيامه، وهو أطول بني العباس خلافة. وكان له عيون على كل سلطان يأتونه بالأخبار. ويحكى أنّ بعض الكبار كان يعتقد فيه أنّ له كشفاً واطلاعاً على المغيبات. وفي آخر أيّامه أصابه الفالج، بقي معه سنتين وذهب عنه، وكان فيه عسف للرعية.

خلافة (الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله)

ثم قام بالأمر بعده ابنه محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، فعمل عزاءه ثلاثة أيّام، وأحسن إلى النّاس وأبطل المكوس، وأزال المظالم وأرسل الخلع إلى أولاد الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ثم إنّ حاجبه قرايغدي بلغه أنّه يريد قتله، فهجم عليه وأمسكه وأشهد عليه بالخلع، وقتله. فعمل له العزاء في البلاد كلها لأجل إحسانه

إليهم، وكان ذلك في سنة أربعين وستّمائة، وهو ابن ثلاثين سنة. وكانت خلافته ثمان عشرة سنة، هكذا لقيت هذه الترجمة في النسخة الّتي نقلت منها، وفيها تخليط لأنّها تحتوي على بعض ترجمة الظاهر بأمر الله وبعض ترجمة المستنصر بالله، وأظن أنّ ذلك من الناسخ، وهذه ترجمة كل واحد منهما على حدته، والله الموفّق.

فالظاهر بأمر الله هو أبو النصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بنور الله حسن بن أبي الحسن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد العباسي. كان أبوه قد خطب له بولاية العهد، فلمّا توفّي تسلّم الخلافة وبايعه الكبار في يوم موته، وكان مولده في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ووفاته في ثالث عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستّمائة، وله اثنتان أو ثلاث وخمسون سنة، وكانت خلافته تسعة أشهر؛ وقيل: ونصفاً.

وكان جميل الصورة، أبيض، مشرباً بحمرة، حلو الشمائل، شديد القوى، فيه دين وعقل ووقار وخير وعدل حتى بالغ فيه ابن الأثير، فقال: لقد أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنّة العمرين؛ قيل له: ألا تتفسّح وتتنزّه؟ فقال: لقد يبس الزرع، فقيل له: يبارك الله في عمرك، فقال: من فتح دكّانه بعد العصر إيش يكسب؟ ثم قال: إنّه أحسن إلى الرعية، وبذل الأموال وأزال المظالم وأبطل المكوس، وكان يقول: الجمع شغل التجّار، أنتم إلى إمام فعّال أحوج منكم إلى إمام قوال، اتركوني أفعل الخير فيكم ما بقيت أعيش، وقد فرق ليلة العيد مائة ألف دينار على العلماء والصالحين.

خلافة (المستنصر بالله)

والمستنصر بالله هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله العباسي. أمّه تركية، ولد في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه، بايعه إخوته وكان أكبرهم وبنو عمّه وهو إذ ذاك ابن خمس وثلاثين سنة مات في بكرة يوم الجمعة عاشر جمادى الثانية سنة أربعين وستمائة. وكان مليح الشكل كأبيه، وكان أشقر ضخماً قصيراً، وخطه الشيب، فخضب بالحناء، ثم ترك. قال ابن الساعي: حضرت بيعته، فلمّا رفعت الستارة شاهدته وقد كمّل الله صورته، ومعناه: كان أبيض مشرّباً بحمرة أزج الحاجبين أدعج العينين سهل الخدّين أقنى الأنف، رحب الصدر، عليه ثوب أبيض وقباء أبيض وطرحة قصب بيضاء، فجلس إلى الظهر، وبلغني أنّ عدّة الخلع الّتي خلعها بلغت ثلاثة آلاف خلعة وخمسمائة خلعة وسبعين خلعة. وكانت خلافته وافرة الحشمة وفيه عدل ودين للمتمرّدين ونهضة بأعباء الخلافة، ووقف المدارس والمساجد وبذل الأموال ودانت له الملوك، وكان جدّه النّاصر يحبه ويسمّيه القاضي لعقله ومحبته للحق، وأنشأ المدرسة الّتي لا نظير لها في الدنيا، واستخدم عسكراً عظيماً إلى الغاية حتى إنّ جريدة جيشه بلغت نحو مائة ألف فارس استعداداً لحرب

التتار. وقد خطب له بالأندلس وبعض بلاد المغرب. وكانت خلافته سبع عشرة سنة، فالله يتغمّده برحمته ومغفرته، فلم يخلع هو ولا أبوه، وبهذا نقضت القاعدة، إلاّ أنّ التتار كان أمرهم قد عظم في أيّامهما، فأخذوا جملة مستكثرة من بلاد الإسلام وفقد جلال الدين خوارزم شاه في أيّام المستنصر في وقعة كانت بينه وبين التتار، وهذا أعظم وأطم من الخلع، ثم لم ينتظم لبني العباس في العراق أمر بحيث إنّ من ولّي من بعد هؤلاء لم يكملوا العدّة المشروطة، فإنّ الّذي جاء بعدهم واحد وهو المستعصم بالله بن المستنصر، وهو الّذي قتله التتار، وانقرضت الدولة العبّاسية من العراق سنة ست وخمسين وستمائة، فإنّ المستعصم قتل في الثامن والعشرين من المحرم، كما ستراه في ترجمته إن شاء الله تعالى.

خلافة (المستعصم بالله)

ثم قام بالأمر بعده المستعصم بالله، وهو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن الظاهر محمد بن الناصر العباسي، آخر الخلفاء العراقيين. وكانت دولتهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة. وكان مولد أبي أحمد في خلافة جد أبيه. قال المؤلّف رحمه الله تعالى: بويع له بالخلافة يوم قتل الظاهر البيعة العامة، وذلك في جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة، فظهر بهذه العبارة أنّ المؤلف جعل الترجمة السابقة للظاهر، ولم يجعل للمستنصر ترجمة، وأنّ الناسخ نقل ذلك كما وجده، فالاعتماد على ما ذكرته من ترجمتهما وهو السادس، فخلع وقتل في أيّام هولاكو لمّا أخذ بغداد سنة خمس وخمسين وستّمائة، وكان ذلك بمواطأة وزيره ابن العلقمي، وسوء تدبير المستعصم واشتغاله بلعب الحمام، وبما لا يليق به، وكان قد خرج إلى هولاكو ومعه الفقهاء والصوفية فقتلوا عن آخرهم، وأُخذ المستعصم فخُلع ووُضع في جوالق وضُرب بالمرازب، وقيل بمداق الجص إلى أن مات، ولم ينتظم لبني العباس بعده أمر، وذلك في الثامن والعشرين من المحرم سنة ستّ وخمسين وستمائة.

وكان السبب في قتله أنّ الطاغية هولاكو بن قبلاي خان بن جنكز خان المغولي لمّا كان في أوائل سنة ستّ وخمسين وستّمائة قصد بغداد بجيش عرمرم فخرج إليه الدويدار بالعسكر، فالتقوا بطلائع هولاكو وعليهم تايجو فانكسروا لقلّتهم، ثم أقبل تايجو فنزل غربي بغداد ونزل هولاكو على شرقيها، فأشار الوزير على الخليفة أن يخرج إلى هولاكو في تقرير الصلح، فخرج الكلب وتوثّق لنفسه، ثم رجع، فقال: إنّ هولاكو راغب في أن يزوّج ابنته بابنك وأن تكون الطاعة له كالملوك السلجوقية ويرحل عنك، فخرج الخليفة في أكابر الوقت وأعيان دولته ليحضروا العقد، فضربوا رقاب الجميع وقُتل الخليفة، وكان حليماً، كريماً سليم الباطن، قليل الرأي، حسن الديانة، مبغضاً للبدعة، وبالجملة ختم له بخير، فإنّ الكافر هولاكو أمر به وبولده أبي بكر فرفسا حتى ماتا، وذلك في حدود آخر المحرّم، وكان الأمر

أشغل من أن يوجد مؤرّخ لموته أو لمواراة جسده، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وبقي الوقت بلا خليفة ثلاث سنين، فلمّا كان في شهر رجب سنة تسع وخمسين وستّمائة بايع المصريون بمصر المستنصر بالله.

خلافة (المستنصر بالله أحمد) بن الخليفة الظاهر بالله

هو أحمد بن الخليفة الظاهر بالله بن محمد بن الناصر العباسي الأسود، كانت أمّه حبشية، وكان بطلاً شجاعاً، قدم مصر فعرفوه وهو عم المستعصم المقتول نهض بإقامة دولته ومبايعته السلطان الملك الظاهر ففوّض أمر الأمّة إليه، ثم خرجا إلى الشام، ثم إن الخليفة فارقه من ثم وسار بعسكر نحو ألف ليملك بغداد، فكان القتال بينه وبين التتار في آخر السنة، فعدم في الوقعة، وكان في خدمته الحاكم أبو العباس أحمد فانهزم إلى الشام.

خلافة الحاكم بأمر الله

فلمّا كان في ثامن المحرم سنة إحدى وستّين وستمائة عقد مجلس عظيم لعقد البيعة للخليفة، فأحضروا أبا العباس أحمد ابن الأمير أبي علي بن أبي بكر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله العباسي، فأثبت نسبه، فعند ذلك مدّ السلطان الملك الظاهر يده وبايعه بالخلافة، ثم بايعه القضاة والأمراء، ولقّب بالحاكم بأمر الله. فلمّا كان من الغد خطب خطبة أوّلها: الحمد لله الّذي أقام لبني العباس ركناً وظهراً ثم كتب بدعوته وإمامته إلى الأقطار. وبقي في الخلافة أربعين سنة وأشهراً، وكانت وفاته في جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة. ودفن عند السيدة نفيسة رحمة الله تعالى عليهما.

خلافة (المستكفي بالله أبي الرّبيع سليمان) بن الحاكم بأمر الله

عهد إليه بالأمر أبوه الحاكم بأمر الله، وقرىء تقليده بعد عزائه بوالده، وخطب له على المنابر في جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، واستمرّ في الخلافة تسعاً وثلاثين سنة، ومات بقوص في شعبان سنة أربعين وسبعمائة، وهو ابن يضع وخمسين سنة، رحمة الله تعالى عليه.

خلافة (الحاكم بأمر الله أحمد) بن المستكفي بالله

كانت خلافته في المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. بويع الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسي، وكان ولي عهد أبيه. هكذا ذكره الحسيني في ذيله على العبر. وذكر الذهبي في آخر ذيله عليه في سنة أربعين وسبعمائة أنّ المستكفي لمّا مات بويع لأخيه إبراهيم بغير عهد واستمرّ الحاكم في الخلافة إلى أن أتاه حمامه وهو بالقاهرة في سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.

خلافة (المعتضد بالله)

بويع له بالخلافة بعهد من أخيه الحاكم بأمر الله، ولقّب بالمعتضد بالله، وهو أبو الفتح بن أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الرّبيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن أبي علي بن المسترشد بالله العباسي، فكانت خلافته نحواً من عشرين سنة، ومات في رابع جمادى الأولى سنة ثلاث وستّين وسبعمائة بالقاهرة.

خلافة (المتوكّل على الله)

بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه بعهد منه في سابع جمادى الثانية سنة ثلاث وستّين وسبعمائة، وكان مولده في سنة نيّف وأربعين وسبعمائة أو قريب منها، وهو أبو عبد الله محمد، وقيل حمزة المتوكّل على الله بن المعتضد بالله العباسي فاستقرّ في الخلافة إلى أن مات في شعبان سنة ثمان وثمانمائة، غير أنّه تخلّل فيها أعوام خلع فيها وبويع لقريبه زكريا بن إبراهيم في ثالث صفر سنة تسع وسبعين وسبعمائة، ثم أُعيد بعد شهر واستمرّ إلى شهر رجب سنة خمس وثمانين، فخلع وحبس وبويع لعمر بن المعتضد، ولقّب بالواثق، ثم مات فبويع لأخيه زكريا ولقّب بالمستعصم.

واستمرّ المتوكّل محبوساً إلى صفر سنة إحدى وتسعين، فأُفرج عنه ثم ضيّق عليه ومُنع النّاس من الدخول إليه، فلمّا كان في سابع عشر شهر ربيع الأوّل أُفرج عنه، فلمّا كان اليوم الأوّل من جمادى الأولى بويع ونزل إلى داره وفي خدمته الأمراء والقضاة، وكان يوماً مشهوداً، واستمرّ إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه.

خلافة (المستعين بالله)

هو أبو الفضل العباس بن المتوكّل على الله أبي عبد الله محمد بن المعتضد أبي بكر بن سليمان بن أحمد العباسي، عهد إليه أبوه بالخلافة، وكان قد عهد قبله لولده الآخر المعتمد على الله أحمد، ثم خلعه وولي هذا، واستمرّ أحمد مخلوعاً إلى أن مات، فلمّا مات المتوكّل بويع ابنه العباس في شهر رجب سنة ثمان وثمانمائة واستمرّ في الخلافة إلى أن حوصر الملك الناصر فرج بن برقوق بدمشق، وقيل: بويع له بالسلطنة مضافة إلى الخلافة في يوم السبت خامس عشر من المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة.

اجتمع أهل الحل والعقد والقضاة والأمراء ومن حضر، فسألوه في ذلك فامتنع واشتدّ امتناعه وصمّم، ثم إنّه أجابهم إلى ذلك بعد أن توثّق منهم بالأيمان، ولم يغيّر لقبه، وضربت سكّة الذهب والفضة باسمه، وتصرّف بالولاية والعزل، وفي الحقيقة إنّما كانت إليه العلامة والخطبة، فلمّا توجّه العسكر إلى مصر كانت الأمراء كلّهم في خدمته على هيئة السلطنة،

ولكن الحل والعقد للأمير شيخ، فلمّا كان اليوم الثامن من شهر ربيع الثاني دخل مصر فشقّها والأمراء بين يديه، وكان يوماً مشهوداً، فاستمرّ إلى القلعة فنزلها، ونزل شيخ في الإصطبل بباب السلسلة، فلمّا كان في اليوم الثامن [. . . .][1] دخل شيخ والأمراء إلى القصر وجلس الخليفة على تخت المملكة، وخلع على شيخ خلعة عظيمة بطراز لم يعهد مثله، وفوّض إليه أمر المملكة ولقبه بنظام الملك، فكان يدعى لهما على المنابر في الحرمين وغيرهما، وصار الأمراء إذا فرغوا من الخدمة في القصر نزلوا إلى خدمة شيخ في الإصطبل، فأعيدت الخدمة عنده، ووقع الإبرام والنقض، ثم يتوجّه دويداره إلى الخليفة فيعلم على المناشير والتواقيع، واستمرّ الأمر على ذلك مدّة.

وكان شيخ يظن أنّ الخليفة يتوجّه إلى بيته ويستعفي من السلطنة، فلمّا لم يفعل أعرض عنه، ولم يبق عنده إلاّ من يخدمه من حاشيته، فلمّا كان في يوم الإثنين مستهل شعبان أحضر شيخ أهل الحل والعقد والقضاة والأمراء والمباشرين فبايعوه بالسلطنة ولقّبوه بالملك المؤيد أبي النصر ثم إنّه صعد القصر وجلس على تخت المملكة فقبّل الأمراء الأرض بين يديه وصافحه القضاة وأهل الوظائف، وأرسل إلى الخليفة يسأله أن يشهد عليه بتفويض السلطنة له على عادة من تقدّمه، فأجابه بشرط أن يذهب إلى بيته، فلم يوافقه على ذلك أيّاماً ثم إنّه نقله من القصر وأنزله في دار من دور القلعة ومعه أهله ووكّل به من يمنع النّاس من الدخول إليه، فلمّا كان في ذي القعدة قطع الدعاء للخليفة على المنابر، وكان قبل أن يلي السلطنة يدعى له مع السلطان.

واستمرّ في الخلافة إلى أن خُلع في سنة ستّ عشرة، فلمّا خرج المؤيّد إلى نيروز أرسله إلى الاسكندريّة فعُقل بها، ولم يزل بها إلى أن استقر ططر في المملكة فأرسل في إطلاقه وأذن له في المجيء إلى القاهرة، فاختار الإقامة في الإسكندرية لأنّها لاقت بحاله واستطابها وحصل له بها مال جزيل من التجارة، فاستمرّ إلى أن مات فيها شهيداً بالطاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة.

فصل: فيما يجب على من يصحب الخلفاء الرّاشدين وأمراء المؤمنين والملوك والسلاطين. قال الشعبي: قال لي عبد الله بن عباس: قال لي العباس: يا بني إنّي أرى هذا الرجل، يعني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدّمك على كثير من أصحاب رسول الله ﷺ، وإنّي أوصيك بكلمات أربع: لا تفشين لهم سرّاً، ولا تحدثنهم كذباً، ولا تطرين عندهم نصيحة، ولا تغتابن لديهم أحداً. قال الشعبي: فقلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف، قال: أي والله ومن عشرة آلاف.

قال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك ولداً فاجعله

(١) بياض في الأصل.

سيّداً، وإذا جعلك أخاً فاجعله والداً، ولا تديمن النظر إليه، ولا تكثر من الدعاء له، ولا تتغير منه إذا سخط، ولا تغتر به إذا رضي ولا تلح في مسألته، وقد قيل في المعنى:

قرب الملوك يا أخا البدر السني حظ جزيل بين شدقي ضيغم

قال الفضل بن الرّبيع: من كلّم الملوك في حاجة في غير وقتها جهل مقامه، وضاع كلامه، وما أشبه ذلك إلاّ بأوقات الصلاة الّتي لا تقبل إلاّ في وقتها.

قال خالد بن صفوان: من صحب السلطان بالنصيحة والأمانة كان أكبر عَدُوٍّ له ممن صحبه بالفسق والخيانة، لأنّه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، فعدو السلطان يبغضه لنصيحته وصديقه ينافسه في مرتبته، قال أفلاطون الحكيم: إذا خدمت ملكاً فلا تطعه في معصية ربّك، فإنّ إحسانه إليك أفضل من إحسانه إليك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه بك. وقال رسول الله ﷺ: «**من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه**»، رواه البيهقي في «**الشعب**» من حديث ابن مسعود وأنس بلفظ: «**من أصبح حزيناً على الدّنيا أصبح ساخطاً على ربّه، ومن أصبح يشكو مصيبته فإنّما يشكو ربّه، ومن دخل لغني فتضعضع له ذهب ثلث دينه**». وأخرج الديلمي من حديث أبي ذر: «**لعن الله فقيراً يتواضع لغني من أجل ماله، من فعل ذلك فقد ذهب ثلثا دينه**»، وقد قال ﷺ: «**من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه**». وروى أحمد عن بعض الصحابة مرفوعاً: «**إنّك لا تدع شيئاً اتقاء لله إلاّ أعطاك الله خيراً منه**».

وقال أفلاطون الحكيم: من لم يعتبر بالتجارب أوقعه الله في المهالك؛ وقال: كفى بالتجارب تأديباً وبتقلب الأيام عظة؛ وقال: الملك كالنهر الأعظم تستمد منه الأنهار الصغار، فإن كان عذباً عذبت وإن كان مالحاً ملحت. وسئل عن الرجل العاقل، فقال: من اجتمعت فيه خصال الأدب ولا يقهره الغضب لأنّ العقل أصله التثبت في الأمور وثمرته السلامة. وقال: السلطان كالسوق ما راج فيه حمل إليه، وصاحب الملك كراكب الأسد تهابه النّاس وهو لمركوبه أهيب، وقال: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل؛ ومن أطلق بصره طال أسفه؛ ومن طال أمله ساء عمله؛ ومن أطلق لسانه قيّد نفسه؛ ومن أصلح فاسده أرغم حاسده؛ ومن قاسى الأمور فهم المستور؛ ومن أحب المكارم اجتنب المحارم؛ ومن حسنت به الظنون رمقته الرجال بالعيون. وقال: الأدب ينوب عن الحسب؛ والعفو يفسد اللئيم بقدر ما يصلح الكريم؛ ومن شاور ذوي الألباب دلّ على الصواب؛ من أمل إنساناً هابه، ومن قصر عن شيء عابه؛ ومن بالغ في الخصومة أثم، ومن قصر عنها ظلم؛ ولا يستطيع أن يتّقي الله من خاصم؛ من فرط في الأمانة ضدّها عمل، من عرض نفسه لما قصر عنه فعله فقد نقص في عين غيره؛ من جاد ساس، ومن ساد قاد؛ ومن قاد بلغ المراد؛ ظلم الأيامى واليتامى مفتاح الفقر؛ لا يصلح للصدر إلاّ من يكون واسع الصدر؛ ما تاه إلاّ وضيع، ولا فاخر إلا لقيط؛ ولا تعصب إلاّ

بخيل، ولا أنصف إلاّ كريم؛ الحاجة إلى الأخ المعين كالحاجة إلى الماء المعين؛ الكريم يلين إذا استطعف، واللئيم يقسو إذا لوطف؛ أقرب النّاس إلى الله أكثرهم عفواً عند القدرة؛ وأنقص النّاس عقلاً من ظلم من هو دونه؛ من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ؛ من رضي بالقضاء صبر على البلاء؛ من عمر دنياه ضيع ماله، ومن عمّر آخرته بلغ آماله؛ القناعة عز المعسر والصدقة كنز الموسر؛ من سرّه فساده ساء معاده؛ الشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه؛ الخير أجلّ بضاعة والإحسان أفضل صناعة؛ من استغنى عن النّاس أمن من عوارض الإفلاس؛ من رفع حاجة إلى الله استظهر في أمره، ومن رفعها إلى النّاس وضع من قدره؛ من أبدى سر أخيه أبدى الله أسرار مساويه؛ اعص الجاهل تسلم، وأطع العاقل تغنم؛ ازدياد الأدب عند الأحمق كازدياد الماء العذب في أصول الحنظلة لا يزيدها إلاّ مرارة؛ مكتوب في الإنجيل: كما تدين تدان؛ بالكيل الّذي تكيل تكال.

وكان بعض الخلفاء يتلطّف في إدخال السرور على إخوانه فيضع عندهم الصرّة فيها ألف درهم ويقول لبعضهم: أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل إليه بعض غلمانه، فيقول له: أنت في حل من ذلك. وقال بعض الحكماء: أحزم النّاس من وقى نفسه بماله ووفى دِيْنه بنفسه؛ وأجود النّاس من عاش النّاس في فضله؛ وأفضل اللّذات التفضل على الإخوان. وقال: المعروف ذخيرة الأدب؛ والبر غنيمة الحازم؛ والخير عطر الأخيار؛ من بذل ماله استعبد أمثاله؛ ومن أذل فلسه أعز نفسه؛ وإن صاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متّكَأً. وقال: إمام عادل خير من مطر وابل وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم. وقال: فضل الملوك في الإعطاء وشرفهم في العفو وعزّهم في العدل، والعدل هو نظام العالم. وقال ﷺ: «**سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلاّ ظلّه: إمام عادل . . .**» فبدأ بالعدل، وقال عليه الصلاة والسلام: «**عدل السلطان يوماً يعدل عبادة سبعين سنة**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**عدل ساعة في الحكومة خير من عبادة ستّين سنة**»، وقال ﷺ: «**السلطان ظلّ الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر وإن جار كان عليه الإثم وعلى الرعية الصبر**».

خلافة (المعتضد بالله أبي الفتح داود)

بويع له بالخلافة في سابع عشر ذي الحجّة سنة ستّ عشرة وثمانمائة عوضاً عن أخيه المستعين بالله. لمّا خلعه الملك السلطان المؤيّد فاستدعاه وأجلسه بينه وبين القاضي الشافعي صالح البلقيني وقرّره في الخلافة، فاستمرّ فيها إلى أن مات يوم الأحد الرابع من شهر ربيع الأوّل سنة خمس وأربعين وثمانمائة، وقد قارب السبعين بعد مرض طويل رحمة الله تعالى عليه.

خلافة (المستكفي بالله)

هو سليمان أبو الرّبيع بن المتوكّل على الله أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن سليمان بن أحمد العباسي، بويع له بالخلافة يوم موت أخيه شقيقه المعتضد بالله بعهد منه في العشر الأوّل من شهر ربيع الأوّل من سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

قال الشيخ صلاح الدّين الصفدي في «**شرح لامية العجم**»: قلت: وكذلك العبيديون الّذين تسمّوا بالفاطميين خلفاء مصر فأوّل من ملك منهم بالمغرب المهدي، ثم القائم، ثم ابنه المنصور، ثم المعز وهو أوّل من ملك مصر منهم، كما تقدّم، ثم العزيز، ثم كان السادس الحاكم، فقتلته أخته، وسيأتي له ذكر إن شاء الله تعالى في باب الحاء المهملة في لفظ الحمار، ثم قال: وإنّها لمّا قتلته ولّت ابنه الظاهر ثم كان المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر ثم الحافظ، ثم كان السادس الظافر، فخلع وقتل ثم ولي ابنه الفائز، ثم العاضد، وهو آخرهم.

قال: وكذلك بنو أيّوب في ملك مصر فأوّلهم صلاح الدّين الملك النّاصر، ثم ابنه العزيز، ثم أخوه الأفضل بن صلاح الدّين، ثم العادل الكبير أخو صلاح الدين، ثم الكامل ولده، ثم كان السادس العادل الصغير، فقبض عليه أرباب دولته وخلعوه وولّوا الملك الصالح نجم الدّين أيوب، ثم ولده المعظم توزانشاه، وهو آخرهم.

قال: وكذلك دولة الأتراك، فأوّلهم المعزّ عزّ الدين أيبك الصالحي، ثم ابنه المنصور، ثم المظفر قطز، ثم الظاهر بيبرس، ثم ابنه السعيد محمد، ثم كان السادس العادل سلامش بن الظاهر بيبرس، فخلع، ثم ملك السلطان المنصور قلاوون الألفي، انتهى.

وقد ذكر المؤلّف رحمه الله تعالى: دولة العبيديين وغيرهم من ملوك مصر على الإجمال مختصراً وها أنا أذكرهم مفصّلاً مبيّناً، وذلك أنّ الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله ـ القداح وذلك أنّه كان يعالج العيون ويقدحها ـ ابن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ قدم إلى سلمية قبل وفاته، وكان له بها ودائع وأموال من ودائع جدّه عبد الله القداح، فاتفق أنّه جرى بحضرته ذكر النساء، فوصفوا له امرأة يهودي حداد مات عنها زوجها وهي في غاية الحسن والجمال، وله منها ولد يماثلها في الجمال، فتزوّجها وأحبّها وحسن موضعها منه، وأحبّ ولدها فعلّمه فتعلّم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة، وكان الحسين يدّعي أنّه الوصي وصاحب الأمر، والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، ولم يكن له ولد، فعهد إلى ابن اليهودي الحدّاد، وهو عبيد الله المهدي أوّل من ملك من العبيديين ونسبتهم إليه، وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل وأمر الدعاة وأعطاه الأموال والعلامات وأمر أصحابه بطاعته وخدمته.

وقال إنّه الإمام والوصي. وزوّجه بابنة عمّه، فوضع حينئذٍ المهدي لنفسه نسباً وهو

عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، وبعض النّاس يقول: إنّه من ولد القداح. فلمّا توفّي الحسين وقام بعده المهدي انتشرت دعوته وأرسل إليه داعية بالمغرب بخبره بما فتح الله عليه من البلاد وأنّهم ينتظرونه، فشاع خبره عند النّاس أيّام المكتفي، فطلب فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الملقب بالقائم وهو يومئذٍ غلام، ومعهما خاصتهما ومواليهما يريدان المغرب، فلمّا وصلا إلى إفريقية أحضر الأموال منها واستصحبها معه، فوصل إلى رقادة في العشر الأخير من شهر ربيع الآخرة سنة سبع وتسعين ومائتين، ونزل في قصر من قصورها وأمر أن يدعى له في الخطبة يوم الجمعة في جميع تلك البلاد ويلقب بأمير المؤمنين المهدي، وجلس للدعاء في يوم الجمعة فأحضر النّاس بالعنف ودعاهم إلى مذهبه فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حبسه.

فابتداء دولتهم سنة سبع وتسعين ومائتين، فأولهم المهدي عبيد الله ثم ابنه القائم نزار، ثم ابنه المنصور إسماعيل، ثم ابنه المعزّ معد وهو أوّل من ملك مصر من العبيديين، وكان ذلك في سابع عشر شعبان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، ودعي له فيها يوم الجمعة العشرين من شعبان على المنابر وانقطعت خطبة بني العباس من الديار المصرية من يومئذٍ، وكان الخليفة العباسي إذ ذاك المطيع لله الفضل بن جعفر.

وفي يوم الثلاثاء سادس شهر رمضان سنة اثنتين وستّين وثلاثمائة دخل المعزّ مصر بعد مضي ساعة من اليوم المذكور، وكل هذا جاء بطريق الاستطراد فإنّ المقصود خلافه، ثم العزيز بن المعز، ثم ابنه الحاكم أبو العباس أحمد، وهو السادس من العبيديين، فقتل لأنّه خرج عشيّة يوم الإثنين سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وطاف على عادته في البلد، ثم توجّه إلى شرقي حلوان، ومعه ركابيان فردّهما. وانتظره النّاس إلى ثالث ذي القعدة ثم خرجوا في طلبه فبلغوا ذيل القصر وأمعنوا في الطلب فشاهدوا حماره على ذروة الجبل مضروب اليدين بالسيف، فتتبعوا الأثر، فانتهوا إلى بركة هناك، ونزل شخص فيها فوجد سبع حبات مزررة وفيها أثر السكاكين، فلم يشكوا حينئذٍ في قتله، ثم ابنه الظاهر أبو الحسن علي، ثم ابنه المستنصر، ثم ابنه المستعلي، ثم ابنه الآمر، ثم الحافظ عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر، ثم ابنه الظافر وهو السادس، فقتل ولم يل الخلافة بعده منهم إلاّ اثنان، ابنه الفائز، ثم العاضد عبد الله بن يوسف بن الحافظ.

وانقرضت دولة العبيديين في سنة سبع وستّين وخمسمائة، وذلك في أيّام المستضيء بنور الله أبي محمد الحسن بن المستنجد العباسي، وخلفهم بمصر السلطان السعيد الشهيد الملك النّاصر صلاح الدّين يوسف بن أيوب، ثم ابنه الملك العزيز عثمان، ثم أخوه الأفضل، ثم الملك العادل الكبير أبو بكر بن أيّوب، ثم ابنه الملك الكامل محمد، ثم ابنه الملك العادل الصغير وهو السادس، فخلع، ثم الملك الصالح أيّوب بن الكامل، ثم ابنه الملك المعظّم

تورانشاه، ثم أخوه الأشرف يوسف وهو ابن شجرة الدرّ، ثم المعز أيبك، ثم ابنه المنصور علي، ثم المظفر قطز، وهو السادس فقتل ثم الظاهر بيبرس ثم ابنه السعيد محمد بن بركة خان، ثم أخوه العادل سلامش، ثم المنصور قلاون، ثم ابنه الأشرف خليل، ثم القاهر بيدر وهو السادس أقام نصف يوم وقتل، ثم النّاصر بن المنصور فخلع مرّة بالعادل كتبغا، وخلع نفسه مرّة أخرى، فتسلطن مملوك أبيه المظفر بيبرس، ثم العادل كتبغا، ثم المنصور لاجين، ثم المظفر بيبرس، ثم المنصور أبو بكر بن النّاصر بن المنصور، ثم أخوه الأشرف كجك، فخلع ثم قتل وهو السادس، ثم أخوهم النّاصر أحمد، ثم أخوهم الصالح إسماعيل، ثم أخوهم الكامل شعبان، ثم أخوهم المظفر حاجي، ثم أخوهم الملك النّاصر حسن، ثم أخوهم الملك الصالح صالح وهو السادس فخلع وسجن، وأعيد الملك لمن كان قبله وهو الملك النّاصر حسن، ثم المنصور علي بن الصالح، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن النّاصر، ثم المنصور علي بن الأشرف شعبان بن حسين بن النّاصر، ثم أخوه الصالح حاجي بن الأشرف، ثم الظاهر برقوق، ثم أعيد حاجي ولقب بالمنصور، ثم أعيد برقوق، ثم ولده النّاصر فرج، ثم أخوه العزيز، ثم أعيد فرج، فخلع وقتل، ثم الخليفة المستعين بالله العباسي، ثم الملك المؤيد أبو النصر شيخ، ثم ابنه الملك المظفر أحمد، فخلع، ثم الملك الظاهر ططر، ثم ولده الملك الصالح محمد، فخلع، ثم الملك الأشرف برسباي، ثم ابنه الملك العزيز يوسف، فخلع، ثم الملك الظاهر جقمق، ثم ولده الملك المنصور عثمان، فخلع، ثم الملك الأشرف أينال، ثم ولده الملك المؤيد أحمد فخلع، ثم الملك الظاهر خشقدم، ثم الملك الظاهر بلباي، فخلع، ثم الملك الظاهر تمربغا، فخلع، ثم الملك الظاهر خاير بك، فخلع من ليلته، ثم الملك الأشرف قايتباي، ثم ولده الملك النّاصر محمد، فقتل، ثم الملك الظاهر قانصوه خال الملك النّاصر محمد، فخلع، ثم الملك الأشرف جانبلاط، فخلع وقتل، ثم الملك العادل طومان باي، فخلع وقتل، ثم الملك الأشرف قانصوه الغوري، ثم السلطان سليم بن محمد بن بايزيد بن عثمان، ثم ولده السلطان سليمان ثم ولده السلطان سليم، ثم ولده السلطان مراد نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً بمحمد وآله ﷺ والحمد لله وحده، وقد أطلنا الكلام في ذلك، ولكن لا يخلو من فائدة أو فوائد.

ولنرجع إلى ما قصدناه من الكتاب والله تعالى الموفق للصواب، فنقول: وهو أي الإوز يحب السباحة في الماء، وفرخه يخرج من البيض فيسبح في الحال، وإذا حضنت الأنثى قام الذكر يحرسها لا يفارقها طرفة عين، وتُخرج فراخها في أواخر الشهر.

وفي «**المجالسة**» للدينوري و«**الأذكياء**» لأبي الفرج بن الجوزي عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء رجل إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فقال: يا نبي الله إنّ لي جيراناً يسرقون إوزي، فنادى: الصلاة جامعة، ثم خطبهم فقال في خطبته: وأحدكم يسرق إوز

جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه فمسح رجل رأسه بيده، فقال سليمان: خذوه فإنّه صاحبكم.

وحكمه: حل الأكل بالإجماع.

الخواص: لحم الإوز والبط كثير الحرارة والرطوبة، وبقراط الحكيم يقول: إنّه أرطب الطير الحضري وأجودها المخاليف، وهو يخصب الأبدان لكنّه يملؤها فضولاً، ودفع ضررها نفخ البورق في حلوقها قبل الذبح، وهو يولد خلطاً بلغمياً. ويوافق أصحاب الأمزجة الحارة، ويختار أن يطلى لحمها قبل الشي بالزيت لتذهب زهومته، وفي طبخه أن يكثر الأبازير الحارّة ليزول غلظه وزهومته لأنّه كثير الفضول، غير موافق للمعدة لعسر انهضامه، وهو لتكثير الفضول يسرع إلى توليد الحميات.

قال القزويني: إذا شُويت خصية الإوز وأكلها الرجل وجامع زوجته من وقته فإنها تعلق بإذن الله تعالى. وفي جوفه حصاة تمنع من الاستطلاق إذا شربها المبطون نفعته، ودهنه ينفع من ذات الجنب وداء الثعلب، إذا طليا به وأكل لسانه ينفع من تقطير البول إذا ديم عليه، وغذاؤه جيد إلاّ أنّه بطيء الهضم. وأمّا بيضه فمعتدل الحرارة لكنّه غليظ وأنفعه النيمبرشت، لكنّه يضر بأصحاب القولنج والرياح والدوار، وأكله بالصعتر والملح يدفع ضرره وهو يولد دماً منتناً. ويوافق أصحاب الأمزجة الحارة وهو وبيض النعام غليظان بطيئا الانهضام، فمن أحبّ أكلهما فليقنع بصفرتهما، ويجب أن يعلم أنّ الصفرة من كل بيض ألطف من البياض، والبياض أرطب من الصفرة وأغذى البيض وألطفه ذو الصفرة وأقلّه غذاء ما كان من دجاج لا ديك لها، وهذا النوع لا يتولّد منه حيوان ولا مما يباض في نقصان القمر على الأكثر، لأنّ البيض من الاستهلال إلى الأبدار يمتلىء ويرطب فيصلح للكون وبالضد من الأبدار إلى المحاق، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكر بيض الحجل والدجاج في أماكنهما.

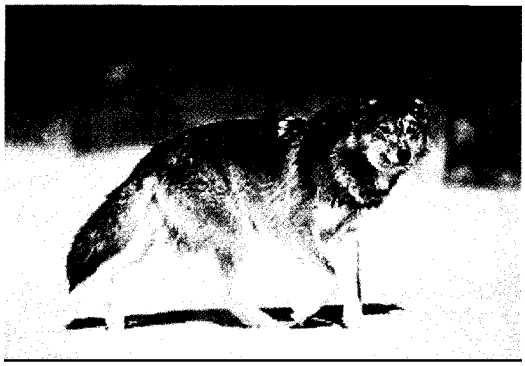

الألفة: السعلاة، وقيل: الذئبة، وسيأتيان إن شاء الله تعالى في باب السين المهملة والذال المعجمة.

الإلق: بالكسر، الذئب والأنثى إلقة وجمعهما إلق، وربّما قالوا للقردة: الإلقة، ولا يقال للذكر: إلق، ولكن قرد ورباح.

الأودع: اليربوع، قاله الجوهري، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الياء آخر الحروف.

الأورق: من الإبل الّذي لونه بياض إلى سواد، قاله الجوهري، وهو أطيب الإبل لحماً، وليس بمحمود عندهم في عمله وسيره.

الأوس: الذئب وبه سمّي الرجل وأويس اسم للذئب، جاء مصغّراً مثل الكميت واللجين. قال الهذلي:

يا ليت شعري عنك والأمر أمم ما فعل اليوم أويس بالغنم

وقال الكميت:

كما خامرت في حضنها أم عامر لذي الحبل حتى عال أوس عيالها

لأنّ الضبع إذا صيدت ولها ولد من الذئب لم يزل الذئب يطعم ولدها إلى أن يكبر، قاله الجوهري، قال: وقوله: لذي الحبل أي للصائد الّذي يعلق الحبل في عرقوبها، وسيأتي هذا إن شاء الله تعالى في العسبار أيضاً.

روى الحافظ أبو نعيم بسنده إلى حمزة بن أسد الحارثي قال: خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار إلى بقيع الغرقد، فإذا ذئب مفترش ذراعيه، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أويس فافرضوا له**»، فلم يفعلوا، انتهى، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الذال المعجمة في لفظ الذئب قصّة وافد الذئاب على رسول الله ﷺ، وبهذا سمّي أويس بن عامر القرني، أدرك النبيّ ﷺ ولم يره وسكن الكوفة، وهو من أكبر تابعيها. روى مسلم عن أسيد بن جابر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**خير التّابعين رجل يقال له أويس القرني، يأتي عليكم في أمداد أهل اليمن، لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**»، فلمّا قدم على عمر رضي الله عنه سأله أن يستغفر له فاستغفر له، الحديث بطوله، وقتل أويس يوم صفّين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وروى أحمد بن حنبل رضي الله عنه في «**الزهد**» عن الحسن البصري أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنّة بشفاعة رجل من أمّتي أكثر من ربيعة ومضر**»، قال الحسن: هو أويس القرني، وهو منسوب إلى قَرَن بفتح الرّاء قبيلة من مراد. وللجوهري رحمه الله في ذلك غلط مشهور، وخرّج ابن السمّاك عن يحيى بن جعفر قال: حدّثنا شبابة بن سوار قال: حدّثنا جرير بن عثمان عن عبد الله بن ميسرة وحبيب بن عبيد الرحبي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنّة بشفاعة رجل من أمّتي مثل أحد الحيين ربيعة ومضر**»، قيل: يا رسول الله وما ربيعة من مضر؟ قال رسول الله ﷺ: «إنّما أقول ما أقول»، قال: فكان المشيخة يرون أنّ ذلك الرجل عثمان بن عفّان رضي الله عنه. وذكر القاضي عياض في **الشفا** عن كعب أنّ لكل رجل من الصحابة شفاعة، وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا عبد الرّحمن بن يزيد بن جابر أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**يكون في أمّتي رجل يقال له صلة بن أشيم يدخل الجنّة بشفاعته كذا وكذا**».

أيلس: قال القزويني: إنّه نوع من السمك، عظيم جدّاً، وحيوانات البحر كلّها تصاد سواه.

ومن خواصه: أنّه إذا شُوِي وأكل منه شخصان معاً بينهما عداوة وخصومة تبدّلت ألفة.

الأيم والأين: الحيّة، وقال الأزرقي في **تاريخ مكّة**: الأيم الحيّة الذكر، ثم روى بإسناده عن طلق بن حبيب، قال: كنّا جلوساً مع عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ في الحجر إذ قلص الظل وقامت المجالس، وإذا نحن ببريق أيم طالع من باب بني شيبة فاشرأبّت له أعين النّاس، فطاف بالبيت سبعاً وصلّى ركعتين وراء المقام، فقمنا إليه وقلنا له: أيّها المعتمر قد قضى الله نسكك وإن بأرضنا عبيد أو سفهاء، وإنّا نخشى عليك منهم، فمر ذاهباً نحو السماء، فلم نره. وفي الحديث أنّه أمر بقتل الأيم. قال ابن السكيت: أصله أيم فخفف مثل لين ولين وهين وهين، والجمع أيوم. وسيأتي إن شاء الله تعالى في الكعيب ما ذكره الأزرقي عقب هذا ممّا يشابهه.

الأيل: بتشديد الياء المكسورة، ذكر الأوعال، والأيل لغة فيه، ويقال: هو الّذي يسمّى بالفارسيّة كوزن، وأكثر أحواله شبيه ببقر الوحش، وهو إذا خاف من الصياد يرمي نفسه من رأس الجبل، ولا يتضرّر بذلك، وعدد سني عمره عدد العقد الّتي في قرنه، وإذا لسعته الحيّة أكل السرطان، ويصادق السمك، فهو يمشي إلى الساحل ليرى السمك، والسمك يقرب من البر ليراه، والصيادون يعرفون هذا فيلبسون جلده ليقصدهم السمك فيصيدوا منه، وهو مولع بأكل الحيّات، يطلبها حيث وجدها، وربّما لسعته، فتسيل دموعه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه، يدخل الإصبع فيهما، فتجمد تلك الدموع وتصير كالشمس فيتخذ درياقاً[1] لسم الحيّات، وهو الباد زهر الحيواني وأجوده الأصفر، وأماكنه بلاد الهند والسند وفارس، وإذا وضع على لسع الحيّات والعقارب نفعها، وإن أمسكه شارب السم في فيه نفعه وله في دفع السموم خاصية عجيبة، وهذا الحيوان لا تنبت له قرون إلا بعد مضي سنتين من عمره، فإذا نبت قرناه نبتا مستقيمين كالوتدين، وفي الثالثة يتشعّبان، ولا يزال التشعّب في زيادة إلى تمام ستّ سنين، فحينئذٍ يكونان كالشجرتين في رأسه، ثم بعد ذلك يلقي قرنيه في كل سنة مرّة، ثم ينبتان، فإذا نبتا تعرض بهما للشمس ليصلبا.

(١) الدرياق: الدواء.

وقال أرسطو: إنّ هذا النوع يصاد بالصفير والغناء، ولا ينام ما دام يسمع ذلك، فالصيّادون يشغلونه بذلك ويأتونه من ورائه، فإذا رأوه قد استرخت أذناه أخذوه. وذكره من عصب لا لحم ولا عظم، وقرنه مصمت لا تجويف فيه، وهو في نفسه جبان دائم الرعب وهو يأكل الحيّات أكلاً ذريعاً، وإذا أكل الحيّة بدأ بأكل ذنبها إلى رأسها، وهو يلقي قرونه في كل سنة، وذلك إلهام من الله تعالى لما للنّاس فيها من المنفعة، لأنّ الناس يطردون بقرنه كل دابة سوء وييسر عسر الولادة، وينفع الحوامل، ويخرج الدود من البطن إذا أحرق منه جزء ولعق بالعسل، قاله في «**النعوت**»، ويسمن هذا الحيوان سمناً كثيراً فإذا اتفق له ذلك هرب خوفاً من أن يصاد.

تتمة: قال الزجاجي: سئل ابن دريد عن معنى قول الشاعر:

هجرتك لا قلى منّي ولكن رأيت بقاء ودك في الصدود
كهجر الحائمات الورد لما رأت أن المنية في الورود
تغيظ نفوسها ظمأ وتخشى حماماً فهي تنظر من بعيد
تصد بوجه ذي البغضاء عنه وترمقه بألحاظ الودود

فقال: الحائم الّذي يدور حول الماء ولا يصل إليه، ومعنى الشعر أنّ الأيايل تأكل الأفاعي في الصيف فتحمى وتلتهب لحرارتها، فتطلب الماء، فإذا رأته امتنعت من شربه، وحامت عليه تتسّمه لأنّها لو شربته في تلك الحالة فصادف الماء السم الّذي في أجوافها هلكت، فلا تزال تمتنع من شرب الماء حتى يطول بها الزمان فيذهب ثوران السم ثم تشربه فلا يضرّها، فيقول هذا الشاعر: أنا في تركي وصالك مع شدّة حاجتي إليه بمثابة الحائمات الّتي تدع شرب الماء مع شدّة حاجتها إليه إبقاء على حياتها.

والزجاجي هو عبد الرّحمٰن بن إسحٰق أبو القاسم الزجاجي إمام النحو، صحب أبا إسحٰق الزجاج، فعرف به ونسب إليه وصنّف «**كتاب الجمل**» وطوّله بكثرة الأمثلة، ولم يشتغل به أحد إلا انتفع به لأنّه صنّفه بمكّة المشرفة، وكان إذا فرغ من باب طاف أسبوعاً وسأل الله تعالى أن يغفر له وأن ينفع به قارئه. ومن كلامه ما حرم الله شيئاً إلاّ وأحل بإزائه خيراً منه: حرّم الميتة وأباح المذكى، وحرّم الخمر وأباح النبيذ، وحرّم السفاح وأباح النكاح، وحرّم الرّبا وأباح البيع. توفّي سنة سبع أو تسع وثلاثين وثلاثمائة بدمشق، وقيل: بطبرية، وما أحسن قول أبي منصور موهوب الجواليقي اللغوي:

ورد الورى سلسال جودك فارتووا ووقفت حول الورد وقفة حائم
حيران أطلب غفلة من وارد والورد لا يزداد غير تزاحم

وكان الجواليقي إماماً في فنون الأدب، وله تصانيف مفيدة، وكان إماماً للخليفة المقتفي يصلّي به الصلوات الخمس، ولمّا دخل عليه أوّل دخلة قال: السلام على أمير المؤمنين ورحمة

الله وبركاته، فقال له الطبيب هبة الله بن صاعد بن التلميذ النصراني: ما هكذا يُسلّم على أمير المؤمنين يا شيخ، فلم يلتفت إليه الجواليقي، وقال للمقتفي: يا أمير المؤمنين سلامي هو ما جاءت به السنّة النبوية. وروى له خبراً في صورة السلام ثم قال: يا أمير المؤمنين لو حلف حالف أنّ نصرانياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتبر لما لزمته كفارة الحنث لأنّ الله تعالى ختم على قلوبهم، ولن يفك ختمه إلا الإيمان، فقال: صدقت وأحسنت، قال: فكأنّما ألقم ابن التلميذ بحجر مع فضله وغزارة أدبه، ووجدت البيتين المتقدمين لابن الخشاب من أبيات. توفّي الجواليقي في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ببغداد.

الحكم: يحل أكله لأنه مستطاب كالوعل، ولم يذكره الرافعي في باب الأطعمة، وإنّما ذكره في باب الربا فقال: وفي لحم الظباء مع الأيل تردد للشيخ أبي محمد، واستقرّ جوابه على أنّهما كالضأن مع المعز فلا يباع أحدهما بالآخر إلاّ مثلاً بمثل، انتهى. وحكى المتولي في ذلك وجهين من غير ترجيح.

الخواص: إذا بخر بقرنه طرد الهوام وكل ذي سم، وإذ أحرق قرنه وسحق واستيك به قطع الصفرة والحفر من الأسنان وشد أصولها، ومن علق عليه شيء من أجزائه لم ينم ما دام عليه. وإذا جفف قضيبه وسقي هيج الباه، وإذا شرب دمه فتت الحصاة الّتي في المثانة، والله تعالى أعلم.

ابن آوى: جمعه بنات آوى، وكذلك ابن عرس وابن المخاض وابن اللبون تقول بنات عرس وبنات مخاض وبنات لبون وبنات آوى، ولا ينصرف، قال الشاعر:

إنّ ابن آوى لشديد المقتنص
وهو إذا ما صيد ريح في قفص

وكنيته أبو أيوب وأبو ذئيب وأبو كعب وأبو وائل، وسمّي ابن آوى لأنّه يأوي إلى عواء أبناء جنسه ولا يعوي إلاّ ليلاً، وذلك إذا استوحش وبقي وحده وصياحه يشبه صياح الصبيان، وهو طويل المخالب والأظفار يعدو على غيره، ويأكل مما يصيد من الطيور وغيرها، وخوف الدجاج منه أشدّ من خوفها من الثعلب لأنّه إذا مرّ تحتها وهي على الشجرة أو الجدار تساقطت وإن كان عدداً كثيراً.

الحكم: الأصح تحريم أكله لأنّه يعدو بنابه ولو قيل: إنّ نابه ضعيف، فيكون كالضبع والثعلب لكان مذهباً.

وملخص ما فيه عندنا وجهان: الأصح في «**المحرر والمنهاج، والشرح والحاوي الصغيرين**» التحريم، والثاني وهو اختيار الشيخ أبي حامد الحل، وسئل الإمام أحمد عنه فقال: كل ما نهش بأنيابه فهو من السباع، وبحظره قال أبو حنيفة وصاحباه.

الخواص: إذا ترك لسانه في بيت وقعت الخصومة بين أهله، ولحمه ينفع من الجنون والصرع العارض في أواخر الشهر، وإذا علقت عينه اليمنى على من يخاف العين أمن، ولم تضره عين عائن، وقلبه إذا علق على شخص أمن من سائر السباع بإذن الله تعالى، والله تعالى أعلم.

obeikandl.com